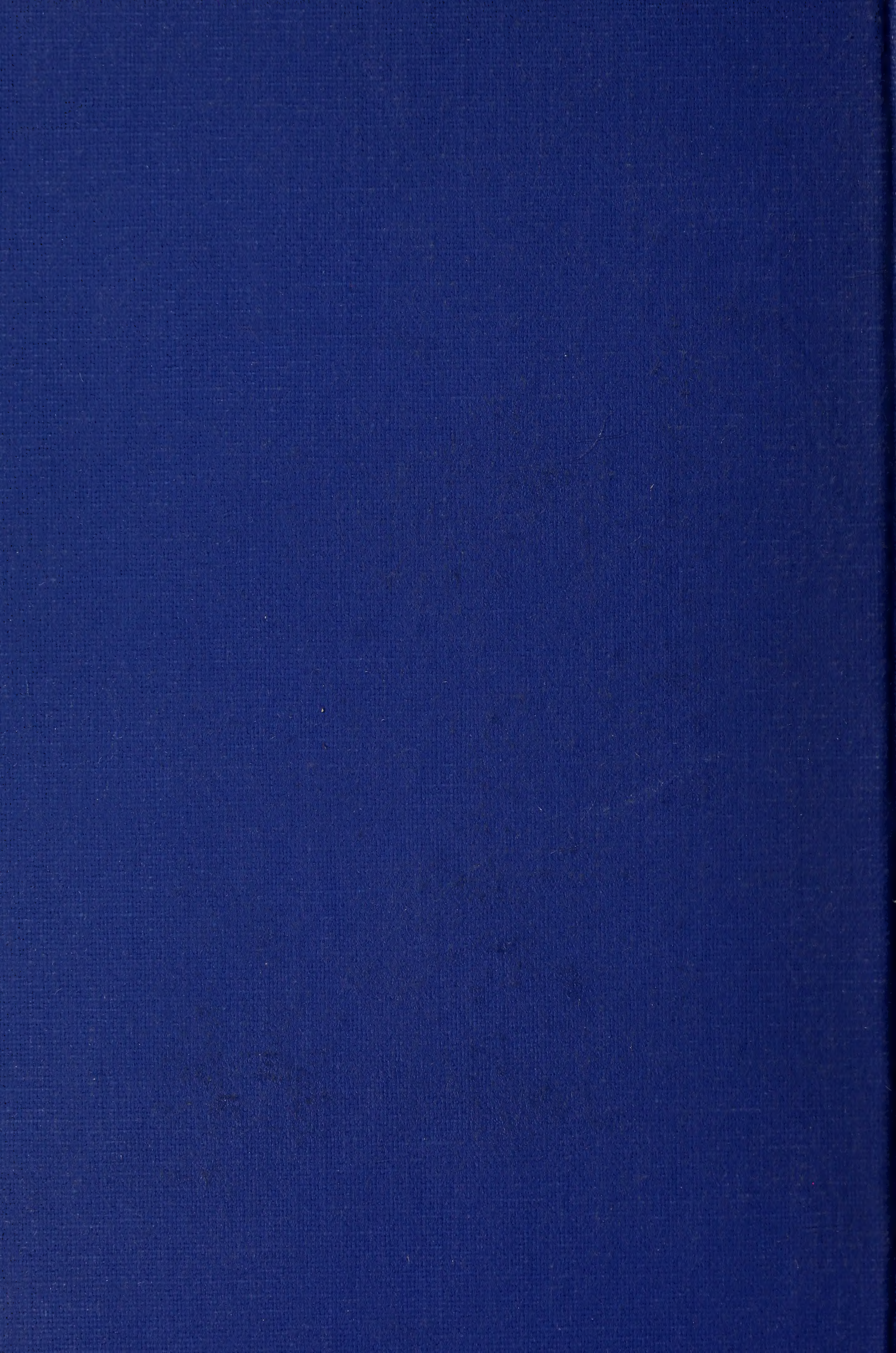
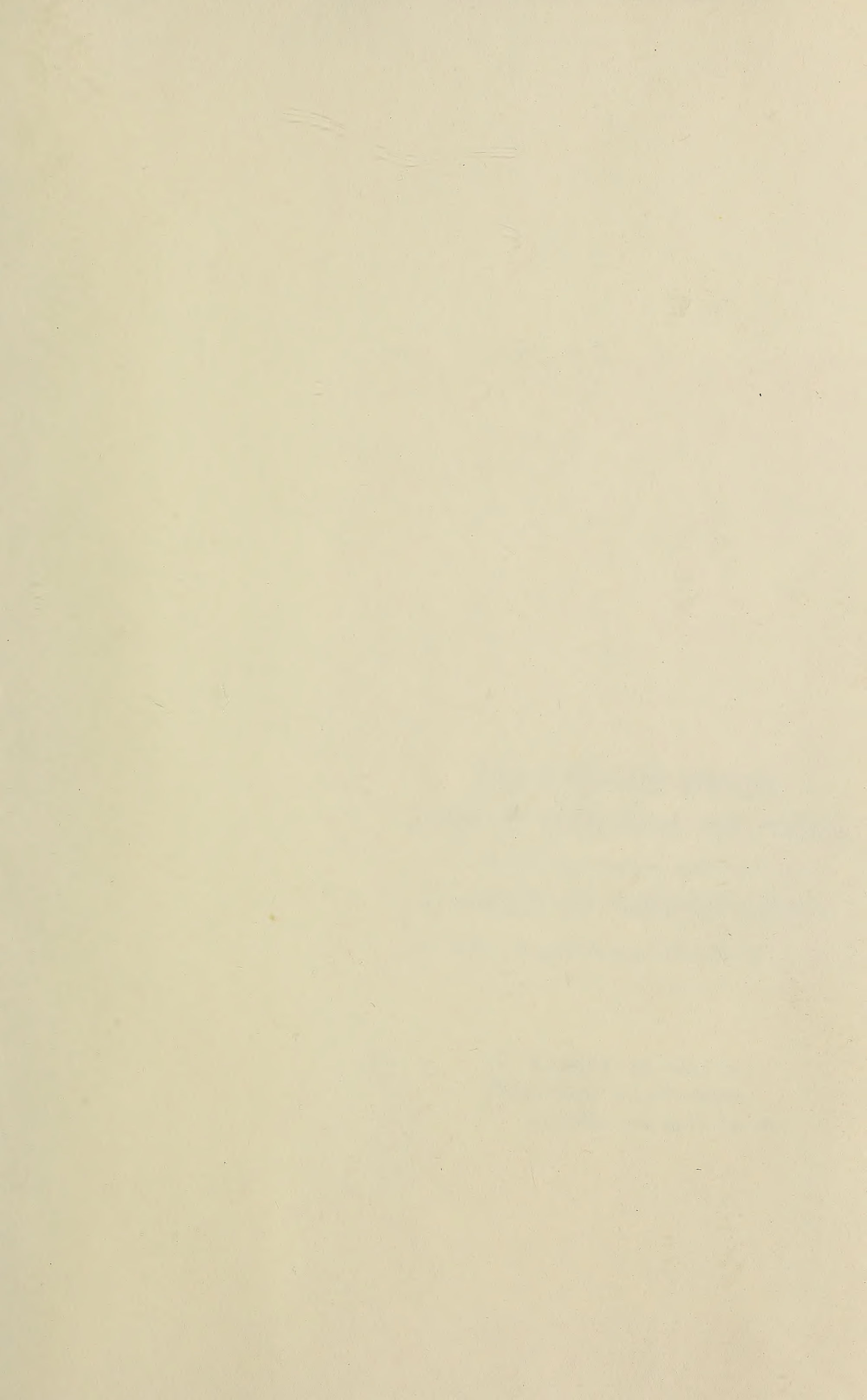
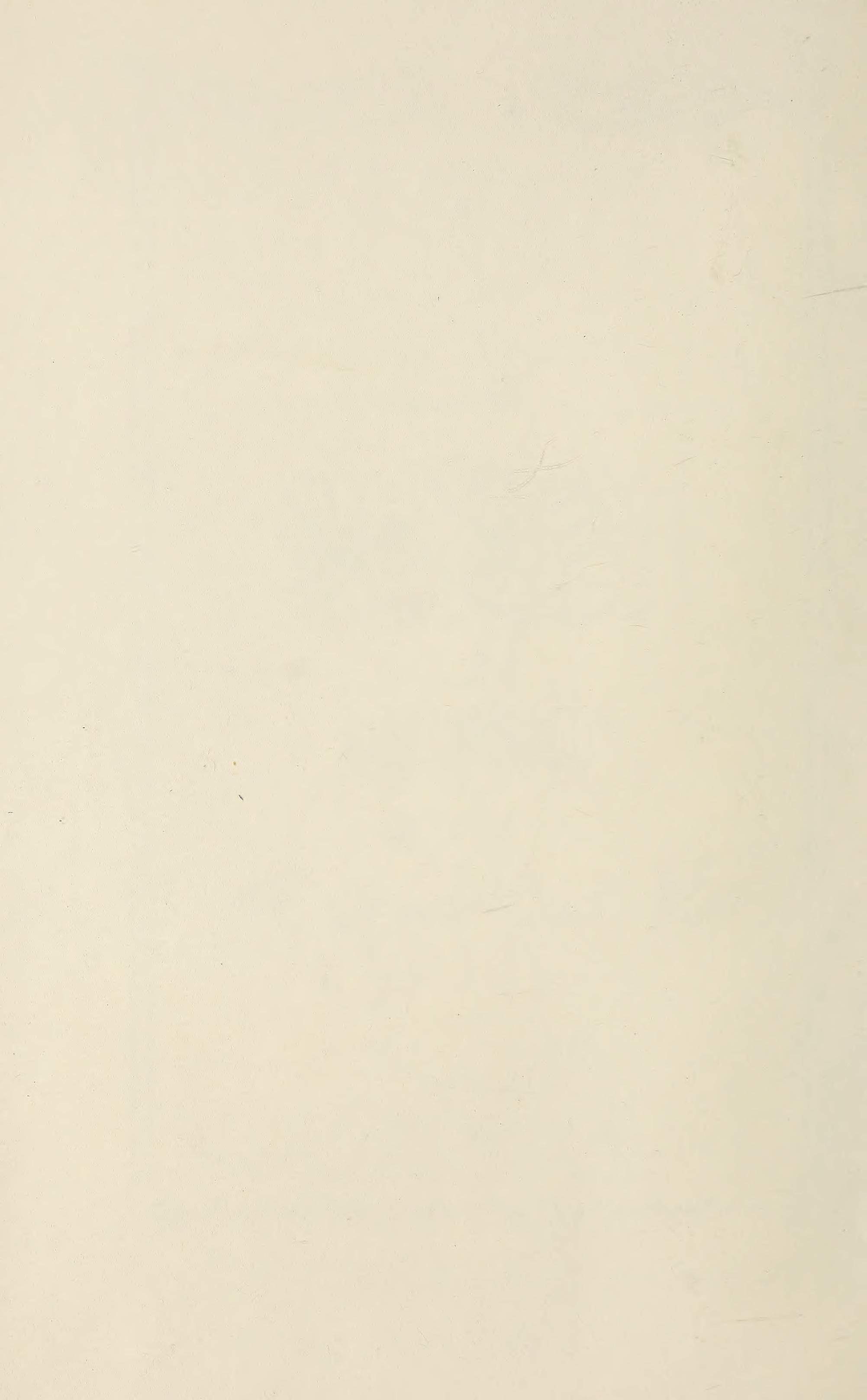
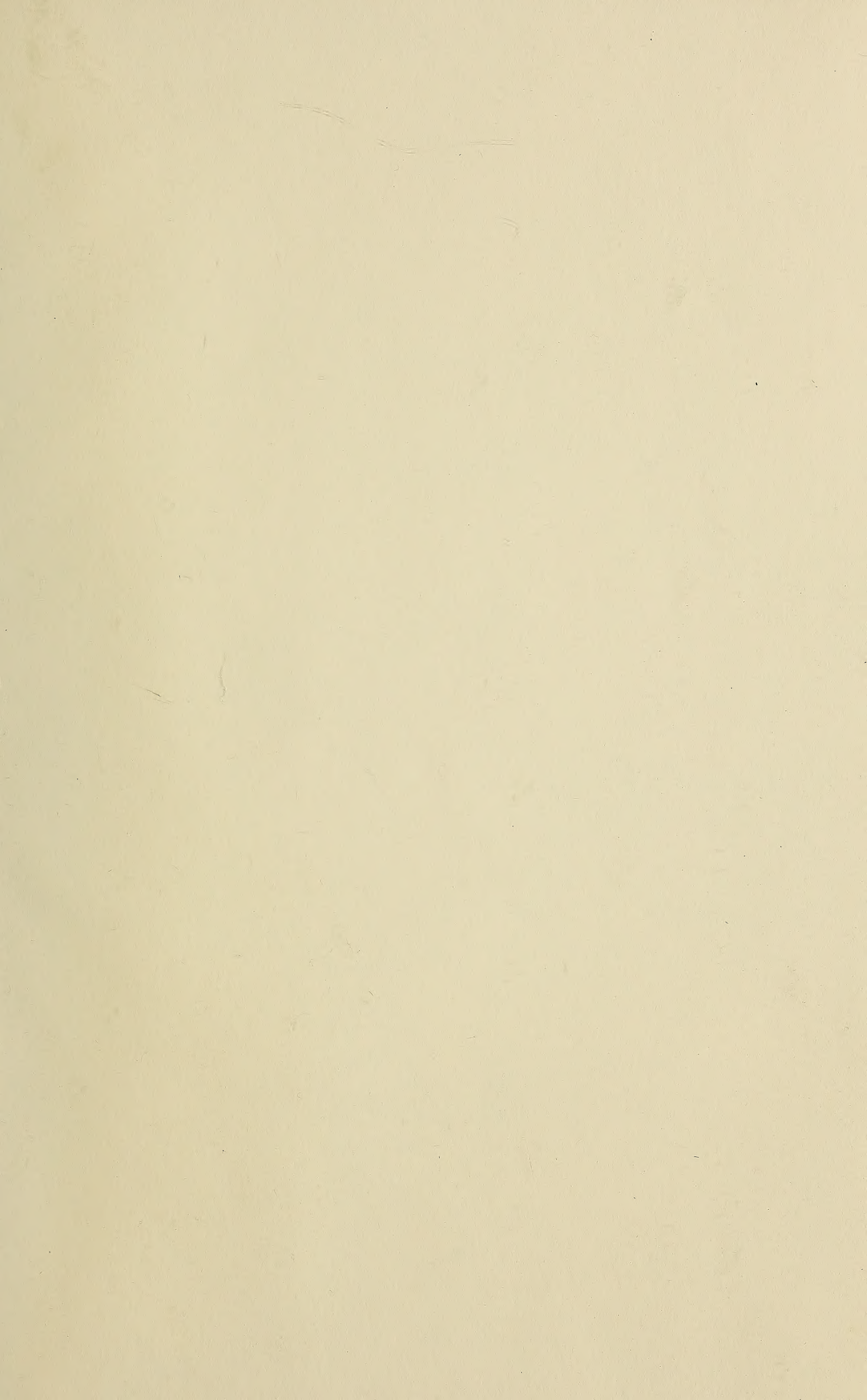
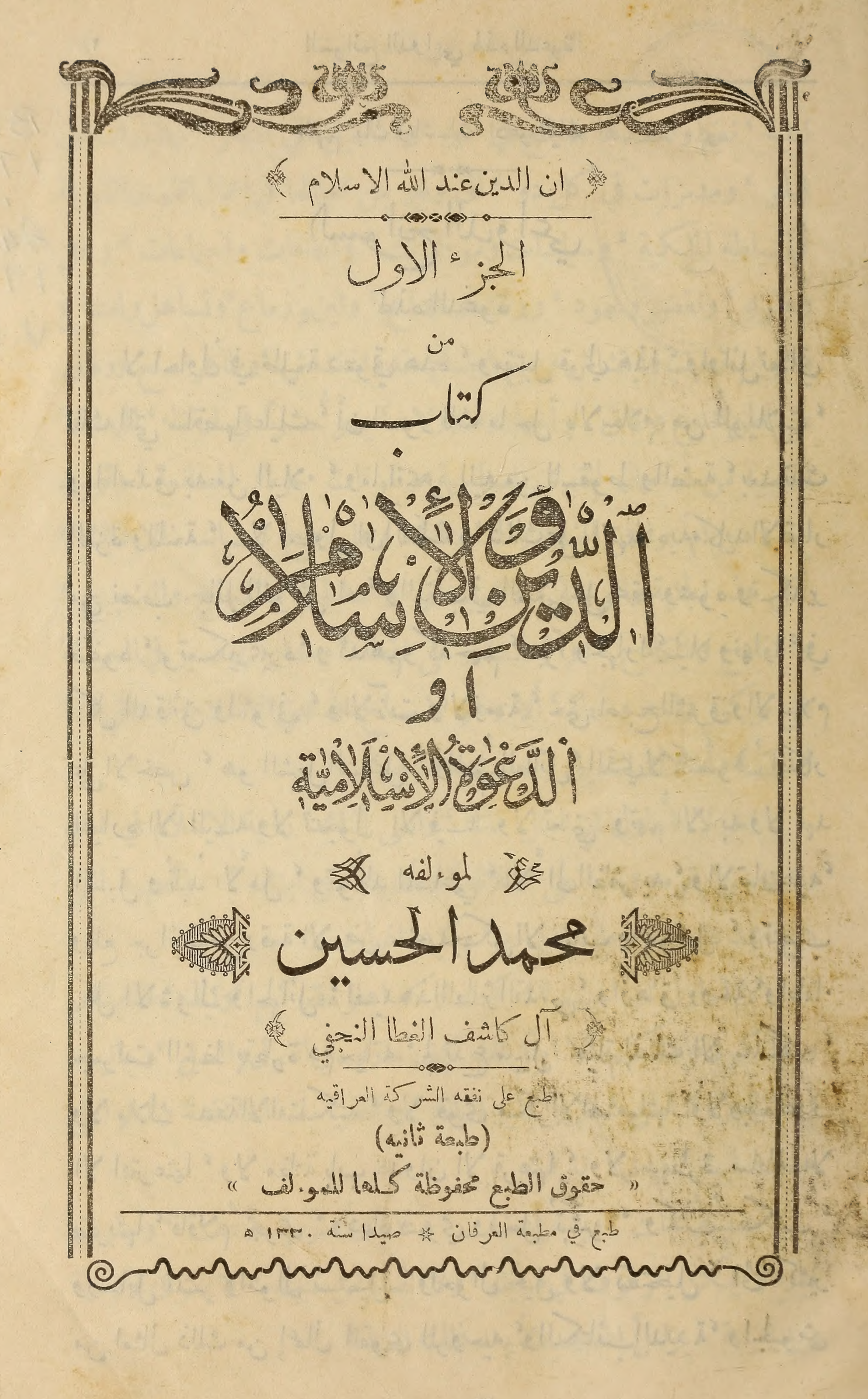










ان الدين عند الله الاسلام

الجزء الاول

من

كتاب

الدين والاسلام

او

الدعوة الاسلامية

لموءلفه

محمد الحسين

آل كاشف الغطا النجفي

طبع على نفقه الشركة العراقيه

(طبعة ثانيه)

طبع في مطبعة العرفان ✲ صيدا سنة ١٣٣٠ ه

اللهم بك وباسمك ادعو اليك

السوانح الدواعي

لهذه الدعوة

لا احاولُ في طليعة دعوتي هذه ' ومقتبل قولي هذا ' واوائل نفثاتي تلك التي ساقصها عليك ' أن اصور لك ما حلّ بالاسلام من الويلات ' وما احدق به من البلاء ' وما انتهى اليه من السقوط والضعة ' بعد تلك العزة والمنعة ' لا احاول ان الفِتَكَ واذُلّكَ على ماتتهدده به مكايد الاغيار من نصب حبائل الغوائل له ' والدأب في السعي على محقه ومحوه وتكدير صفوه ' وتعكير غديره ' وكدّهم وكدحهم ' سرًا وجهارا ' ليلا ونهارا ' في كل الدقائق والثواني ' والآنات والازمنة ' حتى اصبح الشرق والاسلام على الاخص ' هو الشغل الشاغل ' والهمّ الطائل ' الذي لا تَتصرَّفُ افكار اغياره الاّ اليه ولا تتجول الا فيه ولا تعتني وتهمّ الا به ولا تمهد السبل وتُأبَدُ الأمل ' وتوطّد المساعي ' الاّ الى الظفر به ' والاتيان عليه ' وقلع جراثيمه من رقعة الارض . تجهد بكل الاسباب والعوامل ' وتنصب كل الاشراك والحبائل ' لصيد هذا الطائر القدسي ' وازهاق روحه ' واطفاء جمرات الغيظ بقطرة دم حياته ' لم تدع سبيل حيلة لذلك الاّ سلكته ' ولا ملاك خدعة الا امتلكته ' ولا قوى مكر الا استعملتها ' ولا اربوة غدر الا افترعتها ' ولا مظنة باب عدوان الا قرعتها ' ولا سيطرة سلطة الا ضربتها ' فاقلامٌ تجري ' ودعاة تسري ورسل تُبَشّر ' وكتبٌ تكتب ' ورسائل تنشر واموال تستميل ' واحوال تحيل ولا تستحيل ' الى كثير من امثال ذلك من إعمال القوى الروحيه ' والكتائب الدينية ' والجيوش

الملية ، نعم وتعضدها مدافع في البر ، واساطيل في البحر ، وطيارات في الجو ، ومدمرات في كل دوّ ، الى وفير من امثالها في إعمال القوى القهرية والسلطة الملكية ، وسياسات ومؤتمرات ، واتفاقات واجتماعات ، وحل وعقود ، ونقض وعهود ، وبرقشة وخداع ، ولين وزماع ، وتساهل وامتناع واثواب تحبب وابتشاش وعلى اجسام حقد واغتشاش ، وظاهر نصح ووفاق على باطن خُدع ونفاق . واجهار وود وولاء ، يسرّ حسواً في ارتغاء ، الى ما لا احصيه من استعمال القوى السياسية وتلونات حرباء المصانعة ، وتوليد الغلبة من امّ براقش الغدر والمداهنة ، (وهل روح السياسة الا ذلك) كل هذه الجلبة والوجبة ، والسباق والحلبة ، والعجيج والضجيج ، والتفادح والتكادح ، دوائر تستدير على نقطة ، ومدارات تسير في الحركة على مركزٍ واحد وخطة ، ألا وهو لا سمح الله محق الاسلام وازهاق هذا الدين ، وامتلاك الشرق واستعباد الشرقيين

نعم لا احاول ان امثِّل لك ، وانعى اليك ، رزية الاسلام في اهله وبليته من قومه ونعيه على اسلافه ، ومصيبته من ابنائه ، — المصيبة التي هي اشد عليه من وطأة اعدائه ، وكيد اغياره

لا احاول ان اجسم لك كيف تركه اهلوه فتركهم ، ونبذوه فانتبذهم واهلكوه فاهلكهم ، لا امثِّل لك كيف حاربوه في القول والعمل ، وجانبوه في الظاهر والباطن ، فتزيوا بغير ازيائه ، وتخلقوا بضد اخلاقه ، وعملوا على هدم اساسه ، وإخماد نبراسه

مصيبةٌ جلت ، وبلية اعضلت ، وعدوىً سرت وعمت ، وجارف تيارٍ لا يمكن الوقوف في مسيله ، ولا الصد عن سبيله ، الاّ بقوى روحية ويد غيبية (ولعلّ الله يحدثُ بعد ذلك امرا)

لا احاول ان اسرد عليك تمزُّق اشلائه وتفرُّق اعضائه ، وتشعب شعوبه وتبدد عناصره واواصره ، بالاهواء المختلفة ، والآراء المختلقة ، وطفيف من الخلاف في بعض الفروع التي لا يوجب الخلاف فيها كل ذلك التضارب والتحارب ، والمهارشة والتكالب ، والتعاير والتسابب والتشعب الشائن ، الذي ينهاهم عنه كتابهم ولا يبيح شيئا منه دينهم ، ويردع بصريح القول وجليّ البيان عنه قرآنهم صائحاً فيهم بملء فيه

« اعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا » « لا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم » « لا تكونوا كالتي نقضت غزلها من بعد قوة انكاثا » لا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا »

امرٌ غريبٌ و حديثٌ مدهش ، لو حُدّثنا به على الغيب لحسبناه ضربا من التخييل . او نوعا من الشعر والتمثيل . اعظاما له وإكبارا

تَجدُ الفِرَقَ الاسلامية على تباعدها وتقاربها كلها تنزلُ القرآن احسن منازله تتخذه قبلة احكامها ، ووجهة حلالها وحرامها ، تحلُّ كلَّما أَحله وتحرم كلما حرّمه سوى ما اشتملت عليه هذه الآيات الذهبية من الحكمة الادبية التي لا سعادة ولا سيادة الا بها ولا بقاء لملة او دولة الاّ بالاحتفاظ عليها قد اصبحت تلك الآي وكأَن لا مسيس لها في الدين ولا هي من مشروعاته واحكامه

نفذت الروح الغربية في جسد الشرق وجسم العالم الاسلامي فانتزعت منه كل عاطفة شريفة واحساس روحي وشرف معنوي ومجد باذخ واستقلال ذاتي ما عتمت أن تركته يسخر بدينه ويهزأ بكتابه وينبذ بعهوده من وراء ظهره تركت الجسم المؤلف من ثلثمائة مليون نسمة فأكثر مقطَّع الوشايج منفصم العرى منبتر الروابط لا تعارفَ بينهم ولا تآلف

تركتهم شذر مذر جماعاتهم اوزاع وشملهم ضياع تركتهم يقتل بعضهم بعضا ويكفر قوم قوما . يستحل جماعة دم آخرين وهم اخوان بنص كتابهم واوليات مشروعات دينهم ولكن نفذت فيهم روح تلك السياسة وكهربت عقولهم سيالات تلك البرقشة فطلسمتهم بل اعمتهم واصمتهم

تسمع بالمسلم الشرقي الذي يلهج بالحماة والذب عن الدين الاسلامي والتناصر له فاذا وقع بصرك عليه وجدته غريبا من قرنه الى قدمه غربيّ الاهواء غربي الازياء غربي الاميال ، غربي الشكل ، غربي اللباس غربي الظاهر كله ، (والله اعلم بالباطن) غربيا في كل شيء وليس عليه من اثر الاسلام شيء تقليداً اعمى ، وجهلا مطبقا ، واعجابا بزخارف الدنيا وسفاسف الامور ، واغترارا بالعرضيات ، عن الحقايق والجوهريات

كلاّ لا احاول بيان شيء من هذه الاحوال المشجية ، والبحث عن شأن من هذه الشؤون المحزنة المبكية ، فانك تجد كل ذلك نصب عينك ، وتنظره بملء بصرك ، وتحسه بكل مشاعرك واحساساتك ، ولأوشك من الظهور ان يتجسم حتى تلمسه بيدك ، وتقبض عليه بكفك واي حاجة الى بيان ما اوضحه العيان ، ومهما استطردنا شيئا من ذلك فيما يرد بعدُ فما هو من القصد والغرض في شيء ، وانما هو من سبق القلم ، ودفع حرارة الالم ،

إنَّ السيَّالَ الذي يَبُصُّ من سماء الفكر على الواح الضمير ، فيهزّ اليراعةَ الساعةَ للقول ، ويمرّن أسلات اللسان للبيان ، وينشط الانامل على الجري والجولان ، في ميدان هذا الطرس ،

سوانحُ مِن بنات الخيال تفصِّل مجملا من موجباتِ العناية التي دفعتِ العزايم الى نشرِ ماتضمنته هذه الدعوة ، تنشر لفًّا من حقايق تتنزل

من عرش الحكمة ' الى دارة التدبر ' وفلك التفكر ' سوانحُ حياةٍ تدرّست في مدرسة الاكوان ' وانضجتها تجولات العِبر ' وتقلبات الصروف والغِير ' وشذَّبها عجيبُ ماتسمع وترى ' من علم الحاضر والغابر ' وأنحت عليها امُّ دفِر حتى تركتها كلمع قبس ' اوومضة برق ' او روح تردد في مثل الخيال ﴿ واليك بيانها ﴾

(١) أَجدُ وكلُّ باحث ان ّكل دين من الاديان ' اياً ما كان ' وكل ملة من الملل ' ودعوة في العالم ' بل وكل سلطة في البسيطة ' وغلبة في السلطان ما هي في باديء امرها ' واول حداثتها ونشوها ' الا ّكفرخ طاير يترعرع في مدرجة الكون ' ولا يستطيع من الحركة والنهوض ' الا دون دبيب النمل على الارض ' ثم لا تبرح العناية في نواميس الطبيعة تصر ّفه فيما قضت له ' فاما ان تُودي به زوابع الكون ' وفجايع الصروف ' او تدفعه الى بلوغ الغاية التي يسِّرت له ' نعم ولا ينهض الى تلك الغاية الا بمسعدَي جناحين يطير بهما في الاجواء ' ويحلق في الفضاء الى حيث شاء (الجناح الأول) تواصلُ العلم والعمل ' و (الثاني) تناصرُ السيف والقلم ' ماسادت أُمّة ' ولا سَعُدت دعوه ' ولا حلَّقت في سماء العلو والرفعة مله ' ولا اتسعت في البسطة على البسيطة سلطة ' ولا طار صوت مُلك وانتشر في العالم صيت مملكه ' الا باسعاد هذين الجناحين ' وعلى قدر الحظ ووفور النصيب منهما يكون الحظ من القوة والنفوذ في السطوة والسعة في الملك والسلطان

تمثل هـذا الطاير القدسي (الاسلام) في اواسط الخلافة العباسية بمثل اكبر ما يكون من النسور ' فانشب مخالبه في اعماق البسيطة ' واثبت رجليه على تخوم الارض ' واحتك ّ بظهره اعنة السماء من هذا المحيط '

واستقبل بوجهه الكعبة المقدسة ، من ناحية الجنوب ، حتى اطلع راسه من وراء خط الاستواء ، ومدّ ذنبه على اقصى المعمورة من الشمال ، ونشر احد جناحيه على المشرق حتى وضع قوادمه على جدار الصين

وظلل بالثاني طرف المغرب الى منتهى المحيط فقال للشمس اينما اشرقتِ ففي ظلالي ، وللسحاب اينما ودقت ففي بيت مالي

بلغ هذا الطائر المبارك الميمون من الضخامة والعظمة في اقل من قرن ونصف مالم تبلغه اكبر دول العالم في عدة قرون لاقبله ولا بعده ، إعجازاً باهرا ، وشأنا عظيما ولا تساني اليوم عما حلّ بهذا الطاير الحبيب الي فتسيل عبراتي ، وتستثير دفين زفراتي ، التي تَطاير بافلاذ كبدي ، وشظايا قلبي ، وتخمد ضئيل ضوء حياتي ، قبل رجع الجواب ، بانه مسحت اطرافه . وبترت ذنائبه . حُصَّت اجنحته . كتعت يداه ورجلاه . دمغت هامته حتى تداخلت في عنقه . فاختنق صوته واخفتت دعوته . واصبح كجؤجوء في وسط العراء تكتنفه الذئاب والوحوش . والقشاعم والنسور . كل يوم تنهش قطعة من لحمه . وتكسر عظما من عظمه . وهو ينظر بعينه " لا ايدٍ تدفع ولا جناح سلاحٍ يمنع . فهو طعمة للحشرات من الهوام . وللبغاث من الطير التي تستنسر في ارضه وتلك زيادة في العلة . وجمرة على غلة . فانه اليوم بنفسه . قد اشفى « لا سمح الله » على الهلكة . من ادواء في داخله . وعلل في فؤاده . ومزمنات اسقام في ريته وكبده . كيف وقد عاث الفساد في كل باقية من جوارحه فهو يعالج معضلات الداخل والخارج . وموهنات الظاهر والباطن . وصدمات العدو والصديق

دع حديثك هذا فانه شجون . يسيل بذوب القلوب في شآبيب العيون واما وحرمته اني لاحر فيما هنا والحسرات تتكسر في صدري . والدمع

قبل القلم يجري . والعبرات امام العبارات تنهل . ويا حبذا لو سمحت لي العناية بموقف تُراق قطرة دم حياتي في سبيل حياته امامَ الصف الذي تراق فيه دماء اخواني اليوم . ويضحُّون حياتهم لاجله . فيحيون الحياة السعيدة ويميشون وراءها عيش الرغد والهناء سعادةً انا من اليقين بها لامثالهم على مثل ضوء الفلق ﴿ولا يلقَّاها الاَّ الذين صبروا ولا يلقاها الا ذو حظٍّ عظيم﴾

اوشك ان يفوت الغرض فعد الى العلم والعمل . والسيف والقلم عد الى الجناحين الذين لا تحلق امة الى اوج الفخر . ولا تخوض موج العز الاّ بدفتيهما . والاعتماد عليهما . عد الى هذه الاركان الاربعة والدعائم المنيعة التي تبنى عليها قبة كل مجد وشرف . و كل سعادة وسيادة . وبمقدار قوتها وارتفاعها . ترتفع منازل الامم . وتقوى العزائم والهمم

امَّا العلم والعمل فهما فرضٌ في نواميس الحياة . واصول تنازع البقاء على كل فرد من البشر في كلا شعبتيه . و كل شعوبه . وان اختلفت العلوم وتنوعت الاعمال . ولكن لا ندحة لذي صحة عن عملٍ ما يبتني على علمه اللازم له . اللائق به والا فالعمل بلا علم كالبناء على غير اساس أَخاق به وشيكًا ان ينهدم على صاحبه . ويقضي على ظمأ حياته

والعلم بلا عمل كالاساس ولا بناء . لايزال صاحبه ضاحيا في وهج الشمس عرضة للصروف . لايعتم ان تمزقه نفحات الزمهرير ولفحات الهجير من عواصف هذا الكون . تمزقه مجاذبة الحدثان بالاهمال . ولو اظلته اردفة القصور اوانضمت عليه اجنحة النسور . فالعلم والعمل هما المعنان بل العينان واليدان للرجل والرجلان . هما الاداة لكل ساع الى سبل الغايات الحيوية بل السعادة الابدية . فردًا او اسرة جماعة او وحدانا

امَّا السيف والقلم فهما مواضع الميزة . ومنازل التفرقة . يتكافآن

على سنن التبادل والمعادلة . لا يلزمان على كل احد . ولا على كل حال . وانما هما آلة الملك . وأدوات القوة . وسياج الملة . وأطار الدعوة ومُعدّات الرُقيّ . وموطِّدات العز . ورواصد كيان الشرف . فللسيف رجالٌ وللاقلام اقوام . وإن قبض شهمٌ على كليهما وقام بحقهما . ونادراً ما يكون — فمرحبا ومرحى . امّا حيث تسوق العناية كما هو الغالب زمرة لهذا وطائفة لذلك — على نواميسها في كافة الصنائع . وسائر الحاجيات . التي يتوقف عليها نظام المدنية . وقوام كل هيئة اجتماعية . متوازنة في التبادل والتكافُوء بميزان العدل والحكمة التي يتمّ بها بقاء الاكوان . وحفظ الكيان . وسلامة سلسلة الانواع . في معركة الوجود . فاذا يسّرتِ الاسبابُ والمُعدات لكلٍّ نصيبَه من ذينك العاملين . فاللازم ان يقوم كلٌّ بوظيفته على آخر وُسعه ومجهوده . وأبعد نصحه لوطنه وامته . وحفظ كيان ملته ودولته . سعياً وراء الغاية التي انبتته العنايةُ من اجلها . وانشأته لتحصيلها واودعت ذلك في فطرته . وركزته في غريزته . وماهي الاّ نَيل السعادة والشرف الذي هو منتهى منازع الزعماء . وذوي الهمم

ذاك حيث يكون قد انتشل نفسَه من حَمأة الحيوانية . الى نشأة الانسانية وصار يعيش بما هو انسان كريم . لا بما هو حيوانٌ بهيم . والّا فليس الكلام معه . ولا اليه يُساق الحديث .

(سانحتي) الثانية — ما هو الشرفُ والسعادةُ التي يكدحُ اللبيب في السعي اليها . وهي الغاية التي يجهد في الوقوف عليها . التي من اجلها كان . وفي سبيلها وُجِد .

اني وإن منحتني الالطافُ المستجنة بادئ بدئها شرف الأسرة . وكرمَ الآباء والاجداد . الذين سبقت لهم المساعي المشكورة . في الوسط الذي

نبغوا فيه . والتربة التي نبتوا منها . وعادوا اليها ، مجداً متواصلا . وسلسلة مآثرٍ متكانفة . يَعرف ذلك لهم كلُّ اهل حاضرتهم واكثر الحواضر الاسلامية

ولكن لا أحسُّ انَّ في ذلك شيئًا من الشرف . ولا حظًّا من السعادة بيدَ انّي احيف على المرء ان يتامَّظَ فوه بـذلك فضلاً عن اتكال النفس اليه واعتمادها عليه

قد تجلى اليومَ مُستنيرًا لكلّ متنبِّه او نبيه . انّ الحي اذا افتخر بشرف ميتٍ فالميتُ هو الحيُّ والحي هو الميت وانَّ

(اشرف الاقوام امًا وابا من عاف ان يسمو بأم وبأب)

وانّ خِسة الابوين زيادةٌ في شرف الشريف بنفسه . وشرفُهما اذا كان خسيسًا زيادةٌ في خسته كلاًّ ما الشرف بالمال. ولا بحسن الوجه والجمال. ولا بالآباء والعشاير . ولا بسعة العلوم ومعرفة المهن والصنايع ولا. ولا. الخ

ليس الشرف الاّ ان يكدح الانسان في معركة الحياة حتى يكتسب امتلاك مال او ملكة كمال . ايًا ما كان . علما او صناعة خطابة او شجاعة او غير ذلك من ماديات الشرف وطلايعه . لا ما هو الشرف نفسه ثم يخدم المرء بمساعيه تلك ومكتسباته امّته وملته . خدمةً تعود بالهناء والراحة عليهم . او دفع شيء من الشرور عنهم . الشرفُ حفظُ الاستقلال . وتنشيط الافكار . وتنمية غرس المعارف . والذبُّ والمحاماةُ عن نواميس الدين واصول السعادة . الشريفُ من يخدم امته خدمةً تخلد ذكره . وتوجب عليهم في شريعة التكافي شكره . كلٌّ يؤدي جهده . وينفق مما عنده

بيدَ اني لا انزعُ الى انّ خلود الذكر . وتأبد الثناء او التأبين يكون بمجرّده سعادةً للانسان وشرفًا له . ما لم أرُدّه الى غاية . واقف به على معنى محصَّل . واخرج به عن هذا الفراغ . وانتشله من لقلقة اللفظِ وفرقعة

اللسان . اتغلغل فيه حتى اصل به الى حقايق في خارج عالم الخيال . ووراء مُتَّسع الاذهان

الشرفُ — حسنُ الذكر — الذكر الجميل — امثال ذلك — الفاظٌ تسيلُ على أسلات كلّ لسان وتردّدُ في فم كلّ انسان . صغيرةً في فضاء الفم كبيرة في عالم الوجود .

ولكني كلّما ردّدتها في سلسلة الاوايل والمبادي . وصعّدتها في اعمدة الامّهات والغايات . لم أجدها تقفُ الاّ على معنى السعادة الابدية . وهناء العيش الدايم . والتوفّر من النعيم والابتهاج للنفس في دارٍ اخرى . وراءَ التي نحن فيها اليوم . في حياةٍ سوى هذه الحياة التعيسة . المحفوفة بكل عناء وشقاء . مهما امتدّت حبايلها . واتسعت بالمساعفة اسبابُها

(فالدارونية) وعُبّاد الطبيعة الذين لايرون الانسان الاّ خلايًا منضمة واجزاءً مجتمعة . — وشيكًا ما تنحلّ وتذهب ادراج الرياح . وليس حياتها سوى وصفٍ لمجموعها . فاذا تفرقت وتلاشت فلا حياة بعدها — لايكون للشرف معني عندهم . ولا للذكر الجميل غاية لديهم . سوى التوفر من حظوظ النفس البهيمية . والتكثر من استيفاء الشهوات التي مهما تكثّر الانسان فما هو ببالغ منها مبلغ اخسّ الحيوانات

إنّ انفسًا ضربت على هذا الاصل . وسارت على هذه المبادي . واستحكمت بها هذه الضرايب . لا تجد عندها كلامًا افرغ واوهى من قول ذلك الفيلسوف الاجتماعي

فلا هطلت عليّ ولا بارضي سحايب ليس تنتظم البلادا

ولا تتخذ حكمةً اوثق واحقّ بالاتباع من قول (اذا مت عطشانا فلا نزل القطر)

نعم وقد برح الخفاء حتى قال قائلهم

انما دنياي نفسي فاذا ذهبت نفسي فلا عاش احد
ليت ان الشمس بعدي غربت ثم لم تطلع على اهل بلد

بل انهتك ستر كل صون وحياء حتى جاهر الآخر على رغم نواميس كل ادب، وبضد رابطة كل دين، فقال من ابيات إلحادية

لا يصلح الانسان مجتمعا ما دام فيه الدين والوطن

سعياً وراء الغايه التي ينزع اليها من محو احرف كل الاديان عن صفحة الوجود ومحق كل غيرة وطنية وعصبية قومية زاعماً انها هي التي اضرّت بالمجتمع البشري والعالم الانساني — قاتل الله الجهل بصورة العلم والباطل بزيّ الحق ما اعمه واعمى وابعد هذا الخيال عن الحقيقة وانقضه لدعايم العقل واعمدة الحصافة

يا هل ترى كيف عَزُب عن هؤلاء الباحثين انه لولا النزوع والحنين الى الاوطان لما انبسط على هذه البسيطة مهاد العمران ولولا سيطرة القوانين والطقوس شرعية او وضعية لانتكس هذا النوع البشري من اوج الانسانية الى حضيض الحيوانية

فهل ينتج من رفض تينك الفضيلتين المادية والادبية الاّ رذيلة الهمجية ورجوع الانسان الى اقدم عهوده في الحياة الكونية يوم كان يسكن المغارات والكهوف ويهيم على وجهه في الارض يا كل ماهبّ ودب ويريك من الوحشية والعداء كل عجب

عساك فيما ههنا تناجي وجدانك وتستفزّ انت في نفسك عواطفك وترفع عرض هذا الحال الى محكمة عقلك — طالباً الفرق بين قول من يقول (انما دنياي نفسي الخ)

وبين قول ذلك الحماسي الجاهلي بل العالم الاخلاقي القائل

واعرض عن مطاعم قد اراها　　فاتركها وفي بطني إنطواء

فلا وابيك ما في العيش خيرٌ　　ولا الدنيا اذا ذهب الحياء

وازنِ انت بين من يقول انَّ الدين والوطن مضرّان بالمجتمع الانساني وبين قول الفلسفي الاجتماعي القايل

فيا وطني ان فاتني بك سايغٌ　　من العيش فلينعم لساكنك البالُ

وقول بعض كتاب العصر

فلا طلعت عليَّ الشمس يوما　　اذا عن مجد قومي لا اذودُ

اموت وقد بلوت النفس دفعًا　　كما تحمي مواطنها الاسودُ

كذلك فلتكن للعُرب نفسٌ　　والاّ ما الحياة وما الوجودُ

وقول بعض العارفين في الدين

لعمركَ ما الاديان الاّ سعادةٌ　　وما الناس لولا الدين الاّ بهايم

وقول الآخر :　　واحقٌ ماصان الفتى　　ورعى امانته ودينه

إحتَكِكْ آراءك في نقد هاتين الضريبتين من ذينك الخطتين وانظر ايُّهما اصحّ جوهرا، وابقى اثرا، واعود بالنفع على النفس، واقربها الى السلامة وادناها من العافية ، واجمعها للأخذ باسباب الحزم والحايطة ، ولكن لاتتبوَّء منصة الحكم الاّ بعد ان تعزل شهوتك ،وتجرد للحكومة عقلك . ثم اختر لنفسك ما يحلو ان شئت . ولست هنا معك كباحثٍ اخلاقي يجمع لك الاسباب والعلل والادواء لهذا او ذاك . وانما كلمتي التي اريد نبذها اليك فيما ههنا انه لو تأملت مليًّا . ولو لم تكن رجلا مِليًّا ، لوجدت انّ رسوخ تلك السخايم في النفوس ، وضربها على العقول ، لايتولّد منه الاّ سقوط كل شرف وشهامة . ومجد وكرامة . ولا يحوِّرُ النفس الاّ على الانهماك في شهواتها الراهنة دون كل غاية وفي هـذا ومثله تعجيل قطعها ، وإعدام نوعها ، وانّ

هذا الهواء موبيء قد تنسَّم بل تسمم في الكون ولئن لم تحمَ له وتتغاير على معالجته اطباء الهيئة الاجتماعية اوشك ان يأتي عليها رويداً ولو بعد حين

النفوس اذا ضربت على ذاك الوتر . وسرت على خطة ماهنالك من الاثر لا تلبث ان تعدّ جميل الذكر وكرم الاخلاق وحسن المساعي للامة الفاظاً هي افرغ من كيس ابن المذلق او من فؤاد ام موسى

جُبِلَ الانسان على حب الذات والعناية بالنفس . وجعلها الغاية المقدسة لكل وجهه . نعم هي اول معبودٍ بالطبع اطاعه . واقدم آلهةٍ بالطواعية عبده . فما كانت لتهون عليه قدرا ' اويعصي لها في شهوةٍ امرا ' او يَفسخ لها في رغبة عزيمه . او يقذفَ بها في لهوات البلاء . ويقتحم بها موارد الهلكة . الاّ حيث لا يرتاب في انّ ذلك هو الاجدى لها . والاعود بالنفع عليها . يُظمِؤها ليُرويها . ويقتلها ليحييها . اماّ حيث لا حياةَ الاّ ما هي فيه . ولا سعادة الاّ ما تحسه من العاجلة . — فهل الاّ من الفشل الفاحش . والجهل المطبق . ان لا يُضحِّي كل ما نسمِّيه مكرمةً في سبيل شهواتها . واستيفاء حظوظها . وهل الآن يزهق روح كل ذي حسّ للبُقيا على حياتها . وكلٌّ يطلب ذلك لنفسه . ولا يقتنع بدافع الحرص الاّ باستعباد غيره . وهناك الهرج والمرج . وتقطُّعُ عرى الهيئة الاجتماعية . وفساد نظام العالم . وسفك الدماء البُراء كما تجد بعضه اليوم .

نعم لا ينِدّ عني . انَّ بعض النفوس الكريمةَ النَجر . الشريفة الجوهر . تنشأ من ذاتها وكأنها قد طُبعت بطابعٍ من كرم الاخلاق . وطيب الاعراق فهي تنزع الى المحاسن . وتفزع من المساوي . جنوحاً ذاتيا . وميلاً طبيعيا خضعت لديانة ام لا دانت بحياة ثانية ام لا — تعشق الجميل وفعل الخير لنفسه . وتحبُّ الاحسان والحَسن لذاته . وتجذّ روح الجمال من وجهة جماله .

من غير التماس مرابحة . ولا نظر الى معاوضة .

ولكن على انّ من السخف قياس النوع على الافراد النادرة . وجعل الحكم اللصيق بالخاص على العام .

أنّ موضوع البحث في الخُلق النفسي يحور على الطباع الساذجة . والنفوس العارية من كل صبغه . تلك النفوس الغريرة النابتة في تربة القابلية قبل التربية — هي النفوس التي نريد ان ندفع زمامها بيد العقل . لِتسير على تعاليمه ومُوحياته . فتندفع الى الاعمال الشريفة . وتجنح الى ما به النجاح بدافع الحرية والاختيار . والمعرفة والاستنارة . لا بدافع الطبع والغريزة . والضرائب التي لا كسب للانسان فيها ولا معالجة له بها . الأخلاقيُّ يبحث في المجتلبات لا في الجِبلّات . يبحث في الخُلق لا في الخَلق . يجهد في تربية الطلايع . لا في مرتبة الطبايع . انّ سلسلة هذا الكون . التي لا اعلم متى كان اولها . ومتى ينتهي آخرها . — ما اثبت لنا فيها العلم والتاريخ « ان صحّ » . سوى افرادٍ نادرة تكون على الحال التي وصفت من الشرفِ الذاتي والكمال الغريزي . وقد قضت النواميس المتنفذة في الاكوان . واستمر مريرها على ربط المسببات باسبابها . والوصول الى الغايات من مباديها . والتكلةُ على الصدفة ضلال . والطفرةُ الاّ بالاعجاز محال . وقصاراي من هذه السانحة انّ اقصى منازع الانسان هو تحصيل الشرف . واقصى غايات الشرف . هو نيل الحياة السعيدة التي ليس لها انتهاء . ولا تشوبها شِية شقاء . وانّ مبادي هذا الشرف واسبابه . هو ما يقدّمه الساعي لنفسه من المآثر التي تعود بنفعٍ ماّ على امته . وابناء ملّته فتخلّد فيما بينهم ذكره الجميل

انّ الاثر الجميل الذي سيخلّفه فيما بينهم . لامحالة سيعود عليه بما هو

اجمل واهنى . سيعود مُضاعَفًا عليه من كل فرد منهم . دايمًا بدوام الانتفاع به . واصلا اليــه في ايّ وادٍ درج . وفي سلَّم اي سماءٍ عرج . (والجزاء من جنس العمل) وما جزاءُ الأِحسان الاّ الأحسان

فكثرة الصلاة والصوم والتسبيح واضرابها من العبــادات النفسية وان كان لكلٍّ فضل ولكن ليست من الشرف في شيءٍ . فان لهـا كيل موزون . وقسط معلوم . ينقطع ولا يدوم . فاحتفظ على هذا وتدبَّره وقف به على حذوده ولا تتطرف فيه .

(٣) ما الذي يبعث الهمم . وينشط العزايم . وينشئ الرغبات الصادقة والاميال الصحيحة . الدافعة الى تحصيل ذلك الشرف الذي المعنا اليه ودللنا عليه

كلما بحثتُ ونقَّبت وادليت ما تــح الفكر في اعماق الأسبــاب والعلل . وصوّبت وصعدت النظر في معارج المبادي . لم اجده يردّ ويقف الاّ على تحكيم العقايد الحقة المشذّبة من كل تنطعٍ وخرافة — وتمكين الدين الصحيح من النفوس . ورسوخ الايمان بمبدأها ومعادها . وانّ لها صانعا حكيما . وان وراء هذا اليوم يوما عظيما . اما سعادةٌ لازمة . او شقوة دائمة .

اكبر سايقٍ للنفوس على ذلك الشرف هو ان تُساط النفوس والاذهان وتنصبغ بتلك الصبغة الثابتة حتى تتمكن منها . بل وتتَّحد بهــا اتِّحاد الارواح بالاجسام . والماء بالمدام .

وما جرَّ الويل على الاسلام . سوى انمحاء تلك الصبغــة من نفوس اهليه . وانطماسهــا من عقول ذويه . حتى انبترت العلايق فيما دونه . وتقطعتِ الأَواخي فيما بينهم وبينه .

فلو سألتني ما السبب الوحيد — في ضعف المسلمين لقلتُ الغاية هي ضعف الدين ولو سألتني ما سبب ضعف الدين في المسلمين لقلت زخارف الدنيا ونفوذ

الروح الغربية . التي دخلت فيهم . ففرّقت مابينهم . ومزّقتهم كلّ ممزق وتركتهم يخربون صياصي عزهم بايديهم . ولو قلتَ ما الذي اوجب دخول هذه الروح الخبيثه . في هذا الجسد الشريف . وما الذي ساق هذا الهواء المسمَّم . الى هذا الحصن الذي مرّ عليه ردح من الزمان وهو مطلسم . قلتُ عدم قيام المصلحين ، وسكوت الآمرين بالمعروف والناهين ، ولو قلتَ ماالذي اوجب سكوتهم ، واغضاءهم عن تمزيق دينهم بترقيع دنياهم ، فلا هذا ولا ذاك قلتُ حسبك (في فمي ماء وهل ينطق من في فيه ماء)

(سانحتي الرابعة) اني منذ عرفتُ ليلي ونهاري وميزّت بين خشونة راسي ونعومة اظفاري لم اصبُ ولم اعتلق الاّ بدارسة الكتب ، ومزاولة العلم والتعلُّم ، واللصوق باهل الفضل والفضايل ، والمثول بين يدي الاكابر والاماثل ، اقتباساً من فوائدهم ، وتطفلاً على موائدهم ، وكانت جامعة هواي ونزعة صبوتي ومُيولي ، واشدّ رغباتي الى خاصة فنين من الفنون وَلمي فيهما ، وولهي اليهما ، على تباعد المسافة مابينهما ، وتباين الغايات والمبادي منهما

اولهما فنُّ تراكيب البيان ، القمين بتهذيب المنطق وتشذيب اللسان ، مانح ملكة الانشاءات الادبية في الاساليب العربية ، نظماًونثراً ، خطابةً وكتابةً ، ثانيهما فن الحكمة النظرية ، والفلسفة الروحية ، الزعيمة بتوسعة الفكر في المعارف الألهية ، الدافعة الى كل خُلق ادبي ، وشرف نفسي وكمال ملكي ، ذاك اذا بُنِيت على اصولها الصحيحة ، ومباديها المتقنة ، واُخِذت من ينابيعها الغَدِقة ، ومناهلها المروّقة ، بيدَ انّ المحيط والوسط والحاضرة ما كانت تُخوّلني سوى التجوّل في العرض العريض مما بين ذينك الفنين من الشرعيات ومباديها ، فكانت هي سجيراي ، وبها جهدي وعناي ، وفيها انقد اُويقاتي ، وعليها اعدّ ساعاتي ، غير اني لا ابرح اختلس

من وقتي لموضع صبوتي من ذينك الفنين سهماً ، واجعل لهما من وجه عنايتي نصيباً ، وانتهز من سوانح الفرص لمزاولتهما شطرا ، وعلى الأَخص علوم المعارف التي اَذويتُ في تحصيلها وريق عمري واياميي ، ورِيّق دهري واعوامي ، وساقتْ لي العناية من الولوع بهما والتصابي ، ما حَيَّتُه بزهرة شبابي ، وقد تسنىّ لي الظفر بمدة من المهرة المتضلعين فيه الذين يعزّ وجودهم في مثل هذه الآونة ، احسنتْ يد الغيب صنيعها بهم عليّ حتى القتهم التجولاتُ نزلاء في حاضرتي ، وملأتْ من مُتمنّع منالهم ومُمتّع نوالهم قبضتي فكرعتُ من مناهل فضلهم ، ولازمتهم ملازمة ظلهم ، حتى استوفيتُ ماتيسر وماشئتُ وشاءت العناية ، ومذ وُجدتني بلطفه على مثل ضوء الشمس من يقينه ، قلت حسبي من معاناته فقد ارتويتُ من معينه فانّه وإِن اتسعتِ الخطة ، لكن العلم نقطة ، نسأله التوفيق للوقوف عليها والانتهاء اليها ، فانه لا يُصاب الاّ من صوبه ، ولا يستتبُ الاّ بسببه ،

وما صدّني ذلك عن امتلاك شيء من ملكة الانشاء ، ولا عاقني عن الانتظام في سلك من يقتدر على البيان والافصاح عمّا شاء ،

(٥) تدبرتُ في ماثور الحكماء الراسخين ، والعرفاء الشامخين ، وسرتُ في جملة مما حقّقوا وبيّنوا ، وسبرت جماً مماّ صنفوا ودونوا ، فعرفت عظيم جدّهم وعنائهم ، فللّه درُّهم ودُرّ جدودهم وآبائهم ، فانّهم اوكأنهم ماتركوا مقالاً لقائل ، ولاصولة تحقيقٍ لصائل ، ولا موضعاً لمجادلة بحقٍ فضلاً عن باطل ، وقد مثّلت لنا مرآةُ الزمان ، من حكماء الفرس واليونان ، — آلهةَ العلم ، وهيا كل الفضل ، وملائك الحكمة والفلسفة ،

سوى انّي وجدتُ اكثرَ ماوقفتُ عليه من مسفوراتهم بين مصبوبةٍ في قالب القوّة والاحكام ، موضوعة على طريقة النقض والابرام ، بحيث

لا ينتفع بها الاّ الاوحديُّ من الناس ، بعد التعب والكدّ وطول المراس ولا يصلح بل لا يصحُّ ذلك للاكثر خوفَ هجوم الشُبَهِ ، ونجوم زيغ الاضاليل ، نجومًا ربّما يتعذَّر دحره ، ويستشرِي شرُّه ،

هي بين مثل هذا ، وبين مختصراتٍ منزورة الفوايد ، لم يذكروا فيها سوى متون العقايد ، من غير ذكرٍ لادلّتها القاطعة ، ولا اشارة لبراهينها الساطعة ، وانت تعلم انّ القوم على علاّتهم من بحرهم نغترف وبكل الفضل لهم نعترف ، ولهم سابقة التأسيس وفضيلة التقدُّم ، ومنهم التعليم ووظيفتنا منهم التَعلُّم ،

ولكن كلا الطريقتين لا تفيان بتمام الغرض ، ولا تقعان موقع العلاج الحاسم من المرض ، اِذ توسيع دايرة البحث وان كانت في اكثر العلوم ضربةً لازمة ، ولكثيرٍ من الشكوك والشبهات حاسمة ، والحقيقةُ بنتُ البحث والبحث وِلادة الشك ، ولكنها طريقة لا تعُّم نفعا ، كما ان الثانية من الايجاز في مثل هذه العلوم لا تفيد ظنًا ولا قطعا ، ولا يمكن لكل الانام ، ان يكونوا من اهل الحكمة والكلام ، ولا يلزم عليه ان تبقى الناس مقلدة في دياناتها الا بانها وامهاتها ، حظُّ احدهم من مبادي ديانته ، واصول عقايده مجملُ كلماتٍ فارغة ، وجمل عامية ولعلها غير سايغة ، وخيالات موهومة ومعانٍ غير محصلةٍ ولا مفهومة ، وهناك واسطةٌ هي بفضل الله اجمع ، وفاصلةٌ هي بسعة رحمته اوسع وانفع ،

حبَّذا لو انّ حزبًا من اولئك الباحثين ، الذين نقدوا اعمارهم الثمينة في بحث دفاين الفلسفة ، ومساجلات التنازع والمجادلة ، وضعوا على عاتقهم واخذوا في عهدتهم ، التكفُّل بامرٍ له من الاهمية حظها الوفير ، وقسطها الوافي حبَّذا لو انتدب افرادٌ من اطباء المعارف وزعماء الفلسفة لحفظ مبادي

الـدين في نفوس الأمّة والتفـاني في سبيل الدعوة ، من اقرب طُرقهـا ، وأسهل سبلها ، حبّذا لو عمدوا الى ما سجّلته كبار ُ الحكماء من الادلّة والبراهين ، على اصول الشريعة الاسلامية ، فيكسونها حلةً من البيـان تقرّبها الى الاذهان ، وتخرج بها عن التعقيدات الصناعية ، والاصطلاحات الفلسفية ، وتنخزل بها عن المجادلات الكلامية ، وتترسّل في الاقناع بها ترسلاً يكشف عنها القناع ، وتلذّ به الاسماع ، وتهش له الطباع ، باسلوب بيـانٍ يخرق الحجب الكثيفة ، ويهزّ العواطف الشريفة ، تتكهرب بسيّالِ سلاستة اسلاكُ الاذهان ، وتتقباه القلوب قبل الآذان ، كي تنفسخ هناك شبهاتُ المشككين ، وترتسخ في النفوس اُسسُ العقايد واصول الدين

وقفتُ في سطة مركزي ، وارسلتُ اشعـة النظر الى من في محيـط دائرتي ، فوجدت الكثير من هذه الاشباح المـاثلة ، والصور المتجولة ، لا اخصّ منتحلة دين الاسلام ، بل عامة الانام ، قد فرغ وِطابُها ، ونغل اديمها ، وحلم اِهابُها ، وتقاصت اوابد نفوسها ، وشوارد قلوبها ، من عقلة الدين ، وروابط اليقين ورسوخ العقايد ، والخضوع الى قادة الشرايع ، قد مرق الكثير الى منازع الطبيعه ، ومخادع الملاحدة ، حتى تغالوا وتطرّفوا فيها بما لا تتغالى وتتناصر به اهل المذاهب الحقة لاديانها ، سيما الاحداث والاغرار ، والنشأ الصغار ، واقتنع آخرون بظاهر النحلة ، ومجرد الاعتزاء والنسبة ، وهم من ضعف العلاقة بما يعتزون اليه على حالٍ يميـل بهم عنه لأول عارض شبهه ، وينقلبون عليه لادنى نابض تشكيك ،

حاشا من استحكمت بالمعارف عراهم ، وبالعزيز عليّ ان اقول (وقليلٌ ماهم)

وجدتُ من اقوى الاسباب والعوامل ، في سريان الداء ، وانتشار عدوى هذا الهواء الأصفر على عقايد المسلمين ، ومروقهم من مشرق هذا

الدين، الى منازع الغربيين، عدم قيام الزعماء في الدعوة على تلك الطريقة الوثيقة، اعني طريقة الاقناع والايضاح، والتسهيل والافصاح، اِفصاحًا يغرس في النفوس، اصول العقايد، ويكنز في اعماق القلوب بذور الاديان، حتى ينمو عليها الصغير، ويهرم على طقسها الكبير، وتلتبكُ في كل احساس منه وشعور، وتمتلك كل عاطفةٍ له ووجدان،

اِمتُهنَ الاسلام من عهد غير قريب بدائين عضالين كادا ان يقضيا عليه (وليفعلان) ان لم تنهض له رجالُه وتطبّ له حماته، وتبلسمه ضوامده، إمتُهن باهمال زعمائه سبيل الدعوة والارشاد، وصيحة النصيحة في العباد، وإشراب النفوس البشرية، ما في هذا الدين من صوالح السعادتين، وتربية النشأتين، وتكفُّل الهنا والدِعة في الدارين، طالما استمسكت بعراه، وسارت على اضواء مناره، والثاني ما قد زاد المرض علة، والصدى غلة، انّ رجال هذا الدين لما اهملوا الدعوة، وتعامت عليهم سُبل التعليم، وتركوا نفوس المسلمين على سذاجتها، والقوا حبلها على غاربها، ولم يبق من غرايز دينهم سوى ماتلفظ به السنتهم، وما تسمعه من الآباء والامهات اذآنهم أمّا القلوب فصفرٌ عارية، وقفر خالية، لا تسمع فيها للديانة همسا، ولا تجد فيها من الحقيقة لو فتّشتَ عليها عينا ولا اثرا،

اصبحت كقلاع اخلتها حاميتها ونام عنها حراسها هنالك استيقظ العدوُّ فرأى فرصة امكنت وامرًا حان وقته، وايبنعت ثماره. وحلّ ميعادُ حصاده فهجم بجيوش شبهاته وجنودِ تشكيكاته فبثّ المنذرين والمبشرين والدعاة والمرسلين على تلك القلاع الخلاء من كل منعة. الفراغ من كل حصانه. قلَب القلوب عن وجهتها، وابردَ الى العقول فحوّلها عن استقامة فِطرها واجهز على الديانات وكلية الاصغاء الى الطقوس والشرايع فازهق روح حياتها

واخمد أضواءَ مصابيحها فاصبحت الامم تتخبط خبط عشواء في متاهة الزندقه والالحاد، ومنازع انكار المبدء والمعاد. الماحي لصورة كل شرف، وحقيقة كل ادب، وكيان كل كمال، ومن جرّاء ذلك التنازع والتجاذب المتجاوزين حدود الادب خلعت الناس ربقة كلّ ديانة وفزعت الى التشبث بما تمدّه لهم من أسلاك الهباء اوهامُ الطبيعة فلا اسلامية ولا نصرانية ولا جنانية ولا جهنميه

تألبتْ زعانفةٌ من الامة المسيحية وتغالتْ وتطرّفت في الطعن على شرف الاسلام حتى تجاوزت الحدّ وخرجتْ عن الآداب وخدشت العواطف ومسّت شرف صاحب الرسالة بما لا يليق في حق رعاع الناس وسفلة البشر نعم خرجت عن آداب المناظره الى التسابب والمعايره على اننا جميعًا لو تدرّبنا في المعرفة وتدبّرنا نواميس اديانتا معًا لما وجدناها تخوّلنا شيئًا من ذلك التضارب والتهارش، والتسابب والتناهش، انَّ الدين الانجيلي الذي يقول (من ضربك على خدك الايمن فحوّل له الايسر ومن سخرّك فرسخا فسر معه فرسخين) والآيات الذهبية من القرآن المحمدي الذي يقول (قل يا أهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم ان لا نعبد الا الله ولا نشرك به شيئًا ولا يتخذ بعضنا بعضا اربابا من دون الله)

القرآن المحمدي الذي يؤدب امته بقوله (ولا تجادلوا اهل الكتاب الاّ بالتي هي احسن وقولوا آمنا بما أُنزل الينا وما أُنزل اليكم وآلهنا والهكم واحدٌ فهل انتم مسلمون)

الى كثير من امثالها من الحكم الادبية والآيات الذهبية

ليت شعري أهل هذه الاديان المقدّسةُ تخوّلنا شيئا مما نحن عليه من تلك الصفة ام هل تخولنا في المسيح ما عليه اليوم اغيارنا من الهماجة في البغي والعدوان والتحطط على قداسة صاحب الشريعة الاسلامية وهل يحملنا على

العقوق ويخرج بنا عن الحدود ويغرينا ، ويغيرنا ويحمينا على المقابلة بالمثل الآ تلك البذاءات الفاحشة (والبادي اظلم)

هذا وهم يجدون انّ نواميس الاسلام تتلقى صاحب شريعتهم بكل ترحيب واحترام، وتنعته بكل طهارة وقداسة. وفى لهم الاسلام وفاء السموءل وهم اليوم يجازونه جزاء سنمار

على اننا لو اردنا ان نقول لوجدنا للقول متّسعا. وللطعن مجالا. وتلك مزاعم اليهود في البتول العذراء وابنها السيد الحصور لم تنمحِ من صفحات التاريخ ولم تنطمس من الواح النفوس

ولكننا معاذ الله ان ندمغ الباطل بمثله . او نقتل الجاهل بسلاحٍ من جهله. وانّ في الحق لمندوحة وفي السداد لسعة

يا هل ترى علم اولئك الرعاع وسقط المتاع المتالبون على الاسلام ماذا كانت مغبة تلك المصاف ومساجلات ذلك الطعن بيننا

هل استدخلوا شيئا من الامم الاسلامية في الديانة المسيحية كلاّ وربها وانّما انجات قساطل تلك المجالدات الجدلية عن خلع العامة والبسطاء نير كلا الديانتين عن اعناقهم فلا نصرانية راسخة على الحقيقة — ولا اسلامية زالتا من اعماق القلوب وان بقيت النحلة اليهما على اطراف الالسنة ما العاقبة الاّ اننا فتحنا للدارونية والطبيعية بابا واسعا على كلية الاديان والمذاهب فاصبحت دياناتنا المقدسة وطقوسنا الشريفة الاعيب (الشبلي شميل) (وسلامة موسى) وامثالهما يمزقونها كل ممزق ويرمون بها في الهزء والمسخرة الى كل فج عميق انظر مواضيع من (فلسفة النشو والارتقاء) (ورسالة السبرمان) ثم أملك هنالك قلبك ان لا ينخلع. ودمعك ان لا يندفع. ان كنت مسلما او مسيحيا حقا لا بل ان كنتَ متدينا بايّ دين مستسلما لايّ عقيدة

أنظرُ بالمجهر الكبير الى زوبعةٍ في الكون وعاصفةٍ في الوجود تريد ان تاتي على كافة الاديان ، وكلية المذاهب ، وبعبارة ثانية على كل الآداب والكمالات ، ونواميس الشرف ، تريد أَن تردّ الانسان بعد كماله ورُقيه الى ابعد عهده ، واوّل نُشوه ، تريد ان تردّه الى عهده الاول ، يوم كان كابناء جنسه من بهيم الحيوان ، يركب بعضه بعضا ، ويفترس كلٌّ كلا يأكل ما شاء ، وينكح ما شاء ، لاقوانين محدودة ولا آداب مسنونة ، الاّ ماتشاؤه الطبيعة وتوجبه الهمجية ، وسوف تعجِّل نفوذها ان لم ينهض لدفع هذا الاعتداء حماةٌ اشدآء — الفوءاد مُشحون ، والحديثُ شجون ، والقصارى اني غِبّ ماوقفتُ على تشدّد اولئك الزعانفة من الاغيار في التحامل على شريعة الاسلام بادخال مفتريات النبز ، ومختلقات الوخز ، والتلاعب بمتشابهات الكتاب والسنة ، لاضلال العامة وتحيير الخاصة ، وتشكيك السذّج ، طفقتُ ارتأي أَن اضع مشروعـا لدفع تلك الشُبُه ، ودحض تلك الحجج ورحضِ تلك المدانس عن شريعة الاسلام المُطهرة من كل دناسة ، الحرية بكل قداسة ، ثم استدركتُ في الرأي وناجيت الفكر فرأيت ان بحرَ ظلمات الأفك والباطل ، لا يكاد ينتهي الى ساحل وانّه

يطول اذًا همِّي اذا كان كلما　　سمعت نباحًا من كلابٍ خسأتها

اعني به نبـاح جهلة جيراننـا المسيحيين حاشا العقـلاء والاصحـاء واهل السلامة منهم فانّ لهم منّا كل السلم والموادعة علماً بانهم يستـاءُون معي من ذلك النبـاح الـذي يهرف به طغامهم على اشعـة انوار محمـد (نَبح الكلاب على نجوم الاسعد) النبح الذي يختلقونه افكاً ويفترونه زورا ويفتجرونه بهتـانا (من كان يخلق ما يقول فحيلتي فيه قليلة) جعلتْ تلفُّ للاسلام الحابل على النابل وتمزج الحق بالباطل وتضرب للمسلمين اخماسًا باسداس

استنزلتُ مُوحياتِ قلم العناية على لوح الضمير فيما عزمتُ عليه فاوعزتْ اليَّ ان قلع الشجرة خيرٌ من قتل العصافير ، وان في تحقيق الحق ابطالٌ للباطل وبتوطيد الأُسس تستقيم المباني ويندفع عنها خَطر الانهدام بمكافحة العواصف

فمن خطور كلّ هاتيك السوانح على هواجسي اِندفعتُ الى نشر هذه الدعوةِ التي اودعتُها زبدةَ ما مخضتُه في عمري من اَلبان العلوم ورايب المعارف

ومعاذَ الله أن احسبَ انّي من اهل الدعوة والارشاد ، او اَرى صلاحيتي لهذه المنزلة العليا ، والخطة المتقاعسة ، ولكنّي اردتُ انلا اخلّ بوظيفتي ، ولا اخِل بما عندي ، على ملَّتي وابناء جلدتي ، بل كلّ راغبٍ في الحق ، طالبٍ للحقيقة ، احببتُ خدمة جميع المللِ والنحلِ ، والشعوب والامم ، فِرقِ الاسلام وغيره ، إلفًا غريزيا ، وحبًّا جنسيا ، وحنانا طبيعيا واِخلاص ودٍّ لكلّ من تضمُّني واياّه روابط الجنسية ، واَواخي البشرية ،

اَحببتُ ان اقدّمَ اليهم ، وجيزةً في الاصول الاسلامية ، ونواميسه الاولية ، التي تبتني عليها كل شريعةٍ وديانة ، (رحم الله امرءً عرف قدره ولم يتعدّ طوره ، وعلم من اين وفي اين والى اين) عرف مبدئه ووسطه ومعاده ، مفصّلا هذه الاصول ، في عدة فصول ، مُلمعًا في غضونها الى انّ الدين هو الاسلام ، وانّ الاسلام هو الدين ، هو الدين الاصيل ، الذي تطابق نواميسه العقول ، وتقبله الفطرة ، ويتكفَّل بكل شرف وسعادة ، ببراهين بينة متقنة ، مكسوةٍ بالعبارات الرشيقة ، والفِقَر الانيقة ، التي تقرّب البعيد ، وتسهِّل الشديد ، جامعةً بين الرصانة والرقة ، والوضوح والقوة ، وفصاحة الكلام ، والافصاح عن المرام ، مُتوخيًا جهدي تجنُّب ما يوجب التعقيدَ من الاصطلاحات الفلسفية ، والمجادلات الكلامية ،

بمألوف من البيان مأنوسه ، وواضح من القول يعيد معقول الفكر كمحسوسه
كلّ ذلك تسهيلا لمطالبها ، وطلبًا لانتفاع العالم والعاميّ بها ، حسب جهدي
وطاقتي ومافي مُزجات بضاعتي ،
فهاهي ضاحيةٌ لك ، بارزةٌ اليك ، بحيثُ لو راجعها طالب الحق بانصافه ،
وَعرضها على صريح عقله ، بعد تجريده عن غواشي العصبية ، لِما الفه من
ايام صِباه ، ونشأ عليه من مستحكم عادياته ومعتقداته ، لوجدَها حَرّيةً
بالقبول ، مطابقة لضرورة العقول ،
والى الله جلّ شأنه ارغبُ في ان يجعلها خالصةً لوجهه الكريم وذريعة
للقرب منه في دار النعيم ، وكفارةً تضعُ ما كان في ميزان سيئاتي او سيكون ،
وترفع ديوان حسناتي الى مقامٍ يشهده المقربون ، نافعة لي ولغيري يوم
لا ينفع مال ولا بنون ،
وبعدذا كلِّه ، فكلُّ قسمي واليّتي ، ورجائي وأُمنيَّتي ، من جميع
اهل الاديان والملل ، وارباب الآراء والنحل ، اخصُّ الملة المسيحية ، واحبار
النصرانية ، الذين لهم حُرّية الضماير ، ونفوذ الخواطر
سوءالي بالتماس ، ورجائي من الجميع ولا ياس ، أَن ينظروا في دعوتي
هذه بعين الموادعة والانصاف ، لا بعين المنازعة والاعتساف ، ويلحظوها
لحاظ الاشفاق والقبول ، لا لحاظ الساخط الملول ، ويحملوها على مهاد
التأُمل والأَنات ، ولا يحلُّوها وِهاد التحمُّل والترات
رغبتي اليهم ان لا يملُّوها ، قبل ان يتأَمّلوها ، ولا يتمحلوها
قبل اَن يتحمَّلوها ، ولا يستدبروها قبل ان يتدبروها ، ولا يحطُّوها قدرا
قبل ان يحيطوا بها خُبرا ،
فانّي وعظمةِ من وحّدتُهُ فيها ، وقصدتُ الدعوة اليه ، والدلالةَ عليه

بباديها وخافيها ، ماقصدت بها الشقاق والمجادلة ، ولا إظهار الغلبة والمماحلة ولا ركنت فيها معاذ الله الى العصبية . ولا اخذتني بها الحمية . حمية الجاهلية بل جردت نفسي . باد؛ بدء عن كل عقيده . واقمتها اول الامر وآخره مقام المحاسبة والمجاهدة الشديدة . واعملت جميع قواي وحدسي . وعقلي وحسي . وشايعت مادلني عليه البرهان . واتبعت ماقادني اليه العقل والميزان

الله يعلم اني ماكتبتها للرد والايراد . ولا لالقاح الفتنة والفساد . جمعتها للجمع لا للتفريق . وألفتها لتألف الفرق لا لاختلاف الفريق .

فمن قبل فبفضل الله وجميل جزائه عليه ومن رد فجوابه على الله لا علي وحسابه اليه . ولكن ثقتي بالله أنهم ان تخلوا في انفسهم وتجردوا . وصوبوا افكارهم وصعدوا . واعتبروا وانصفوا . وطلبوا الحق وتعرفوا . لسوف يجمعنا الله واياهم على الطريقة المثلى . انه حقيق بالفضل . جدير بالاجابة . وبه المستعان . ومااردت الا الاصلاح والنصيحة ما استطعت (وما توفيقي الا بالله عليه توكلت واليه أنيب)



﴿ له دعوة الحق ﴾

بسم الله الرّحمن الرّحيم

قُلْ هذهِ سَبيلي أَدعُو الى الله على بَصِيرة
أنا وَمَنْ اتَّبعَني وَسُبْحَانَ الله
وَمَا انا مِنَ المشركِين
(وَحي مُعجز)

اللهم اليك دعوتي توحيدا، وعليك مدحتي تمجيدا، ولك رغبتي وثنائي وانت بغيتي ورجائي، وعلى نبيك واطايب آله وكرام صحبه صلواتي، وشرايف تسليماتي وتحياتي، داعياً اليك بالدعوة الاسلامية، مائلا فيك الى الملة الحنيفية بالبراهين الحقة لا بالمجادلات الخصامية،

(وبعد) فان الغرض من عقد دعوتي هذه يتمّ وينتظم بسلك اجزاء وفصول

ومقدمةٍ قبل الشروع في المقاصد

وهي في وجوب النظر ولزوم المعرفة

وهو باب جرت عادة القديم عند البعض على الافتتاح به وتجاذب اطراف الكلام فيه ونحن لا يهمّنا ذلك ولا ننزع الى سبر مخاضته وانّما لي فيما هنا كلمةٌ عسى ان يقتنع بها الناظر عن كل تلك الاساطير

انّ من النواميس الاوّلية والضرايب الطبيعية التي لم تعتورها عوامل الدثور والظهور ولم تغيّرها فواعل التبدّل والتحوّل انّ اوّل خطوة فكرية يتخطّاها هذا الكاين الحيّ الحساس الناطق من مجهلة الحيوانية الى معالم الانسانية بعد ماطوى شطراً من صحيفة

ايّامه في بلهنية العيش وسذاجة الخيـال وفراغ البال الاّ من تقاضي مقوّمات مادي حياته والدفاع عما يحسُّ به من مُوالات واهن وجوده اوّل قدمٍ يضعها في مفازة البحث والنظر بعد تلك النعسة الطبيعية واسبقُ روحٍ دبَّ فيه بعد هاتيك الميتة الجاهلية هو ما بثَّته فيه لحظةُ العناية من تطلُّب الاسباب والعلل لساير ما يقع عليه حسُّه من حوادث الطبيعة وكواين المادة ولا سيما الكواين الفجائية التي لم يرضخ لهـا ولم يعتد عليها ولم يتكرر له شهودها يستغرب ويعجب من طلوع الكوكب المذنب بما لا يستغربه لبزوغ الشمس وطلوع القمر

يندهش للخسوف والكسوف ولا يندهش لمغيب الشمس كل ليلة ومحاق القمر كل شهر والغايةُ في الجميع واحده وان اختلفت الاسباب وتعددّت المبادي

بيدَ انه يندفع بدافع الغريزة الى التقاضي والطلب لمعرفة سبب كل حادث وكاين ايًّاما كان غير ان هذه الحركة الفكرية قد تكون حالاً اعني مرور خطور « لمعةَ البرق» اسرع ما يلمع ثم يزول ويعود المرء على عدوائه في سنن تلك النعسة الاولى والتغافل عن الامعان في لجاج هذه الاودية السحيقة فيغدو وقد صار كهلا كما هو وقد كان طفلا سوى ما يعانيه من مزاولة الماديات ومقومات اود الحياة فيستخدم ذلك الروح المجرّد العاقل لهذا الجسد الكثيف الباطل الذي سوف لايحصل منه على طايل

نعم وقد تستمرُّ تلك الحركة وتتكانف وتلزم حتى تصير ملكه فتترامى من سبب الى سبب ومن طلب الى طلب ولا يجداريحية ولا راحة من هذه المتاعب الفكرية والتجوّلات النظرية ما دام في اسر هذا الهيكل وفي سجن هذا البناء الذي سينهدم عليه فيتركه ويفرُّ منه طالباً عسى ان يجد الحقيقة وراءه (ولا ادري ايجدها ام لا)

مهما جهلتُ ذلك او علمتهُ فانّي لا اشكُّ ان اهل السلامة والاستقامة اعني بها سلامة القرايح والفِطر واستقامة الالباب وصحة النظر لاتزال افكارهم المثقفة تترامى في معارج النظر والمعرفة تتصاعدُ في سلّم المراقي الى حيث شاءت لها القابليات والاسباب والمعدّات كلُّ ذلك بدافع طبيعي وسايق غريزي ثم لامحيص له في النهاية من الوقوف على غاية يطوي عليها سلسلة ساير الممكنات ويتخذّها غاية الاسباب والمسببات يجعلها مبدءً لكل شيء ولا مبدء لها من شيء — والناس في ذلك على ثلاثة اصناف لا رابع لها ابدا صنفٌ يقول لا ادري ولا يهمُّني ولا يعنيني طلب هـذه المواضيع المظلمة والمغارات الموحشة وما عناي وهمي الا في توسعة العيش وترفيه مـآزق هذه الحياة

ومعالجة معامع هذا الدهر ولا اعرف ولا اطلب شيئاً وراء ذلك وهذا الصنف قد استراح الى الجهل وسكن الى ظله واخمد مصباح عقله وتدرَّع بلا ادري عن كل واردة ترد عليه فهو والبهيم سواء (إنَّ شرَّ الدوابِّ عند الله الصمُّ البكمُ الذين لا يعقلون)

وصنفٌ سمت همته وكبرت نفسه عن التلوث بهذه الرذيلة — رذيلة الجهل التي هي امُّ الرذايل وسُم الفضايل فبحث وسار ونقَّب في الاثير وتطلَّب الآثار وركب متن افكاره السيَّارة فجالت فيه حتى وقفت به على امر محسوس متحيز متجرد عن مبدأ كل شعور وادراك فرأى انه هو المبدء الاول لساير المبادي والغاية الازلية التي ليس بعدها غاية واختلفت الاسماء والعبارات عن هذا الشيء بين اهل هذا الصنف فبعض يسميها بالطبيعة وبعض بالمادة الاولى وآخرون بالاثير وقوم بهيولى الكل وطايفة تعبر عنها بالدهر او الجوهر او الزمان او القوة والفعل الى غير ذلك من الفاظٍ مختلفة المباني متقاربة المعاني اتخذوها لمواليد الاكوان كلها ابا واُمّاء وجعلوها خرقاء حمقاء فاوسعوها لعناً وذمّاء وبالحريّ لها ذلك على ما انتجت من هذا النتاج التعيس

سار هذا الصنف مع الثالث مترافقين كتفاً لكتف وجنباً الى جنب يتطلَّبون الضالة المنشودة والحقيقة الضايعة وماهي منهم ببعيدة اتفقوا في مبادي السير والحركة ووحدة الغاية والمقصد وطووا بسير واحد جمَّ مراحل وجملة منازل حتى اذا بلغوا ذلك المجهل ووقفوا على دارة امّ الطبايع والاجسام تنابذوا فيه وتشاغبوا وتشظَّوا وتوزَّعوا فقال بعض هذه هي الغاية التي نتطلبها والضالة التي ننشدها وقال آخرون بل هذه احدى منازل السير ومراحل الطريق والغايةُ من وراءها وكيف تكون هي ضالتنا وليس عليها اثر من اثارها ولا سِمةٌ من سماتها وبعد طول الشغب والصخب افترقوا غير وادعين والخلافُ جوهريٌّ مابينهم فسار قوم الى حيث تيسر لهم السير بعدان عرفوا انَّ تلك التي تسمَّي بالمادة او الطبيعة انما هي نَشأة الارادة واحدى ذابتات ارضها المقدسة امّا الاخرون فاخلدوا الى ارض الطبيعة وهاموا بالبحث فيها وقصروا النظر عليها وليس الغرض هنا الخوض في ذلك وفصل الخصومة فيما بينهم فانَّ لهذا المقام ما بعده وانّما الاصيل بالقصد فيما هنا انَّ الطبايع البشرية والغرايز الاولية مجتبلة ومفطورة حتى كانّها مقهورة على الطلب والبحث في العلل والاسباب والمبادي والغايات لكل شيء حتي تجد وتعرف او تكلّ وتقف وهذه الغريزة من اكبر النواميس المتممة بل المقوّمة لنظام الكون والعمران كما لا يخفى على جهابذة

الباحثين فمعزى القوم من حكمهم بوجوب النظر ولزوم المعرفة ان كان اشارة الى هذا الدافع الطبيعي والسايق الغريزي في النفوس فهو مما لاريب فيه وان كان مرادهم غير ذلك تمهلنا ريثما ننظر فيه

نعم ان القوم سلكوا اليه من طريق وجوب شكر المنعم ونحن يتسنى لنا تقرير دليلهم هذا على وجه يليق بالخاصة ولا يعسر تفهمه على العامة

وتقريبه على توضيح وتنقيح ان كل مدرك شاعر — ولا اخص الانسان الا لكونه محل البحث واليه النظر — اذا التفت الى نفسه يرى عليه من النعم الظاهرة والباطنة — ما لا يحصى ثم بادني التفات يعلم ان لها موجدا وسببا وليس هو نفسه ولا من يشاكله من الناس ضرورة — ثم لكون النفس مجبولة على تعرف ما تجهل لانها قد كانت في اصل فطرتها واول مباديها من الجواهر العلامة — لا محالة تبقى افكاره جائلة في طلب معرفة ذلك المنعم — ثم من تطرق الاحتمالات وَجولان الافكار — ينقدح في ذهنه ولو تجويزا — ان من المحتمل الممكن ان يكون مع بقائه على جهله بمن انعم عليه تلك النعم — يسلبها عنه وذلك اعظم ضرر عليه بل لا ضرر اعظم منه — اِذ احدى تلك النعم وجوده ولا شيء اضر على الموجود من عدم نفسه وذهاب ذاته

وبعبارة صناعية — ان من المحتمل ان يكون بقاء تلك النعم بعد الالتفات اليها منوطاً بشكره عليها وشكره ضرورياً منوطٌ وموقوف على معرفته اذ الشكرُ هو الثناء عليه بما يليق به وينبغي له فتجب المعرفة دفعاً لذلك الضرر المحتمل اما مقدمة للشكر او بنفسها — ويحصل من هذا البيان برهان صناعي وهو ان المعرفة مقدمة للشكر الواجب دفعا للضرر — وكلُّ واجب فمقدمته واجبة عقلاً فالمعرفةُ اذاً واجبة عقلا ويصح جعل الوسط نفس دفع الضرر لتكون المعرفة واجبة بالذات لا بالمقدمة

والمراد بالشكر هنا كما عرفت الثناء الجميل او فعل المحبوب او الاعمُّ منهما لا خصوص الطاعة وامتثال الامر ليتطرق المنع من وجوبه بهذا المعنى الا بعد ثبوت وجوب الطاعة ومعرفة المطاع وما يُطاع به فيلزم ما يسمّونه بالدور (١)

اذ هو بالمعنى المتقدم لا يتوقف الا على معرفة المنعم ليمكن الثناء عليه بما هو اهله وما يُسوّغه للمرء عقله او بموافقة ما فيه رضاه وما هو محبوبة ذاتاً لا امراً وتكليفا

---

(١) فان الطاعة لا تجب الا بعد المعرفة فلو كانت المعرفة لا تجب الا من جهة وجوب الطاعة لدار

فتدبره جيدا هذا تحرير دليلهم على اتقن وابين وجه

ونحن نطويه على غره وبُلُلاته ولا نعقّبه من القول الاّ من وجهة واحدة نجدها عميمة الجدوى وهي ان الذي يساعده الاعتبار وتشهد له صحاح الاخبار انّ المعرفة لا تجب على الخلق بل على الله جل شانه ان يعرّف نفسه لخلقه ويدلّهم على ثبوت ذاته حتى ان شيخ المحدثين واجل رواة اهل البيت المعروف بثقة الاسلام (١) عقد في كتابه الشهير (بالكافي) بابا لذلك فقال (باب البيان ولزوم التعريف والحجة) وسرد فيه عدة اخبار صريحة فيما ذكرناه منها رواية ابن ابي عمير عن محمد بن حكيم قال قلت لابي عبدالله (يعني صادق اهل البيت لذكرهم الشرف) المعرفةُ من صُنع من هي قال من صنع الله واصرح منها رواية بريد بن معاوية عنه عليه السلام انه قال ليس لله على خلقه ان يعرفوا وللخلق على الله أنْ يُعرّفهم ولله على الخلق اذا عرفهم ان يقبلوا — الى كثير من امثالها — وبينها وبين ما تقدم من الدليـل العقلي تدافع وتناف ظاهر اذ مقتضاه وجوب السعي والطلب في تحصيلها ومقتضى الاخبار خلافه ويمكن الجمع والتوفيق بينهما على وجهٍ يصطلحان ويرتفع تنافيهما — ذاك بما عُرف من ان العقل اوّل رسولٍ من الله الى خلقه واعظم حجة على بريته واكبر شاهد على عباده واعدل خليفة في خليقته وهو الحكم العدل بين الخالق والمخلوق والفيصل الحق بين العابد والمعبود وهو الحجة القاطعة بين العبد والمولى والمراد بالعقل هنا مرتبة قوة للنفس بها تستعدُّ لِلانتقالِ من المُشاهد الى الغايب والالتفاتِ من المحسوس الى

(١) هو الشيخ الجليل ثقة الاسلام محمد بن يعقوب الكليني المتوفي سنة ٣٢٩ سنة تناثر النجوم لكثرة من مات فيها من العلماء وقبره في الجانب الشرقي من بغداد في الجامع الواقع قبالة الجسر من شط دجلة وله عدة تصانيف إشهرها كتاب الكافي الذي نقد على تصنيفه من عمره عشرين سنة جمع فيه الصحيح من احاديث النبي واهل بيته عليهم السلام وهو كتاب فخم ضخم يشتمل على عدة كتب في عدة مجلدات تتضمن قاطبة علوم الشريعة من اصول الدين وعلم الاخلاق واداب العشرة وكافة ابواب الفقه مبوبا احسن تبويب مرتبا على ابدع ترتيب وفي اخره كتاب الروضة يشتمل على متفرق حكم واداب وقصص وفلكيات وغير ذلك وبالجملة فمن اراد ان يعرف شرف هذا الكتاب وعظمة قدره وعناء مؤلفه به من اراد ان يعرف غزارة علوم الاسلام وعظيم ما جاء به النبي واهلوه وخلفائه سلام الله عليهم فلينظر فيه فان الرجوع اليه احسن مطري به ومثنٍ عليه

الغايب والالتفات من المحسوس الى المعقول استعداداً فعليًا او قريباً منه (١) وبهذه القوة يصير الانسان محلاً للتكاليف ويمتاز عن الحيوانات ويستَعدُ لتحصيل الملكات — ونوعُ البشر بجميع افراده — يشتركُ في حصول هذه القوّة في الوقت المخصوص الذي قضَتْ به العنايةُ له وكشفت عنه الشريعةُ على الاغلب بعلايم البلوغ ووضعَتْ في عنقه نيرَ مشروعاتها ونواميسها وهو الذي عرّفه بعضُ العارفين (٢) انّه الغريزة التي بها يمتاز الانسان عن البهايم ويستعدُّ لقبول العلوم النظرية وتدبير الصناعات الفكرية ويستوي فيه الأحمقُ والذكي ويُوجَدُ في النايم والمُغمى عليه والغافل — وكما انّ الحياة غريزة في الحيوان بها يفعل ويَتهيَّأ جسمه للحركات الاختيارية والادراكات الحسيّة فكذلك هذا العقل غريزةٌ يتهيَّأ بها الانسان لاكتساب العلوم النظرية وكما انّ المرآة تمتاز عن سائر الاجسام بصفة مخصوصة كالصقالة بها تحصل حكاية الصور فيها والالوان وكذلك العين تفارق ساير الاعضاء بصفةٍ غريزية بها استعدت للروءية فنسبةُ هذه الغريزة في استعدادها للعلوم والانكشافات كنسبة المرآة الى صور الالوان ونسبةِ العين الى المرئيات — والعقل بُهذا المعنى يستعمله الحكماء في كتاب البرهان ويعنون به قوّة النفس التي بها يحصل اليقين بالمقدمات الصادقة الضرورية لاعن قياس وفكر بل بالفطرة والطبع ومن حيثُ لايشعر من اين حصلت فاذاً هو جزءٌ مّا من النفس تحصل بها اوايلُ العلوم ه

« وقوله جزء من النفس » اَرادَ انّه مرتبة منها والاّ فالنفس لا جزء لها ولا تركيب فيها كما حققّه هو في غير واحد من كتبه الجليلة

ثم انّ تمثيل نور العقل في عالم العلوم والادراكات بنور الشمس في عالم المحسوسات احسنُ من تمثيله بالمرآة اذ كما انّ عين البصر تدرك بنور الشمس كلّ مرئيّ في هذا العالم

---

(١) عرفناه بهذه الخواص والاثار ليعم العقل بالملكة والاستعداد والعقل بالفعل وتعريف القوم له بانه جوهر مجرد في ذاته وفي فعله لعله يخص العقل بالفعل

(٢) هو محمد بن ابراهيم الشيرازي من اجلة الحكماء والفلاسفة ومن مشاهير علماء الامامية توفي في اوساط القرن الحادي عشر ه وله مصنفات تفوق حد الاحصاء والاطراء اشهرها كتاب الاسفار في الحكمة المتعالية في اربع مجلدات جمع فيه من التحقيق فاوعى وبالجملة فالرجل من عليات جهابذة الحكمة والفلسفة ويعرف بصدر الدين وصدر المتالهين وملا صدرا وكان ذا ثروة طايلة وهو من سلالة عايلة الوزارة القوامية ففرق جميع ماله في سبيل العلم والخيرات وتخلص للسلوك والعزله آخر عمره وحج عدة مرات ماشيا حتى توفي في احداهن في طريق مكة المشرفة وكان قد زوج ابنتيه لتلميذيه الشهيرين الفيض صاحب الوافي والفياض صاحب الشوارق شكرت مساعي الجميع حدثني ببعض ما تقدم استاذي الشيرازي الاصطهباناتي شهيد الانقلاب في شيراز تغمده تعالى برضوانه

ولولاه لَما ابصرت شيئاً فكذلك عين البصيرة والقلب — تُدركُ بنور العقل كلّ نظريٍّ في عالم المعقولات ولولاه لما اهتدى الى شيء من العلوم — اَلا وانّ حقيقة الانسان التي بها قد امتاز عن الحيوان انما هي بهذه الغريزة والمنحه — انما هي بهذا العقل الذي هو شمس عين القلوب والافئدة وضياء حاستي البصر والبصيرة — الاترى الكتاب العزيز كيف نسب العمى الى القلب دون البصر (انها لاتعمى الابصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور) — هل يبصر القلب بعين بصيرته شيئاً من العلوم النافعة اِذا فَقَدنور العقل كلاّ اِن هو عند ذلك الاّ كالاعمى وان ابصر المحسوسات — ولكن يا ترى هل يتجاوز سطحها او ينفذ شيء من فكره لولا العقل الى اعماقها او هل يهتدي لولا دلالته الى شيء من خواصّها او آثارها ومنافعها ومضارّها انتَ ايّها الانسان تعلمُ اَن ليس الانسان بانفتاح عينيه وحركة فكّيه وانبساط يديه ورجليه ولا . ولا . ليس هو بذلك قد صار انساناً واكثر الحيوانات تشاركه بهاتيك وانما هو انسان بذلك العقل الغريزيّ الفطريّ الذي تفرّد الله بصنعه وقال له في الحديث الشريف المتواتر (ماخلقتُ خلقا احبّ اليَّ منك ولا اكملتك الاّ فيمن احبُّ وبك اثيب وبك اعاقب) وهذا العقل الفطري هو الذي يصير بالاحتكاك والتمرين والتجارب والتدرّب عقلاً كسبيا لا انّهما شيئان منحازان وامران مختلفان نعم هما بذرٌ وشجر واصلٌ وثمر وناقص وكامل واليهما اشير فيما ينسب لامير المؤمنين عليّ سلام الله عليه من قوله

رأيتُ العقل عقلين * فمطبوعٌ ومسموع * ولا ينفع مسموع
اذا لم يك مطبوع * كما لا تنفع الشمس * وضوء العين ممنوع

وهذا ضربٌ آخر من التمثيل اَشار فيه عليه السلام الى انّ التعليم والادب والتجارب والتدرّب انما تنفع وتنجع في مواضيع القابلية والمحال المُستعِدّة وهي الممنوحة تلك الغريزة الفطرية امّا من ليس له ذلك المطبوع فلا ينفعه المسموع بل يكون مثال الشمس لِفاقد حاسة البصر سواءٌ عنده الانوارُ والظلم ووجود الضوء والعدم وانما ينتفع بنور الشمس او التعليم من كانت باصرته او بصيرته صحيحةً سوية ولها قابلية الرؤية نعم قد تكون عديمةً من ذاتها وقد يعرض لها ما يُبطلها من بعض آفاتها كما انّ قوة الابصار قد تكون عديمة بالكمه وقد تنعدم بالعمى فكذلك قوة العقل قد تكون عديمة بالعُته والحمق عن محلِّها المستعدّ كما قد يُعدمها او يُزيلها الجنون وقد يَبطل اثرها بالبطالة او الهوى والشهوة

وآفة العقل الهوى فمن على على هواه عقله فقد نجا

العقلُ جماع الخيرات ونِتاج الكمالات ومِن احسن ما انبغت به الفرسُ من كلماتها ما « تَرجمتُه » قولُهم في العقل خطاباً لمبدعه وواهبه

من اعطيتَه العقلَ فاي شيء لم تُعطه ومَن لم تعطهِ العقلَ فايُّ شيء اعطيتَه (ماذا وجدَ مَن فقدك وما ذا فقدَ مَن وجدك)

ولا يكمل ولن يكمل ماديُّ الانسان وادبيُّه الاّ بعقله الماديّ والادبيّ

ما وهبَ الله لامرءٍ هبــة احسنَ من عقله ومن ادبه
هما جمال الفتى فان فُقدا ففقده للحياة اجملُ به

(وبالجملة) فمعرفة العقل على اجماله من الوضوح بمكان . ولم يكن بمحتاجٍ الى ما ذكرناه من البيان . اذ كلّ ذي شعور وان كان من كلِ حُليّ الكمال عاطل يعرفُ ويجدُ الفرق والتمييز بين المجنون والعاقل . وهذا المقدارُ من المعرفة الاجمالية كافٍ في ما نحن فيه واماّ الاطّلاع على كنهه وماهيّته فليس الاّ لمبدعه وواهبه والأَمثل فالامثل من عباده والاّ فكلما ازداد الفكرُ في البحث عنه عَناءً . ازداد غموضاً وخَفاءً . الاّ بموهبة منه جل شأنه واحسن مايعبَّر عنه هو ماتقدم من انّه قوة نفسانية (الخ) وتلك القوة التي يستعدُّ بها الاكتساب العلوم النظرية والصنايع الفكرية واخراجها من القوة الى الفعل والخارج تدريجــاً هي اوّلُ مراتب فعليّةِ العقل ثم ترتقي الى عرض عريض . ومقامٍ شامخ لا يصل طاير الفكر اليه الاّ بجناح مهيض . ثم على تفاوته في الشدّة والقوة يتفاوت اُبتلائهُ في التكاليف الالهيه . علمية وعمليه . فلا يُقنعُ من صاحب المرتبة العاليه بما يقنع به من صاحب المرتبة الدانيه . ولا يطلب من الناقص السافل . مايطلب من الشخص الكامل . كلُّ ذلك تحاشياً عن الجور والاعتساف . وجرياً على قانون العدل والانصاف . فبقدر ما يأتي البيانُ بالالهام او الاعلام . تصحُّ المؤاخذةُ والالزام . وعلى سِعةِ النفوس في مَداركها وقِواها . الهمها فجورَها وتقواها . ثم لم يكن ليؤاخذها باكثر مماّ اعطاها و (ح) فالمراد بتلك الاخبار الشريفة انّ الله سبحانه هو يتعرّف لخلقه بعقولهم التي هي الحجة الاولى بينه وبينهم وهي من صُنعه وخلقه فيهم ولا يكلِّفهم ان يحصِّلوا من المعرفة ما ليس في قدرتهم ووُسعهم . وما تقف دونه عقولهم والبابهم وطريقُ تعريفه نفسَه جلّت عظمتُه لهم انْ يُلقي ذلك الدليل العقليّ في عقولهم لِتتم عليهم الحجة . وتُزاح به عنهم العلة . وخلاصةُ القول هنا انّه لا بدّ في العناية الالهية والرحمة الواسعة الكلية . ان يُعرِّف الله سبحانه عباده اماّ بالوحي والالهام او بتعليم

الانبياء والمرسلين او تنبيه الائمة والمعلمين انّ لهم مبدءً صانعاً يجب طاعته ومعاداً يلزم بحسب امكان العبد واستعداده . السعيُ في تحصيل زاده . ويمكّنهم حتى يمكنهمُ اكتسابُ العلم واليقين وملكة الطهارة والتقوى ويُقدرهم ويُهيّأ لهم كلّ ما يتوقف عليه هذا الاكتساب من المعارف الضرورية وغيرها كالقدرة على اكتساب النظريات من البديهيات . والثواني من الاوليات . وهذا معنى قوله (ع) وللخلق على الله ان يعرّفهم) وتلك الأمور هي التي يجب على الله تقدّست آلائه ان يبتدء بها عبادَه — وجوبَ اللطف منه والعدل والكرم لاوجوب الحكم والالزام عليه من احد فانّا نقول انَّ عقولنا الفطرية تحكم بقبح التكاليف من دون اعطاء القدرة وتهيأة الاسباب والمقدّمات وانَّ الله سبحانه منزهٌ مقدسٌ عن القبيح فلايكلّفنا حتى يُقدرنا ويعرّفنا عدلاً منه وتقدُّساً ونعبّرُ عن هذا بالوجوب اي لازم الوقوع لا بمعناه المتعارف و (ح) فاذا انعمَ الله على عبده بماهو عليه ومن صُنعه ولا مدخليةَ فيه للعبد ابدا من وجوده وسلامته وعقله وتنبيه العقل وتنويره بالارشاد الى مافيه نفعُه وضرُّه وخيرُه وشرُّه وهكذا حتى يصل به عقله الى التفطُّن لصانعه والمنعم عليه والميل الى معرفته كل ذلك بالطافه وفضله الهاماً او تعليما ونحو ذلك والى هنا فقد تمّت من الله الحجة ولزمت بحكم العقل المعرفة ووجب على العبدان يتصدى لطلب اليقين والمعرفة تفصيلا — لذلك المبدء الذي عرّفَ نفسَه ونبّه عليها اجمالا . فالذي لايجب السعيُ له — والاخبارُ ناظرة اليه — هو مقام خطور ذلك الدليل والتفطُّن له والذي يجب السعي له وتحصيل معرفته بذلك الدليل هو ما وراءه من المعرفة التفصيلية بثبوت الصانع له وصفاته وما يليق به حسب مايمكن للممكن من معرفة الواجب فاحتمالُ الصانع والمنعم يقع في الذهن قهرا ولطفاً وتحصيلُ اليقين بذلك المحتمل ثبوتا او نفياً يلزم عقلا فلو فرضنا انَّ رجلاً لم يخطر بباله ولا مرَّ بفكره مدَّة عمره احتمالُ انَّ له صانعاً او منعما او لم يحتمل الضرر بجهله وبقي على غفلته ولم يلتفت الى حكم عقله فهو عندنا غير مكلف بالمعرفة ولا تامةٍ عليه الحجة بل لا يُعقل تكليفه واما انَّ هذا الفرض هل يقع في الخارج ام لا وعلى تقدير وقوعه فهل هو كافرٌ ام مومن ام واسطةٌ بينهما وما يجري عليه من احكامها فهو خارجٌ عمّا نحن فيه وانما الغرض هنا ايضاحُ انَّ تعريف العبد بانَّ له مبدءً اجمالا بعد احتماله — ثم تعريف لزوم معرفته تفصيلا حسب الطاقةِ والوسع من احواله ليس الاّ منه جلَّ شأنه ثمَّ بعدَ تحقق هذين الامرين لدى العبد وحصولهما

يجبُ عليه بحسب ذلك الدليل العقلي الذي القاه الله عليه اتماماً للحجة ان يتصدى ويسعى بالفكر والتدبر في معرفته ومعرفة مايليق بشأنه من التوصيف والتعريف والثناء الجميل والحمد والمدح باهدى سبيل — والاخبارُ الشريفة ليس نظرها الى هذا بل الى المقام الاوّل وعلى هذا فقد ارتفعتِ المنافاتُ بمنّ الله تعالى وفضله وبعد الفراغ من تحرير هذا المقام على ماقدمناه واستمددناه فضلا من الله تعالى بالفكر والتأمل — عثرنا على خبرٍ شريف في كتاب العلم والجهل من الكافي عن مولانا الصادق (الذكره وذكر آبائه الصلاة) اشار فيه الى فذلكة المقام وخلاصة الحق حيث قال (ع) « حجة الله على العباد النبيُّ (ص) والحجةُ فيما بين العبادِ وبين الله العقلُ » اَراد سلام الله عليه اَنَّ الله يحتجُّ على عباده بنبيِّه فانّه جل شأنهُ يرسله لِيُنَبِّهَ العقول من غفلتها . ويدلَّها على ما هو من فطرتها وجبلّتها . ثمّ يكون شاهداً عليها (اَن لاتَقولَ اَمّةٌ لولا ارسلتَ الينا رسولاً) واقمت لنا علما هاديا يهدى عقولنا من الضلالة ويوقظها من نومة الغفلة فهو الحجة لله على عباده الذى تنقطع به المعاذير وتزولُ به المحاذير واماَّ العقلُ فهو كماذكرنا الحَكمُ العدلُ بين العابد والمعبود فهو حجةٌ للعبد وعليه كما انه حجة لله على العبد ورسولٌ باطن منه معاضدٌ لرسوله الظاهر — منه واليه وله وعليه والغرضُ ان الامام عليه السلام اشار بقوله حجة الله على العباد النبي الى مقام التعريف والتنبيه الذى قلنا بوجوب صدوره من الله تعالى لطفاً وكرما منه لاالزاما وتحتيما عليه تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا . ثم لا يخفى عليك انّ دليل وجوب المعرفة التفصيلية لايختص طريقه بذلك الدليل على ذلك النحو والترتيب اذ هو صناعة علمية وترتيبات فكرية . بل المراد ان العبد يجدُ من نفسة ضرورةً بعد ان عرف انّ له صانعاً منعما عليه بما لا يحصى من النعم — قُبحَ اهمـاله وترك التعرض لمعرفته بحسب ما يمكنه من المعرفه . ويليق بشأن ذلك المنعم في الذات والصفة . ويَرى انَّ اِخلاله بذلك من اعظم الكفران . ومقابلة الاساءة منه للاحسان . وايُّ قبيحٍ اسوء من هذه المعاملة . عند ذوي الهمم العاليه والعقول الكاملة . والآراء الفاضلة و(ح) فيجب التعرض للمعرفة التفصيلية بالضرورة ولا ينحصر طريقها في علمَي الحكمة والكلام والاطـلاع على تلك الاصطلاحات والمباحثات فانه قد يحصل من التدبر والفكر في آيات الله آفاقية وانفسية . تكوينية وتدوينية . مع مراجعة كلمات الانبياء والمرسلين والائمة والصديقين صلوات الله عليهم جميعا والتأمّل في اخبارهم النورانية . واحاديثهم القدسية . من نور العلم واليقين . ما لم يحصل لاجلة الحكماء

والاساطين . وانا اعلمُ يقيناً . واحلف يميناً . ويصدّقني على ذلك كلُّ صادق . ويشهد لي كل مطّلع حاذق . انه قد كان من المعرفة واليقين لِسلمانَ وابي ذرّ وامثالهم من حواريّ رسول الله والايمة (ع) ما لم يكن للشيخ الرئيس والرازي وغيرهم من الحكماء المبرزين . فضلاً عن المتكلمين . ولكن ذلك انما هو من شرف صحبتهم والسعادة بخدمتهم . والتلقّي من فيوض نفحاتهم . وبركاتهم والترّقي في معارج الكمال بمشاهدتهم وتربيتهم . (وذلك فضل الله يوءتيه من يشاء) نعم الصحيحُ من تلك العلوم نِعمَ المعين والمساعد . على تصحيح العقايد . ودفع شُبهِ المعاند . ونِعم سبيلُ السداد . للهدايه والارشاد . وتحصيل الجزم والاعتقاد . ولكن لمن كان من اهل القرايح السليمه والاذواق المستقيمه لا مَن تناهى في طرفي الافراط والتفريط الى الحدّة والجربُزة او الخمود والبلادة فانّ الخوض في تلك العلوم لهوءلاء سمٌّ قاتل وهلاك عاجل يعرف ذلك منهم العارف الحاذق والطبيب المرافق فيجب عليه اذا احرز منهم ذلك ان يتلطف لهم في تحصيل الاعتقاد الصحيح بالاقناعيات والمسلمات لا بالبراهين التي هي معرض التشكيكات ومجال المناقشات حتى يُوصلهم بلطايف الحيل الى نجاتهم بالعلم والعمل وكلٌّ ميسرٌ لما خُلِق له (والله يتولى الصالحين والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وانّ الله لمعَ المحسنين)

وحيثُ استبان انّنا مجبولون حسب طباعنا وغرايزنا على البحث والنظر فاوّلُ ما هو الحريُّ بالبحث الجديرُ بالفحص الأولى باحتكاك الآراء واصطكاك الافكار أن نبحث عن اسباب وُجودنا ومبادي كياننا وننظر من اين وُجدنا ولما ذا وُجدنا والى ايّ غايةٍ تنتهي بنا سلسلة هذه الحياة وسلّمُ هذه الاكوان

ننظر هل كان وجودُنا مُصادفةً واتفاقا وعبثاً واعتباطا ام قصداً وعِناية ونظراً الى حكمةٍ وغاية — ننظر من اين وفي اين والى اين وانّنا في نشأة واحدة ام في نشأتين — ننظر هل كان وجودنا من مبادي عاقلة وقِوىً مُدرِكة ام هي من اصول عُجم ومباديء صُمٍّ بكم — لا جرَم انّ اجتبال النفس على حبّ ذاتها وعنائها بشوءونها وتضحية كل شيء في سبيلها يجعل لهذه المباحث من الاهمية عندها والتقدّم لديها ما ليس لغيرها ويخوّلها من العناية ما لا يخاله في شيء من النظريات سواها وعسى ان يستبين بعض ذلك في طيّات دعوتنا هذه وعلى الله نعتمد ومن فيضه نستمد مستودعين ما نحاوله من البحث عن الحق في هاتيك الحقايق ضمن فصول هي الاصول والمقاصد

الفصل الاول

في اثبات الصانع الحيّ جلّ صنعه وعمّت حياته وعظمت حكمته

وهذه هي المعضلة التي اشغلت كلّ قلب والمسألة التي استوات على كل لبّ التي كادت النفوس ان تطير شعاعا الى استكناهها والوقوف على صميم حقيقتها فتضاربت فيها الآراء وتمزقت عندها الاهواء على عاديات الدهر واوليات الازمان والقرون ناموسَ حربٍ سجال جرت سُنَّة الكون عليه فيما لا يزال ان لايستنير ولا يستطير شرر الحقايق الاّ بذلك التحكك والتضارب بل هذه هي المسألة التي كادت من وضوحها ان تخفى واوشكت من حضورها ان تغيب — هي الفطرة الاولى التي فطرت عليها العقول والعاطفة الذي يحسّ بها عنده كل ذي وجدان التي يجهد جاحدها في اماتتها ويتفانى على قلع جراثيمها فلا تزداد الا حياة ونموا وجلاء وعلوا

والفلاسفةُ الباحثون ما زالوا ولايزالون تترامى بهم النظريات فيها الى نزعات ثلاث لارابع لها ابدا — معطِّلة — ومتعطلة — وآلهية وبقول اخر — الحاديّة مادية — ومُشكّكة لا ادرية — ومستيقنة إلهية اما المتعطلة المشككة فبالحريّ اسقاطها وحطُّها عن مَدرجة العلم ومذكرة العلماء وتسجيلُ الحق على احدى الفئتين يقضي به على الثالثة لامحالة فاستدار النزاع ثنائيًّا بين الالهيين والماديين وقد عرفت اتّفاق الجميع على تحقق مبدءٍ مّا لهذه الكاينات لا يختلف في ذلك اثنان وكانّ محور الكلام في نزعات ذلك التنازع انما يدور على نعوت ذلك المبدء وبالاخص منها صفة العلم والادراك والحياة وكلها تؤل الى واحد وهذا آخر ما تنتهي اليه هذه الملحمة التي بلغت من العمر عِتيا جعلناهما طايفتين واعتبرناهما فريقين وما هما لَعمر الحق والحقيقة في ايّ آونة من الدهر وعصر من العصور اِن نسبت الثانية الى الاولى الاّ كنسبة الواحد الى المائين او المائة الى الملايين مهما تكثرت وفشت وتوفرت على اننا لانريد ان نعتضد هنا بالاجماع او نتوفر بالكثرة او نعتدّ بالسواد الاعظم عن الادلة والبراهين غير انّ مِن اعظم الدواهي وانكاِ ما اقترفته جراير الليالي والايام قضائها على العقلاء وارباب المعرفة واصحّاء العلم والفلسفة واعتسافها لهم بان يقيموا الادلة والبراهين ويصرفوا نقدا من العمر الثمين على امرٍ لم تشرق آفاق البداهة باجلى منه نورا واسنى ظهورا واشدّ

وضوحا ولا جُبلت البشر على اغرزَ منه في طباعها واعلق به في نفوسها حتى لكانه اقرب اليها منها او انه اجلى لها من حقيقتها وذاتها ومما زاد البلية على اصحاء العلم في هذا الموقف الحرج ان المعارضين فيه ما اعتمدوا في مناكرته على ساعد حجة ولا استندوا الى شبهة برهان حتى يكون النزاع علمياً بين الفئتين فيجري البحث على اصوله ومجاريه وتتمشى اداب المناظرة فيه وكلما تصفحنا ونقبنا وبحثنا وطلبنا ونظرنا في كلمات غابرهم ودابرهم واولهم واخرهم وقديمهم وحديثهم لم نجد عندهم سوى المكافحة بالوهم والخيال ومكابحة اليقين بالاحتمال ومعارضة الشراب بالسراب ومقارضة الشمس بالشهاب اقوى سلاحهم في ذلك — التشكيكُ في الحقايق — بالاوهام الفارغة الا من زخرف القول وتنميق الالفاظ وبناء صروح الاوهام على دعايم الدعاوي المجردة وانكار كل حقيقة راهنة وإماتة كل عاطفة شريفة ليس الا بالاحتمالات والسفسطة التي عكّرت صفو غدير العلم ودمّرت سُلّم كل سِلم

ولقد كان بالعزيز على اولي الحصافة واولياء الحق اضاعةُ الوقت واجالة الاقلام على المهارق في ردّ تلك السماديرِ وسدّ فوّارة تلك الهذيانات التي تبتعدُ عن العلم ابتعاد نبات الدأماء عن بنات السماء

بيدَ انّ ذلك وان عزّ وعنّ ولكنّ شيئاً منه لم يقف سداً في سبيل نصراء الحقيقة ولم يقعد بهم عن القيام بعباء هذه الوظيفة فلا تجد عصرا من العصور على ربوات السنين وكتلات الليالي والايام الا وتجدُهم في ذلك اشراقات شموسٍ بازغة وضربات حجج دامغة كما تجد (على ناموس التنازع) لشرذمة من المهوّسين ما هو من نقيق الضفادع عند زمجرة الاسود نعم لم تزل تلك الهوسات والسمادير سنة في الكون تتمالى على متون الملوين وتستجدّ على كرّ الجديدين تقوى وتضعف وترقّ وتكثف حتى قذفت لنا اعاصير عصورنا هذه بخشارة من الناس وسِفلة من صورة البشر حسبوا انّ الفلسفة انما هي بتشقيق الكلام وتزويق الالفاظ والعكوف على غرايب الغربيين وكلمات الماديين والطبيعيين فما لبثوا أن تمادى فيهم الغرور وطغى بهم طوفان الجهل حتى قال قائلهم سلّ الله اسلة لسانه كما سلّ عقله بيد شيطانه (انا قد قتلنا إلهنا واسترحنا) نعم قد احيا جهله وامات عقله وقتل وجدانه واخمد احساسه وخنق شعوره نعم امات حسّه وانكر نفسه واحيا وهمه وناكر علمه (وهكذا فعل ويفعل) انَ اول حجرٍ وضعه في هذا السبيل واوّل مقدمةٍ مهّدها في مبادي ذلك الموضوع التعيس إنكارُ الوجدانيات

والمُسلَّمات والحضّ على خلع ءان الفطريّات والغرايز الاوّلية وافترضها من الاوهام والاباطيل التي لاحقيقة لها متأصلة ولا معاني متحصلة وقد تشدَّق هنا وتفيهق وزَخرَف وتمّق وقال ما شاء وشاءت له الغوايةُ والجهل — زعم انّ فلسفته وبحثه اَبانتْ له انّ الآلهة وهمٌ من الأوهام ومختلقٌ من الاذهان ومَضلّةٌ من زعماء البشر وانبياء الامم

تَربتْ يدُ البحث والفلسفة ان كانت تلك نتايجها وهاتيك غاياتها وحنظلتْ شجراتُ العلم اِن كان هذه ثمراتها وعلى تلك الاصول والمبادي مغارِسُها

يا من تفلسفَ كي يؤيّد كفرَه مع انّه لم يدرِ كُنهَ وجوده

خسرت بسوق الفضل صفقة جاهل تّخذَ العلوم ذريعةً لجحوده

اَلا بذمَّة الانصاف والمروّة انظر ما اعظمَ البلية على العلماء وذوي الالباب حيث تضطرُّهم أُلعوبة الدهر وتصاريف الحدثان الى مباحثة مثل هؤلاء الطغمةِ الذين ينكرون كل البديهيات والفطريات والوجدانيات وكلّ اصلٍ موضوعي اذاً فعلى ايّ غاية تنقطع سلسلة المجادلات وعلى اى نقطةٍ تقفُ سيَّارةُ المخاصمات وعلى محضر ايِّ محكمةٍ بعد العقل والوجدان تُعرضُ المخاصمة وتُفصَلُ المحاكمة وعلى ما ذا يُعوّلُ العلم والاعلام ويبتني سند الحكماء والاحكام

يقولون لا معولَّ للعلم الاّ على ما يُحسُّ بأحدى الحواس الخمس اذاً فقد جحدوا نفوسهم وانكروا عقولهم اِذ مِن المتسالم عليه حتى عندهم انّهم لو وضعوا اعظم تلسكوب او مكرسكوب واكبر مجهر من النظاّرات ونظروا الى كل خلية من خلايا الجسد وكل دقيقة من دقايق المادة وفصَّلوا كل جزء من اجزائه عن اخواته ونفذوا الى اعمق اغواره واغور اعماقه واقصى ابعاده لما ابصروا شيئا من النفس ولا العقل بنظَّاراتهم ولا قبضوا عليها بايديهم ولا سمعوا لها همساً بآذانهم ولا ذاقوا لها طعما ولا انتشقوا لها نَفما وعليه فلا وجود للنفس ولاحقيقة للعقل بل وعليه فلا حقيقة لشيءٍ من شؤن النفس مجرَّدةً او جسمانية فلا ادراك ولا خيال ولا حافظة ولا ذاكرة ولا مصوّرة ولا مفكرة ولا لذة ولا الم ولا صحة ولا سقم ولا جوع ولا شبع اِذ كلُّ هذه محسوسات ولكن لا بشيء من تلك الحواس الظاهرة فلو قصرنا الاشياء الراهنة على مدركات تلك الحواس لكنّا قذفنا بالعلوم والحقايق في هوّة حالق وخسرت صفقة العلم واهله وخاب كل انسان من جدوى عقله وهل تُحسُّ النفس الاّ بآثارها وتُعرف الاّ باعمالها وتمتاز الاّ بخواصها — الخواص التي تقود الانسان قهرا وتسوقه قسرا الى الاذعان

بانّ هناك كائنٌ مهما جهل حقيقته فانّه لايجهــل انه حيٌّ موجودمدرك ليس بجسم ولا من جوهر المادة ولا من حقيقتها وان حلّ فيهــا واستعملها واستكمل حقيقته باستخدامها وتوصَّل بها الى ما لم يكن ليتوصل اليهبدونها وليس الغرض الخوضُ هنا في هذه اللُّجة العميقة والغوص الى قعرها السحيق وعسى ان يجيء له محلٌّ غير هذا ولكن ايُّ خيرترجوا وجدوى علمٍ تأملٍ وعايدةفضلٍ ترتقب ممن قصُر ادراكه وضاقت سعة خطاه عن ادراك ذات نفسهوهي ابَدهُ البديهيات اليه واقرب الاشياءمنه فانكرها من حيث يدري ولا يدري وجحدها من حيث يشعرولا يشعر ثم ايُّ بليةٍ اعظم من ان تسوقنا الصروف وتقضي علينا الضرورات بالوقوف في صفّ البحث مع مثل هــذه الناشئة الحمقاء التي كسدت عندها الحقايق وراج لديها سوق الاوهام التي جائتنابتيَّارٍ من الجحود المحض والانكار المجرَّد وتعتدّه آلةواداة لابطال كل شاهقةٍ راسخة الدعايم مبتنية قصرها المشيد على كل اساس وطيد من العلم والمعارف وهكذا يفنى الفضل وتذهب الفضايل ويدرس العلم وتضيع الحقايق

هكذا يفسد الزمان ويفنى الـ علم فيــه ويَدرُس الأثَرُ

افترجو ممن انكر نفسهوضغط على شعوره وتهالك علي اماتة وجدانه أن يصل به العلم الى معرفة خالقهوالالمام بمبدئهومعاده كلاّ ذلك رجعٌ بعيد وامر ان لم يكن من المستحيل فهو من الصعب الشديد

اتعجبُ بعدَ هذا مماّ تجاهرَ به قائلهم ولم يخشَ في قوله حيثُ يقول

(ما الله خالق الانسان انما الجواهر الفردة انشأته وما بمجد الله تحدّث السموات انما تذيع مجد علماء الافلاك) اَوتضحكُ ولا تبكي او تبكي ولا تضحك من هَلج الآخر وهملجته في العمى حيث يقول

(لقد مُحي رسم الالوهيةتجآه اعيننا (عميت عيناه) وانقشعت سحبة من سماء تصوراتناوقد وضح لنا ان الانسان اوجد الآلهة وانههو الذي يلاشيها وتجلّى لناوجه ابينامن وراءحجب القدم ينظر الينابعينين تتوقدان بنيران الشبيبة الازلية قايلاقبل الله كنت)

الى كثير من امثال هذه الجرائات الفظيعةوالبذائات الشنيعةوالمباهتات التي هي ضدُّ كلّ ادب وخرق كل ناموس التي يهون عنــدي ان يجري دونهادمي قبــل ان يجري بها قلمي ولكن انت ايها المحبُّ للدين وحبيبه الذي هو احبُّ لديك من كل محبوب وانفس من كل مرغوب الذي لعلك تتفاداه بنفسك وتضحّي في قربانه دماء

اعزّتك وافلاذ كبدك لايسوءَّنك ماتسمع وترى من تحامل هوءلآء على دينك العزيز وربّك الحبيب الذي تجد انك لاتجد الخير والسعادة الآ به والتفاني على حبّه والتزلف الى قربه كلا لايسوءَنّكَ ذلك جازعاً كنت ام صبورا

(فاعظم الناس منذ كانوا ماقدروا الله حق قدره)

لا يسوءك ذلك بل ليكن باعثاً لك على شدّة التمسّك وصحة الاعتقاد وقوة اليقين واجعل ذلك من آيات صدقه وبرهانات ثبوته فاذا كان هوءلاء قد انكروا نفوسهم وجحدوا وجداناتهم فكيف لاتكون المعقولات والمجردات منهم بحيث النجم من يد المتناول وكيف لا يعدّونه من الوهم الباطل (والمرء كما قيل عدوٌ ماجهل)

اذا انكروا انفسهم بحجة انهم لا يرونها والعلم هو المحسوس فحقًا لو انكروا خالقهم ألستَ تذكر ما لهج به زعماء الاديان من قولهم (من عرف نفسه فقد عرف ربه) (اعرف نفسك ياانسان تعرف ربَّك)وبالعكس مَن جهلَ نفسه فأَحرِ به ان يجهلَ ربَّه وهذه القضية متبادلة في المبدء والغاية والسبب والمسبب

متعاكسةً (ردّ الفعل) نَسُوا انفسَهم فنَسُوا الله) (ونسوا الله فانساهم انفسهم) معزى ذلك ان الانسان اِمَّا ان يعرف نفسه ويبحث بعض البحث والنظر فيها ومنها يتوّصل الى معرفة ربه او يعرف ربَّه ويبحث في عظمة ملكوته ومنه يتوصل الى معرفة نفسه فهما في النهاية متلازمان في الجهل والعرفان فاذا عرف احدهما عرف الاخر وبالعكس لا ينفك احدهما عن صاحبه وترتب احد المتلازمين على الثاني سنَّة سارية وضرورة جارية في النواميس فلا موضع للعجب

نعم وصيتي الى نفسي والى ابناء جلدتي وجنسي من كافة اهل الاديان ان لاتنثني غيظنا من هوءلاء الذين خدشوا عواطفنا وهتكوا بالجرئة والجهل حرمة اعظم نواميسنا ووقذوا اكبادنا بجمرات جهلاتهم وجرحوا قلوبنا بمواسي هوساتهم ان لاتنثني غيظنا ولانتنصر لادياننا منهم الآ باقامة الحجج والبراهين وبثّ روح الدين في هيا كل هذا الكون واحساسات كل موجود ونستمد ونستعين بروحانية اديانا على تمزيق سدف هاتيك الغياهب وتقشيع تلك الجهامات والجهالات

وللتوضيح والتنقيح ابدأ قبل ذلك امور

(١) انّي لست معك في هذه الدعوة كباحثٍ طبيعي ولاناظر واياكَ في امرٍ ماديّ ولا خائض في شيء من فنون الطبيعيات من الفسولوجيا او البيولوجيا او الجيولجيا

او الكيمياويات او الميكانيكيات او غير ذلك من امثالها كما اني غير واقف معك في صف النظر في الخلق الفجائي او الانتخاب الطبيعي او ان بدء نوع البشر كان من بذور تناثرت من هذه الكرات السموية فنبتت على سطح الكرة الارضية حتى نمت واثمرت هذا الثمر المر واينعت بهذا الينع الفاسد

او ان نشأ العالم كله جماده وحيه كان من بخار الفضاء ومن نتيجة تفاعل الجواهر الفردة ودقايق المادة الجاري على نواميس معينة ومن تلك الجواهر تركب سديم العوالم وان ذلك التفاعل من الحركة الاضطرارية وتضاد الدفع والجذب وان تلك المادة والحركة هما الازليتان الفعالتان في نواميس الكون وظواهر الوجود لا ابحث في هذا ولا في خصوص ان الانسان كيف كان وهل هو كما ذكر (حي بن يقظان) ربيب تلك الظبية الوحشية التي انست اليه وانس اليها فاصبحت ظئرا له حتى كان من امره ما كان ام هو كما يقول (بخنر) في مقالته الاولى من شرح مذهب (داروين) مكفر الملايين واستاذ المعطلين في هذه العصور التي هي الأجدر بان تسمى بالعصور المظلمة لا ما تقدمها — هل هو كما يقول انه تجلى لنا وجه ابينا من وراء حجب القدم ينظر الينا بعينين تتوقدان بنيران الشيبة الازلية قائلا قبل الله كنت وان هذا الاب الازلي على رايه كان في بعض الازمنة قردا وكان قبل ذلك كيساً هلاميا او مخاطاً وانه كان نقيعا في الماء لاصقا بصخره وما زال يتدرج في سلم النشو والارتقاء حتى بلغ الى طوره اليوم (وليته لا بلغ) كما انني لا اريد ان اتربع على منصة الحكم بينه وبين خصومه من ابناء جلدته واكابر فلاسفة عصره فضلا عن معارضته هو لنفسه ومناقضته بذاته لقوله

لا اريد ان ادفعه بامثاله واقتله بابطاله وابطله بمثل قول الانجليزي الشهير (تندل) ان ذلك القول خطاء وعرضة للبطلان وقول (فرخو البرليني) من اكابر علماء التشريح (ما للارتقاء من ركن علمي) وقول الدكتور (دوسون من اكابر الجيولوجيا (قائنا بالادلة الصحيحة ان الانسان خلق في الاصل انسانا ولم يكن يوماً ما قردا ولا سلالة قرد ويقال على غيره من حيوانات الرتبة العليا ماقيل عليه ولا دليل على استحالة نوع من الحيوان الى غيره) وكمقالات الفلكي الطبيعي الشهير (كاميل فلامريون) الفرنسي وكثير من امثاله من رجالات الغربيين ومشاهيرهم

ليست تلك المباحث من عنايتي ولا اليها قصدي ووجهتي ولا هي من شأني ووظيفتي سواء كان لي المام بها وذرو منها املا وسواء كنت من اهلها او على الاغلب لست بها

هناك — لا انحو اليها ولا أُلم في دعوتي هذه ومقامي هذا بها لاني لا اجدُ لها مسيسا ولا لما اريدُ اثباته توقفا واحتياجا الى اثبات شيء من تلك الاصول او تاييد قول من تلك الاقوال فانَّ الذي نعني به وننزع اليه راهنٌ على كل تلك المزاعم ثابتٌ على فرض صحة ايّ قولٍ من الاقوال — صحيحا كان بالنظر الى نفسه ام باطلا ولا يتوقف اثبات الصانع الحكيم على اثبات انَّ الانسان ايّ شيء كان وهذه المسئلة الطبيعية منفصلةٌ بتاتا عن تلك المسئلة الالهية كما هو ظاهر لأوّل نظره

انّنا نريد فيما هنا اثبات قوة مدبّرة في الكون مدركة حكيمة ازلية قديمة يخضع كل شيء تحت سيطرتها ويعنو كل موجود لحكمها وبالخلاصة تؤثّر في كل شيء ولا يُؤثّر فيها شيء حتى ولا هي في نفسها (شي ، واحد فاعل وقابل چه نازيبا ستي) ومن هوسات الماديّين وخبطاتهم ربط هذه المسئلة بتلك وما هي منها في شيء

ولكنَّ لي في هذا الموضوع (اعني مسئلة النشو والارتقاء) كلمة واحدة وهي انَّ العجب كان ياخذنا قسطه حين ننظر الى بعض ما ذكره الفلكيون الاقدمون في ترتيب الهيئة القديمة (هيئة بطلميوس) من كيفية نضد الافلاك التسع وترتيب وضع السيَّارات واجزاء كلّ فلك وما يشتمل عليه من الحاوي والمحوي والمتممات وكثير من امثال هذه المسائل التي اتخذوها كاصولٍ موضوعة ومباديٍ مسلمه واذا فتَّشت في خزانة الدليل لم تجد عليها هنالك من سلطان ولا حجة ولا برهان وانما مرجعها الى استحسانات ومناسبات وافتراضات يتم بها المقصود المهم في ملاحظاتهم فكنَّا نستهدفهم اسهام الملام ونعجب كيف مثل اولئك الاساطين حكموا بتلك الاحكام في محكمة هذا الفن المهم على غير اساسات وطيده ولا دعايم ثابته ولا حقايق حجج راهنة والعلمُ اعلى واجلُّ من ان يبتني على غير ذلك ولكن وبالاسف انه ما مضت الليالي والايام حتى قاء الغرب لأغرار الشرق وطغمتهم عالم تنضجه احشائه من متفلسفة هذه القرون الاخيرة فصاروا يعكرون غدير العلم ويكدرون صفو العلماء بل العالم جاؤنا بما هو امرُّ وادهى واسخف واوهى

فتارةً يجعلون القرداباً للانسان واخرى يجعلونهما من اصل واحد يترَّضخون فيه كلَّ هوة ويترامون به في كل فجّ عميق من كُيس هلامي او مخاط شيطاني اومستنقع على صخرٍ حجري الى امثال ذلك من الهلجات والسخفة واللهجات الفارغة

ثم ولا ادري بعد ذلك العناء كله فايّ فايدة تترتب على ذلك علمية او عملية واي

غاية تعود منه على الباحث فيه سوى إضاعة الوقت وتقوية شياطين الوهم والخيال

اقسم بكل المحرجات انَّهُ ما ابتُلي العلم بمثل هذه البلية ولا امتُحِنَ بمثل هذه المحنة على اوليات عهوده وابعد ادواره الاوانَ الطامة الكبرى صغو بعض ناشئة الشرقيين واغرارهم الى تلك الفلسفة الخرقاء والبقلة الحمقاء واعتدادهم انَّ اهلها من اكابر الفلاسفة والعلماء حتى اني رايت في مجلة بعض الصحافيين من العراق يقول (قال اكبر فلاسفة العرب شبلي شميل) تعست العرب والفلاسفة ياهذا ان كان هذا من اكابرهم او ان كان يعدُّ في عدادهم

تعِست الفلسفة ولا كانت — ان كانت هي عبارة عن خبط عشواء في الليلة الظلماء أتلك المقالات وهاتيك الضلالات التي فضلا عن كونها ماشمت رائحةً من العلم ولا استظلّت شبحاً من الادلة والبراهين لم تعتضد حتى بشيء من المناسبات والاستحسانات وما هي الا اغترار ببعض المشابهات والتسوية من بعض الوجوه في الانواع المختلفة الحقائق المندرجة تحت جنسية واحدة هي التي قضت لها بالشبه وصار كل نوع منها سيَّ الاخر في تلك الجهة ولا يخوّلُ هذا القدر من التساوي اَن يقال انَّ هذا من ذاك او انَّ هذا اصلٌ لذاك — فانك لا تجد نوعا من انواع الحيوانات على تباعدها وعرضها العريض الا وتقدر على تحصيل جهة مشابهة بين كل واحد وجميع ماعداه من انواع ذلك الجنس بل هذا سارٍ في جميع الكونيات من الوجود بالبداهة وليس القول بانّ القرد اصلٌ للانسان او هما معاً من اصل واحد الا كالقول بانَّ شجر الخلاف من النخل او الزيتون من الكرم او العكس لِتحصُّل بعض وجوه التشابه بينهما على كثرة المميزات والخواص المتباينـة فيهما وكلما فحصنا ومحّصنا اساطيرهم لم نجد فيها مايصلح لتقريب هذا البعيد فضلا عما يصلُح بان يُسمى دليلا او برهانا — دونك فلسفة النشو والارتقاء ايها المتطلع الكامل لا الغرّ الجاهل الذي يُختلس من حيث لايدري ويسقط من حيث لا يشعر دونك فانظر هل تجد فيه للدليل اثرا او تسمع من الحجة همسا اوتحسُّ لها ركزا كلا — فدع عنك ايها القلم الخوض في هذه الاوحال المنتنة والمحال المتعفنة دع عنك المسابقة في ميدان القرود وخلِّه لاهله فكلُّ انسان هو اعرف باصله ولا يسوغ اقراره الا عليه ولاجل ما ذُكر من عدم ارتباط هذه المسئلة الطبيعية بتلك المسئلة الالهية التي هي همُّنا واليها وجهة قصدنا تركنا البحث في اصل خلق الانسان ولقد كانت لنا فيه مطالب جمة ونظرات مهمه ولكنا خشينا ان يفوت الغرض بالعَرض والمقصد بالمستطرد فعد لنا عنه الى البُغية وبالله التوفيق

(٢) ان جميع الكواين المادية وبالاخص كلما هو على سطح هذه الكرة الارضيه من جماد اونبات او حيوان انما هو في بدء امره واول نشآت وجوده كانه قوة مجردة وخلية من البذور المستعدة ولا يبلغ الغاية التي تليق به من الكمال والانتفاع بكونه وترتب الآثار على وجوده الا بعد العمل عليه والسعي فيه والادمان على تربيته بالنواميس المعدة لمثله وذلك بعد ردح من الزمان وبرهة من الايام تتداوله فيها التطورات والتقلبات في ايدي العوامل الفعالة في الكون كما تسمع وترى — المعدن رقعة من الارض وقطعة من الهضاب ولكن لا تسطع لمانا ولا تستطيع ان تبلغ من غاياتها مكانا ولا تتأهل لان تكون زينة اكليل او قلادة جيد جميل او ترصع بها آنيه او توضع في حلية غانيه الا بعد مزاولة اعمال طايلة فيها ومضي برهة من الدهر عليها وعجمة النواة او حبة القمح نبذة من الاجسام الجمادية ولكنها تختص باستعداد في خليتها وقابلية ولكن لا يبرز ذلك المستعد له الى الوجود ولا تعود جسما نباتيا حيًّا ناميا مثمرا الا بعد مكابدة عمل وطول امل وتربص ليال وايام والسير فيه على سنن مخصوصة — وعلى هذه النواميس الكونية سارت سنة الكاينات البشرية فان الانسان في اول وجوده على سطح هذه الدايرة ما كان الا كناجمة نبات في الارض يوءلمها حتى مر النسيم ويوءدي به البرد والحميم ويحتاج في بلوغه الى مرتبة حفظ استقلاله وبلوغه اشده الى باهض عناية ومراقبه وعمليات افكار ثاقبه وانطواء سلسلة من الزمان وجملة من العمر — هكذا يرتقي الانسان في هيكل جسمه واعضائه وبمثل ذلك رقيه في علومه وافكاره وآرائه فسير قواه المادية والادبية على سنن واحد يسيران على الاغلب معاً كتفاً الى كتف وجنباً الى جنب والكل على نواميس محدودة وقواميس مجارٍ مقررة لا طفرة في الكون ولا فجائه وجميع العلوم والصنايع والكمالات كلها مرتهنة بهذه السُّنَّة لا تحيد عنها ولا تزول الا بخرق عادة مما لا يقاس عليه ولا يلتفت في الحكم بالكليات الى مثله

وُجد الانسان بمكان من الضعف في جميع قواه حتى من القبض والبسط والاخذ والدفع والقيام والقعود ولكن في صميمه الجوهرة المستعدة لبلوغ اقصى غايات المجد والتربع على منصة عرش الشرف لا كيفما كان وكلما اتفق بل حيث يستن ويتسنى له السير على لاحب من التربية الصحيحه وجدد من الخطة العادله ذلك حيث يدخل الى كل فن من بابه ويطلب كل شيء من اسبابه ويرجع في كل علم الى اربابه ويتحصل الغايات من مباديها المقررة لها والطرق المسلوكة اليها ثم له بعد ذلك حرية الارادة وسلامة

الاختيار ومكانة الجرح والتعديل والاّ فلو تهجّم احدٌ على ايّ علم من العلوم وفنٍّ من الفنون من دون اخذه من مباديه وتلقيه عن اهلية وسيره على النهج الذي يلزم فيه لا يعتم ان يكون مشيه فيه مشية السرطان معكوسةً الى وراء لا يزيده كثرة السير عن غايات ذلك العلم الاّ بُعدا وكم راينامن قومٍ دخلوا في العلوم على غرّةٍ فيها وجهلٍ بمباديها وعدم تلقٍ لها من جهابذتها ونُطّاسها الخبيرين بطرقها ومسالكها فجعلوا اولائك يرتقون ويفتقون ويحكمون فيها بما يشاؤن من تلقاء انفسهم ومن عند فطير افكارهم ضدّ فطرتهم يزّقون بمخالب اوهامهم اهاب قواعد ذلك العلم ويهرفون على زعمائه وعلمائه بما لا يعرفون وما السبب الوحيد في ذلك كله سوى الجهالة والخروج عن النواميس المقررة في تحصيل استكمال كل شيء وما هم الاّ على حد قوله

ومن البلوى التي ليس لها في الناس كُنهُ انّ من يعرف شيئا يدّعي اكثر منهُ

ان فلاسفة المادة وعباد الطبيعة بعد ان صرفوا اعمارهم واجهدوا افكارهم ودأبوا ليلهم ونهارهم في علوم الماديات واستخراج خواصها واستخدام وسايطها (والحقُّ يقال) انهم بلغوا في ذلك المقام الذي لا ينكر فضلهم وتقدّمهم فيه سوى انه كان من اللازم عليهم في الاءلهيات ان يدعوها لاهلها ويتركوها لعشّاقها وعُبّادها الذين صنعوا فيها ما صنعوا هم في الطبيعيات من العناء والكد وبذل الجد والجهد وصرف الاعمار والدأب على مزاولتها وتحصيلها ولكنهم بدلا عن ذلك باغتوها بالانكار على حين لم تسبق لهم من العناية بها قدر عنايتهم باقلّ مسئلة من الطبيعيات فكانهم يعملون على خرق النواميس المطردة في سلسلة الاستكمال في كل شيء فيرون انّ الطبيعيات انما هي بالكسب واستفراغ الوسع وطول الجهد والعناء وانّ الالهيات يلزم ان تتنزل عليهم بالوحي والالهام وحيث لم يكن ذلك فهي اباطيل لا حقيقة لها واوهام لا طايل تحتها وهذه سخيمة اخرى وسنة ثانيه في اكثر النفوس الساقطة وهي انّها اذا ارادت ان ترحض عنها دناسة الجهل بقداسة ايّ حقيقةٍ راهنه تذرّعت الى ذلك بالجحود والانكار والنخوة والاستكبار وادّعاء ان ذلك العلم مثلاً ليس بشيء وانّه ممّا لا حقيقة له فتدفع عار الجهل عنها بما هو اشدُّ مَعرّةً منه من التهجم على جحوده وغمط حقوقه وهنا تسمع قائلهم يقول (فض الله فاه) (انا قد قتلنا الهنا واسترحنا) قاتل الله الجهل ياهذا واعمى عين المكابرة ما هذا التهجّم الفظيع والظلم الذريع والصَلف تحت الراعدة والجرائة والبذائة ولعلّها الدعوى التي ليس عندك

سواها من دليل ولا سوى اعادة امثالها من برهان

أفهل من النصف لو انصف الحكم ان تسمح بعنائك كلّه للمادة ولا تدع شيئا منه لما وراء الطبيعة ثم تتحامل ذريعَ الجهل على قداسة الاديان هذا التحامل ثم تعدّها بانك لاتعرف شيئا منها اضاليل واباطيل

والغايةُ انّه لو انّ كل باحث وقف عند حدوده ولم يتجاوز قدر معلوماته ومحكماته او لو ان كل انسان وسّع لمجهولاته قدرا من العناية وتطلّبها من اسبابها ومباديها وسار رويدا دون العَدو والوثوب لانهدّ جانب كبير من تلك المنازعات والمجادلات التي ضخمت بها الاساطير واتّسع فيها نطاقُ الصحف وصيرت العلم بالحقايق ابعدَ من العيوق واعزّ من بيض الانوُق ولكن هيهات ولايزالون مختلفين سنّة الله في الذين خلوا ولن تجد لسنة الله تبديلا

(٣) انك وكل احد عرفت وتعرف كيف كان الانسان في اوّل كونه من الجهل والسذاجة المطبقة ثم يصير كلما يشبُّ ويترعرع يجد في نفسه احوالا وغرايز كانها كانت مكمّمة في برعمة نفسه ثم تفتحت اكمامها وتفتقت ازهارها وتأرّجت نفحاتها ولكن من حيث لايدري كيف وُجدت ومن اين لا اين وجدت لا يعلم الاّ انها هي ذا وهي هكذا — اوّل تلك الاحساسات والفطريات اندفاعه الى البكاء عند طلب الغذاء وسكونه عند الشبع والرواء ولم يكن تعلّم هذه الواسطة المفهمة من معلّم ولا تعرّفها من مُعرف ولا راى غيره عليها فاحتذى مثاله واتخذ منواله بل فطرة وجدها من ذاته واندفع اليها من تلقاء نفسه ثم تتوارد عليه هكذا تلك الغرايز والفطر تنبع من ينبوع نفسه وتبرز من خزانة صميمه لايفتأ ان يفرق بين الوجود والمعدوم وبين النافع وغيره فيميل الى الاول ويسكن اليه من ظئر ترضعه او امّ تربّيه فيهشّ اليها ويبتهج بها ولا يأوي الى جناح غيرها وهكذا تربو وتتزايد معه تلك الخلال حسب نموّه وتربيته فيكون لها من نفسه المكانة السامية والمقام الاعلى حتى كانها هي نفسه وبها كيانه وهذه هي البديهيات الاولية التي تُردُّ اليها جميع النظريات وتنتهي الى حكومتها ساير الادلة والاّ فلا غناء بها ولا معوّل عليها

وفلسفة ذلك واقصى اثر سرّه واسبابه انّ الانسان كما يجد كل احد من ذاته ويحسُّ به من نفسه لايزال كما نبهناك عليه يدأب في حركة فكرية وتجولات نظرية في تعرُّف كل مجهول والاحاطة بكل موجود وتحصيل كل مفقود منها بعيد عنها كانها ترى انّ عدم دخول شيء في حيطتها وخروجه عن سيطرة ملكوتها نقصٌ في استكمالها

وضيقٌ في سعتها وهي مما لا ترضى بالنقص ولا ترغب الا في البسطة والكمال فعند كل نظرة الى كل شيء ينقدح لها السوءال ما هو ومن اين هو فيرجع لسان الفكرة منها عن الجواب وهو كليل ويرتدّ طرف النظر خاسئاً وهو حسير وحين تجد عوزها وفقدها لذلك الشيء وعدم وجدانها له ينبعث لها الشوق الاكيد الى طلبه وتحصيله فتردّده في معقولاتها وتقول هل هو كذا ام كذا شجر مثلا ام حجر وهذا التشكيك والترديد هو الذي يدفع الى الطلب والبحث فالحاجة والعوز يدفع الى السوءال والطلب — والطلب يدفع الى الشك — والشك يدفع الى البحث — والبحث ينتهي الى الحصول والوجدان او اليأس والسكون — نعم البحث المتواصل لابد وان ينتهي الى الطمأنينة اما بالوجدان للحقيقة او ما يحسبها هي او بالاقتناع عنها بالصوارف الى غيرها

ومهما كان فان النفس لا ترتاح بعد الطلب حتى تجدَ لجميعُ النظريات لا تقتنع بها النفس ولا ترتاح وتسكن اليها حتى تعود وتنتهي الى وجدانها وتصير حالا من احوالها وتنتظم في سلك غرايزها ومحصولاتها الاولية والاَّ فهي بعدُ في عناء التشكيك وتعب الطلب فالانتهاء الى الوجدانيات واتخاذها حقايق راهنة يُعوَّل عليها ويُرجع في كلّ العلوم اليها انما هو من نواميس الحكمة التي لا محيد ولا محيص عنها وهي من اوّل الأوايل وابده البدايه كما ان رفضها والغائها تعطيلٌ لكل العلوم وابطال لكافة النظريات وفوضوية على الباحثين لا تنتهى بهم الى غاية ولا تقف فيهم على حد الوجدانياتُ هي التي الفها الأنسان في اولّ عهده وسدكت به من مهده الى لحده هي التي عرفها قِبل ان يعرف كلّ شيء وبها توصل الى كل شيء عرفها قبل معرفة امّه وابيه واَحسّ بها قبل ان يندفع الى طلب ما يحفظ وجوده ويُغذّيه هي الاساس الذي وضعته العناية لبلوغ الانسان الى ما قُدّر له من الغاية والمُناكِرُ لها مكابر يجحدها بلسانه وهي قايمة بعيانه مسيطرة على كل اراداته وسلطانه لا ينفكّ عنها لحظه ولا يفارقها أوآنه وهي الحَكم على الانسان والقاضية عليه بالرّد والقبول ولا تعمل الادلةُ والبراهين هنا شيئاً بل تقف اَمام الوجدان وبين يديه خاضعةً له والمرجعُ في ذلك الى صميم الانسان وما يحسُّ به من نفسه ويتقاضى به في محكمة انصافه وعدله وصحّة نواياه في طلب الحق والا فميدانُ الجدل والجحود سهلٌ واسع يقتدر عليه كل ذي شفةٍ ولسان وقد اندفعت القرايح والطباع الى مضمون هذه الجملة على بساطتها ونظرت الى تحكيم قضاء الوجدان من وراء ستار في امثال قوله

وليس يصحّ في الاذهان شيء　　اذا احتاج النهار الى دليل

انت تجد الفرق بين مقام الاقتناع والاذعان النفسي وبين مقام الجدل القولي والجحود اللساني وما اكثر مايختلف ويتخلّف الظاهر عن الباطن والصورة عن الحقيقة فكم من شخص تعترف في نفسك بفضله وتقتدر او تفعل بدافع الحسد على جحوده ومناكرته وهضم حقوقه قل لي بابيك القريب (الانسان لاالقرد) لو ان احدا ادّعى انّ النار مظلمة وان الدخان مضيء باي شيء تدفعه خلاف الوجدان والبداهة والاّ فبماذا تمتاز السفسطة عن العلوم الحقة ولولا الوجدان لوقفت حركة العلوم وتلاشت ملكات البحث والنظر وما ذكرناه هو السرّ في ما شاع من ان البديهيات لا يستدلّ عليها وانها كاسبة لا مكتسبة وطالبها بالدليل يكون كمن يطلب الشمس بالشمع والرؤية بالسمع وبعد هذا كلّه فاعرف حال من ينكر الوجدانيات والفطريات وانظر مقامه من العلم والفلسفة واستعذ بالله

(٤) ان الدين اعني الخضوع لقوة مدبّرة للعالم ازلية مدركة حكيمة عادلة فضلا عن كونه من اول الفطريات واجلى الوجدانيات والبديهيات كما سيتّضح فانّه اعظم واكبر ناموس في حفظ نظام العالم وانفذ وازع ورادع للنفوس عن حرصها وجشعها الى حب التغلب والتفوق واستيفاء الحظوظ من الشهوات الحيوانية والقوي الغضبية والطمّ والرمّ والاستكثار من الحطام الجمّ ويستحيل بدون الدين قمع هذه الشرور وقلع هذه البذور من نفوس البشر عامة وخاصة الاّ برهبة الدين وتسليط سيطرته عليها اذ اعظم مصلح يقوم في العالم واكبر مدبّر ينهض لخدمة المجتمع البشري لا يكون لولا الدين الاّ اكبر اهوج خاير مضيّع لحقوق شهواته من غير فايدة تعود اليه ولا عائدة ترجع بالعوض عليه اذ ما الغاية في تحمّل ذلك العناء ورفض تلك اللذايذ والصبر على شظف العيش والرزوح تحت اغلال البلاء مع علمه بانه سيفنى ويذهب متلاشيا في عرصات العدم المحض والفناء المؤبدّ ولو انّ جميع العالم الى آخر الابد صلّوا وسلّموا عليه بكرة وعشيًّا وسبحّوا وقدّسوا بحمده غدوّا ورواحا لم يصل اليه ذرّة من النفع بكل ذلك وكان هو واستبداله بلعنه وذمه سواء فهل تحمّله تلك المشاق الاّ الحمق والخور وضعف الرأي وسوء التدبر وعدم النظر لنفسه — انت حاكم نفسك امام وجدانك فان صادقتني على هذه الجملة سرنا معاً في طلب الدين والاّ فعرّفني بما عندك وما تحصّل لديك من نتايج الفكر حتى اشطّب على هذه الكلمات ان وجدته حقاً وهيهات

ثم بعد فانّ الدين من ارأف المسلّين واشفق الواعظين وابلغ المعزّين لهذا الانسان البائس المحفوف ظماء حيوته بكل عناء وشقاء ومصيبة وبلاء مهما ساعدته العناية وتمهدت له الاسباب وتربّع على عرش الملك فضلا عن البايسين والمساكين الذين يرزحون تحت مجهدات الفقر والفاقة والبوءس والمسكنة قل لي بابيك الحساس (لا الكُيَيس الهلامي او المخاطي الحجري) اذا اصيب الانسان ملكا كان او سوقة بمصيبة افقدته احد اعزته اوفلذة كبده ومجسّمة روحه حتى تلظّى فواده نارا وطارت نفسه شعاعا ولم يُغنِ عنه ماله ولا رجاله ولقد كان لو يستطيع لافتداه بكل ذلك قل لي اذا احسّ بضعفه عند ذلك ووهنه وشعُر بضوءلة قواه وحوله وتقاصر تعاليه وطوله وعرف محطّ مركزه من هذ الكون المدهش والمفزع الهايل الذى تتعاوره في كل لحظة عوامل البقاء والفناء وقوّتا الدفع والجذب فهو يموت قليلا قليلا ويفنى رويدا رويدا ويمشي الى الفناء من حيث هو في البقا فهو (بالذي يغتذي يموت ويحيي اَقتلُ الداء للنفوس الدّواء)

قل لي ايّ ملك لا يأسف لماضي عمره ولا يبكي على فقد شبابه وريعان صباه ولا يهمّ لطول بقائه ويجزع لتذكر موته وكفى بهذا همّاً قاتلا ووجدا رسيسا وداء دخيلا يكدّر كل صفو ويذهب بكل زهو ويعكرُ كل غير بلْهَ ما يتوارد عليه من صروف الزمان وعثرات الليالي والايام ونكبات الدهر من غلبة اضعف الدول عليه او ثورة الرعايا وترصدهم له وتربّصهم فيه العزل او المنون الى مالا يحصى من امثال ذلك هذا حال الملوك فما ظنّك بالسوقة والرعايا وانّي لأرى من العبث توسيع نطاق هذه الجملة واطالة امراس البيان فيها وهل بعد المشاهدة والعيان من حاجة الى البيان كم رأيت انت وسمعت من رجال بلغوا من عظمة السلطان وسعة الملك ان سجدَ الناس امام ارآئكهم وعبدوهم دون خالقهم وطافوا يستدرّون اخلاف الارزاق باكفّ الضراعة والاملاق حول عروشهم قل لي ماذا كان مصيرهم والى غاية وصل صغيرهم وكبيرهم ألم يُدسّوا في حفاير الارض كما تدسُ الجيفُ والاقذار لم يُستنزلوا من مشرفات القصور الى مظلمات القبور وطاشت بهم اهواء الفخفخة والرفعة الخادعة

ثم اهوت بهم كما تهوي الزوابع بعاليات الشجر الى وهدة الحضيض فلا لجاءَ ولا وَزَر

اين عزُب حلمك عنك ياهذا واين طاحت بك الطوايح

وأما والحرمات والذمم لولا انّ العنايةَ لطُفَتْ بالعباد واَلهت افكارهم بالشواغل المادية عن التوغل والامعان في هذه الخواطر الراهنة لَتَرَكَ الناس عمارة الدنيا وسكنوا

في شُعف الجبال ومغارات الأرض ولَعجوا عجيج الوحوش في الفلوات او خفتوا خفوت النينان في قعر الغمرات ولانقطع النسل وبطل العمل وعادت الارض الى شكلها الاول ويا حبذا لو يكون (وانه لكائن)

قل لي اذا ابصَر الانسان هذا الخطر المحدوق به والبلاء المطلّ عليه وامعن الفكر في ذلك وذهب به كل مذهب فايُّ شيء يسكِّن لوعته ويبرّد غلته ويكُفّ من غرب جماحه وهيجان اشجانه وجزعه من كل الحيوة ولذايذها والدنيا ونعيمها تلك اللذايذ التي هي كالسمّ في الدسم وتخيل السمن في الورم تلك اللذايذ التي مامن واحدة منها الاّ وهي محفوفة بالآف من العناء والشقاء والكدر والبلاء كيف يهدء والحوادث والصروف كل آن تتهدده بكل خطر وكل رزية لا يعرف بايّ حجر يُرمى وبايّ عثرة يعثر وباي بقعة يموت ويقبر أُقسم بكل غموسٍ من الايمان المحرّجة انّ الانسان لولا سلوة الدين وحسن عزائه وطيب النفس بحسن الثقة به وان عاقبة الصبر الجميل جميله وانّ الاستسلام له داعية كل فضيله لكان جديرا بالانسان وحرياً به بل وحتما عليه ان ينتحر من ساعته ويقضي على حيوته من اوايل عمره فانَّ كل انسان لو عمل الاحصائيات المدققه وقاس ما يناله في هذه الدنيا من المتاعب والارزاء والمصايب والاخطار الماضية والمستقبلة الى ما يحظى به من النعيم واللذه والهناء والراحة لوجدها تيك الى هذه اضعافا مضاعفة الاعداد نسبة الملايين الى الاحاد واي عاقل يرضي لنفسه بهذه الخطة ويختار التواطي لهذه المنزلة التعيسه وما الم الموت الاَّ لحظة تمر عليه امثالها في بقاء الحيوة امّا بارقة الامل والرجاء فقد اوشكت ان تظهر خلابتها للعيون ويبدو جهام غيمها للنفوس وتنقشع غشاوتها عن الابصار

كم من حرقة في الصميم ابيت لها الليل مسهدا أتقلبُ لها على مثل جمر الغضى اوحسك السعدان حبستني على اشجاني وتركتني مشرّدا عن اعزتي واوطاني تتلاعب بي ايدي الحدثان لعب الصوالج بالاكر وتتدافعني ايدي الصروف الى مذاقة آجنات الموارد وتعرك اديم اصطباري بمخالب المزعجات كاشرة الانياب مسوّدة الجلباب على اني بفضل العناية اذا ارسلتُ رايد النظر في مطارح البشر وجدتُني في عافية من كثير ما ابتُلي به غيري واضطُهِدَ باَغلاله سواي من الفقر والفلاكة والضعة والهوانة والسقم والزمانة وكل ماتقشعرّ من تصوّره الابشار فضلا عن النظر الى منظره الهايل وموقعه المدهش قل لي فالى ايّ عمادٍ يستند وعلى اي سندٍ يعتمد باَيّ ركن يعتصم هذا المسكين البايس والى

ايّ ملاذ يلوذ ومن ايّ مساعديؤمل النجاة او اراحته من سوء هذه الحيوة كلاّ ليس امامه في التأسي الاّ التوسل بتلك القوة الازلية التي هي اخرجته من كتم العدم الى عرصة هذا الوجود وقضت عليه بما هو فيه من المحنة والشقاء نظراً الى الحكمة التي بها اقامت دعايم هذا الكون ولم تضع شيئا في غير محله ولا منعت حقا عن اهله ولا فعلت عبثا ولا ابتلت العباد جزافا بل كل ما في الكون انما هو لحكمة بالغة ومقصد عظيم واذا القى الانسان بنفسه بين ايدي هذه القوة معترفاً بها مذعناً لها عن صدق عزيمة وصحيح نيه لا محالة تثلج صدره واطمأنّت نفسه لتحققه ان تلك القوة الحاكمة عادلة غير ظالمة رحيمه غير قاسيه عالمة غير جاهله غنية غير مفتقره حتى تستوفي حظوظها بظلم غيرها فلا جرم ان يكون هذا العناء لما هو اعود عليها بالنفع واقرب منها الى الحكمه واجمل لها في العاقبه وهُناك الصبر والعزآء والدعة والهناء والاّ (فليتخذ نفقا في الارض او سلّما في السماء ثم لينظر هل يذهبن كيده ما يغيظ)

قل لي من يهبط روح السكينة على عزيز قوم ذَلَّ او غنيٍ افتقر اذا احتبى القرفصاء يفتكر في مثابته بعد فناء ثروته في كبد الظلام الحالك يتنفّس الصعداء وتصوب اجفانه بجمان الدموع — قل لي من يمسح بجناح الصبر والسلوان وينزل ملاك السكينه على فوءاد امٍ فقدت واحدها في ريعان شبابه وزهرة ايّامه وميعة صباه غير ايمانها بانه أصبح وديعةً لدى مبدعة الذى هو اشفق عليه منها وسيجمع بينه وبينها في اهنى من هــذه الدار واطيب من هذا العيش ألا وانّى ممن دهمته فجايع الدهر بمثل هذه الرزية في ريعان شبابي وميعة ايامي وبلغ بي الوجد حدّا كنت افتكر هل ارمي بنفسي من حالق او اقذف بها في مكان سحيق او انتظر حتى يقضي الحزن عليها فانه منها قريب ثم لم يكن غير ليالٍ حتى فزعتُ الى ديني واخذت بعروة يقيني وسلّمتُ الامر اليه ثقة به وتفويضا اليه

فهل بعد هذا كله الاّ ان نقول انّ الدين هو الراحة الكبرى والنعمة العظمى واعظم لوازم الانسانية واهمُّ ما يجب للطباع البشرية هل الاّ ان نقول انّ الاديان سياج العمران وحصن الحياة ومعقل الامم وانّ الحياة لا تطيب لاحدٍ الاّ به ولو قبض السموات بيمينه والارض بشماله لما اغناه ذلك عن الدين شيئا وان قبض على الدين فقد قبض على راحة الابد وسعادة النشأتين ولو كان في انياب الفقر وبين لهوات البلاء

هل من دافع النفوس الى مآزق الحروب ومضايق الحتوف ومتكاثف الصفوف

في سبيل الدفاع والجهاد لحفظ الكيان الا الاديان
فالى الدين الى الدين أيها الملوك والسلاطين والبؤسا والمساكين والى الانتحار الى الانتحار ياعبّاد السديم والبخار

(٥) انَّ من تلك الضروريات الاوليه والغرايز الطبيعيه التي وُجدت مع الانسان لحكمة وغايه وُجدت مع الانسان ليستدلّ ويعرف ويرقى ويستكمل انَّ من اعظمها لصوقاً بالعقل ورسوخا بالنفس انّ الصدفة والاتفاق واخواتها مضلة عمياء ومجهلة خرقاء وشيء مستحيل باطل الذات لو تصوّر كنهه وتغلغل النظر الى اقصى مغزاه ومعناه

انَّ الصدفة بمعنى ان يحصل الفعل من دون عناية الفاعل به وقصده اليه هو مساوق لكون الفعل بلا فاعل والاثر بلا مؤثر والحادث بلا مُحدث واستحالة هذه كاستحالة كون الواحد ضعف الاثنين والجزء اعظم من الكل فان معنى الفعل كونه اثر الفاعل ومعنى الاثر كونه نعت المؤثر ومعنى الاثنين كونهما تكرار الواحد مرتين وهكذا فالقول بانَّ الفعل قد حصل بلا فاعل مناقضة وإحاله — أساطيرُ احلام وسماديرُ اوهام كالقول بانَّ الشيء موجود معدوم مع تمام الجهات في الوحدة فالصدفةُ اذاً بهذا المعنى باطلة مستحيلة باوّل الفطريات والقرايح امَّا هي بمعني فعل الفاعل المقتدر شيئا على خلاف ما جرت به نواميس العادة وطباع الكون بحيث كان من المستحيل عادةً ثم عُني بايجاده كذلك لحكمة دعت اليه من اعجاز او عظة او انتقام او غيره فذلك ممكن واقع محسوس مشاهد ولكن ليس هو بالذي يذهب اليه عباد الطبيعه وحماة عرش الماده فحديث الصدفة اذاً ضلال والاتفاق بذلك المعنى ممتنع محال

انّ من المدهش الغريب والعجب الذي يهون عنده كل عجيب انك تجد كل احد لو دخل الى ايّ عمارة او دار او شاهد ايّ اثر من الآثار في هذا الكون لايشك انّ لذلك البناء بانٍ ولتلك العمارة عمّار ولذلك الزرع زارع ولهذه الصنايع صانع بحيث او قلت له ان هذه الدار وجدت من نفسها هكذا او اوجدتها الطبيعة واحدثتها المادة لاستوخم عقلك واستوبئ قولك وعدَّه من السخف والترهات فطرةً من نفسه وغريزة من ذاته لم يستفدها من معلِم ولا اكتسبها من مكتب او مدرسة اذا قلت له قد كوّنته الطبيعة يقول لك

وقالوا الطبيعة مبدى الكيان ويا ليت شعري ما هي الطبيعة
أقادرةٌ طبعت نفسها على ذاك ام ليس بالمستطيعة

ثمَّ يجيء اولئك الزعانفة المدَّعون مقاماً من العلم والفلسفة فيحكمون على كلية هذا العالم البديع الصنع الذي تخطف اشعته الابصار وتبهر حكمته العقولَ العالم الذي يحتوي على كائن صغير مثل الانسان وما اكبره — الذي ملأت فيه علماء التشريح القماطير وما جاؤا منه الاَّ بقليلٍ من كثير وما خفي عليهم بعدُ اعظم يحكمون على ذلك كلِّه بانه وُجد صدفه وما هي ياترى هذه الصدفة هل هي سوى تلك الكلمة الفارغة التي عرفت انها لا تقع الاَّ على معنى مستحيل باطل الحقيقة والذات — يحكم عليه بالصدفة التي لا يحكم بها على اقل موجودات هذا الكون من عمارة دار او غرس شجرة او نتيجة صناعه ثم قل لهولاء الذين يزعمون انّهم حلفاء العلم الناهجون على امثلته المدّعون انهم لا يسيرون الاَّ على مناره وانواره سلهم ايّ دليل لكم على هذا الحكم والزعم بان العالم قد وجد صدفه او لعلها كانت هوساتكم هذه كوجوداتكم بزعمكم «صدفة» وحياتكم كموتكم «صدفة» ودخولكم جهنم. انشاء الله «صدفة» وياحبذا لو خرستم «صدفة» وعميتم «صدفة» وكنتم تركتم الناس على مباديها الصحيحة واديانها الحقة «صدفة» ولا سبيل لكم الى دفع شيء من ذلك اذ العالم كله عندكم صدفة في صدفة — حقَّ للعلم ان يُرثي وللمعارف ان تُقام لها المآتم ويبكي عليها الباكون ان كان هذا سبيل العلم وتلك غاية المعرفة

انَّ اول من تنسب اليه هذه المقالة من الفلاسفة الاقدمين (ديوكريت) وفي لسان حكماء العرب (ذيمقراطيس) المولود قبل الميلاد باربعة قرون على انَّ صدر المتالهين في الاسفار لحسن ظنه بعامة الحكماء وتنزيههم عن مثل هذه السخافات والخرافات ومصادمة ضرورة العقول التي هي مباديهم وعليها ابتناء كافة علومهم قداوَّل كلامه واخرجه من ظلمة التعطيل الى اظلة التوحيد وجعله من اكبر الموحدين وعلى ايّ حال فلو كان العلم بالرجال لا بالبرهان والاستدلال لعددنا في قبالة هذا الاف الملايين من عيون الرجال واجلة الاكابر والمشاهير

(٦) ان من القواعد والمبادي المقررة في العقول ء الثابتة في النفوس التي هي من غرايزها الاولية وفطرتها الطبيعية وكفى بالامتحان والتجارب شاهد صدقٍ عليها الاَّ وهي ما قررته الحكماء من (ان معطي الشيء لا يكون فاقد الشيء كما انَّ فاقد الشيء لا يكون معطي الشيء) وهذه القاعدة من المسجلات في الكون واللزوميات التي ما انتقضت ولا تخلفت ابدا أفهل ترى انَّ فاقد التربية يكون مُربّيا والجاهل يُصبح

معلِما والبائس العادم لقيراط يبذل قنطارا كلاّ انّ هذه القاعده ما انتقضت ولن تنتقض ابدا الاّ في الطبيعة العمياء الخرساء الصماء العديمة لكلّ كمال الواجدة لكل نقص ولكنها مع كلّ فقرها هذا وعوزها من الادراك والشعور اوجدت مثل الدارونيين ذوي المدارك العاليه والوجدانات الصحيحه والفلسفة الباهره فللّه درّ الطبيعة ما اقدرها وابهرها واسخاها واكرمها تجود على غيرها بما لا تجود به على نفسها وتُوءتي الداروني عبدها مما ليس عندها (٧) ان الميزان في تميز البديهي عن النظري هو كون الحكم في القضيه نفس تصوّره وتصور طرفيه كافٍ في التصديق والجزم به من دون حاجة الى توسيط دليل وبرهان او ردّه الى شيء آخر وذلك ككون الواحد نصف الاثنين فان تصور معنى الواحد والاثنين كافٍ في الحكم بكون هذا نصف ذاك مع تصور معنى النصف ولا حاجة الى الاستدلال على هذه الجمله بل لادليل عليها سوى نفسها وهكذا سائر البديهات الأُولى كمثل كون الجزء اعظم من الكل وان النار مضيئة والشمس مشرقه والانسان حساس مدرك والشجر جسم نامي وما اشبه هذا اماّ النظري فما لايكون كذلك مثل ان النفس من المجردات وان المجردات يستحيل عليها الفناء وبطلان الذات وانّ واجب الوجود كليّ منحصر في فرد ويستحيل عليه الاثنينية والتعدد الى كثير من امثالها مماتشاجرت فيه ذووالالباب وقام النزاع فيه بينهم على ساق (٨) ان شبهة التسلسل وهو ان كل لاحق معلول لسابقه الى غير النهايه فكل معلول علة وكل علّة معلول قد دُحضت ودُحرت منذ عهد بعيد بحيث لم يبق فيها مجال لخيال حتى ان متفلسفة هذه العصور الاخيره من الدارونيه او اخوان القرود ذهبوا من الخزعبلات كل مذهب سوى انهم عافوا الالمام بهذه السفسطه وتباعدوا عن الاقتحام في عمياء هذه المغلطه لشدة اتضاح حالها من الفساد وان طلبت المزيد على ذلك من الاشارة الى موجز الدليل على دحضها فناهيك بالبرهان الاسدّ الاخصر وزبدة مخضه ان سلسلة العلل والمعلولات لو تسلسلت ولم يكن فيها واجب بالذات هو علة غير معلول للزم ان لا يوجد شيء فان العقل ينظر نظرا واحدا الى جميع تلك السلسلة على عدم تناهيها ويحكم بان الجميع اما ان تكون ممكنة بالذات جميعا اوفيها واجب على تلك الصفة من العلية وعدم المعلولية وعلى الاول يلزم ان لا يوجد شيء منها لان الممكن من مقتضى طباعه انه لا يوجد من ذاته ولا يترجح من قبل نفسه بل لابدّ له من مرجح خارج عن تلك السلسله اعني سلسلة الممكنات وحيث لا مرجح خارج لتساوي الجميع بالامكان فلا شيء

منها بموجود وهو باطل بالحس والضروره وعلى الثاني فهو العلة وكل السلسلة معلولة له واوضح منه بطلان احتمال الدور فان المعدوم لا يؤثر في نفسه ولا في غيره وسياتي لهذا كله زيادة توضيح فيما يلي ان شاء الله ثم حيث توطدت هذه المبادي وتمهدت هذه المقدمات فقد انثلت عروش الالحاد وتهاوت على اهلها صروح الزندقه وتداعت اركان دعاة التعطيل لو كان لها من اركان ونحن ابانةً للحق واماتةً للباطل واصراراً على تجلّي الحقيقة ووضوح شاكلة الصواب نبتني على تلك الأسس الرصينه والدّعايم المحكمه التي شهدت بها ضرورة العقول واوايل الغرايز وجذع القرايح فضلا عن قوارحها نبتني عليها ما يلقي الله علينا ويفتح لنا من ابواب الدليل والبرهان على هذا الموضوع ونقول انّ دايرة الخلاف بيننا وبين المعطله تستدير على محور واحد كما سبق وهو ان مبدء العالم ومصدره هل هو قوة جسمانية عمياء صمّاء خرقاء لا ادراك لها ولاشعور منغمسةٌ في الظلمة عديمة النور امهي قوةٌ عقلانيه ء روحيّةٌ مجرّدة ء ازليّةٌ قديمه ء عالمةحكيمه ء نورانيّة صمدانيّه ء مقدّسة عن كل شيء من التغيّر والتبدّل ء والحلول والتحول واجدة لكل صفة من صفات الكمال موجدة ايّاه في غيرها (ذلكم الله لا اله الاّ هو رب العالمين) امّا لو افترضنا تلك القوه كما يقولون عديمة الشعور فيستحيل ان تكون هي التي كوّنت هذه الكاينات الجارية على ابدع النواميس واتقن الحكمه لما عرفت من ان الفاقد لا يكون مُعطيا — وصانع السرير ما لم تحصل صورته في ذهنه يستحيل ان يوجده وكأنّ هذه النظرية الفطريه مرتكزة في النفوس ارتكازا لم يدع لها فسحة في الخروج بتاتاً وجهارا فلذلك تجد الماديين لما جعلوا التكوين مستنداً لتلك الماده وهي على ذلك الحال من العوز والفاقه جعلوا يتطلبون المخرج من هذا الحرج والمضيق فصاروا يتشبثون بالخزعبلات والاوهام فتارة يقولون انّ تكوين هذه العوالم من تلك المادة العمياء انّما كان بالصدفة والاتفاق لا بالقصد والاختيار والشعور والادراك ولكني لا ازيدك بيانا على ماسبق في امر الصدفة وبيان مكانها من الفساد والبطلان وحيث تجلى فساد هذه المضله لآخرين تملّصوا عنها وحسبوا انهم بلغوا المقام السامي من الفلسفة والعلم وقالوا انّ ارتقاء الكون الى الحد الذي هو عليه الآن انما هو بالانتخاب الطبيعي او بقاء الاصلح او تفاعل العناصر وتركبها على الانحاء المخصوصه وماشبه ذلك من الالفاظ الفارغه عن كل معنى محصّل ء صريح او مأوّل ء خبط عشواء في غارة شعواء ليت شعري الا

سايل يسألهم ما هو الانتخاب الطبيعي ومن هو ومن اين جاء ومم تكوّن ومن كوّنه وهل المنتَخِب هو تلك القوة المجرّدة الروحيَّه التي نذهب اليها فيا حبذا الوفاق او تلك المادة العمياء فقد خُرتم ايّ خوار وعدتم الى ما كنتم عليه ودرتم دور الحمار في الطاحونه يسري في نهاره طول زمانه وهو لم يخرج من دايرة مكانه سلهم ايُّهم بذلك زعيم سلهم من المنتخب لذلك الانتخاب الطبيعي اهي نفس الطبيعة العمياء انتخبت نفسها وعملت في ذاتها واصلحت مواليدها وخرقت في ذلك نواميس القواعد البديهية من انَّ الشيء الواحد البسيط لا يكون فاعلا ومنفعلا ولا موءثرا ومتأثرا نعم المركب قد يوءثر بعضه في بعض كالانسان على ان الفاعل والقابل فيه وفي ساير المركبات شيئان كما لا يخفى ثم كيف اصلحت وهي غير صالحه واوجدت وهي غير واجده وهذَّبت وهي غير مهذَّبه وانتخبت وهي المُنتَخبه — سلهم — ولا احسبك تجد سوى السكوت جواباً منهم او اعادة نفس المدَّعى وترديد تلك الالفاظ — الانتخاب الطبيعي — بقاء الاصلح — قوة الجذب والدفع وهلمّ جرا على هذا المجرى من الجعجعة التافهه والعبارات الفارغه — لا اقول انَّها فارغة بتاتا ء خالية تماما ء ولكن الانتخاب الطبيعي · او بقاء الاصلح · او تفاعل العناصر · اوكلما هو من سبيل الطبيعيات · كلُّ ذلك حقًّا كان ام باطلا · صحيحاً في واقعه ام فاسدا · على كل الفروض والاحوال · لا ربط له ولا علاقه · ولا مسيس ولا دخاله · في ان تلك المادة لا موجد لها · ولا موءثر فيها · وان ذلك الانتخاب الذي لو كنَّا نحس به ونراه · والنشو والارتقاء الذي لو سُلِّم في كل الكواين سيره ومجراه · لم يكن فيه دلالة على اَن ليس له مُنتَخِب · ولا وراءه مدبر سوى نفسه ولا ان المادة هي المدّبِره · وهي المنتخِبة في مواليدها والموثرة · كل تلك الامور الطبيعيه بمعزل عن تعيين هذه الجهات الالهيه — الطبيعي يبحث عن خواص المادة وآثارها وتراكيبها · الطبيعي يبحث عما بعد الطبيعه وبعد تحقق وجودها لا عن ما قبل الطبيعه وما قبل وجودها وعمَّن اوجدها والغرض ان مباحث الطبيعيَّات لا ربط لها ابدا بالالهيات ولكن هذا الخلط ادّى الى ذلك الخبط · وهذا الغلط · انتج ذلك الشطط ·

يقول الماديون ازليان متلازمان القوة والماده فلا مادة بلا قوه ولا قوة بلا ماده فكأيِّن من قايل لهم ان اردتم بالازليّ ما لا اوَّل لوجوده وما لم يسبق بالعدم والذي لم يقف العلم والتاريخ والفحص والطلب على بدايته واول حدوثه فذاك شيء ربما لا ندافعكم عنه ولا نعارضكم فيه فانه لا يصدم ما نحن بصدده من اثبات تلك

القوة المجرده التي هي مصدر كل قوَّة ومنبع كل افاضه ومن يدَّعيه لا يدَّعي اكثر من ان العقل يحكم بما لديه من المبادي الموطده والمقدَّمات الممهده انَّ لها اوَّلا وان كان غير محدود ولا معدود لا نحدُّه بالزمان والاعوام ولا نعدُّه بالليالي والايام كيف والزمان متأخر عنه بمراتب وان اردتم بالازليه الوجوب الذاتي وعدم المعلوليه فهذا هو الخلاف الجوهري فيما بيننا وعليه فنسألكم هل القوة بذاتها وفعلها غنية عن المادة والمادة كذلك غنية عن القوة ام كلٌّ محتاج الى قرينه متوقف الوجود والتاثير على اقترانه بشقيقه فان كان كلٌّ مستغنياً عن الاخر فما بال القوة لم تُوجَد ابدا منفصلة عن الماده منفكة عن الافتقار والحاجه ما بالها لاتوجِد من سنخها قوة مجرده ولا تؤثر اثرا منفردا منفكاً عن الطبيعه كما يقوله الالٰهيون المتمسكون بالمجردات عن الماديات التي هي من فيض تلك القوة التي يدينون بها ويألهونْ اليها ويرون (وحقاً ما يرون) انَّ جميع العوالم عوالم الغيب والشهاده كلُّها رشحة من رشحاتها ونفحة من نفحاتها ولمحة من قبساتها وان كان الحال على العكس من ذلك بان كان كلٌّ من الماده والقوة محتاجا في وجوده وتاثيره الى الآخر منوطا به مفتقرا اليه فهما لا محالة ممكنان اذ كل محتاج ممكن وكلُّ ممكن محتاج في حدوث وجوده وبقائه الى علة كاحتياجه اليها في ربطه بمثله وتركيبه مع غيره وتلك العله امَّا هي نفس الماده والقوه لولا ان المعدوم لا يؤثر شيئا لا في نفسه ولا في غيره فكيف يؤثر في ايجاد ذاته فلا محالة علتهما سواهما لا انفسهما والكلام في تلك العله جارٍ بمثل ما ذكرناه فيهما فاما ان ينتهي الامر الى قوة مجرده قائمة بنفسها غنية بذاتها قيُّومة على كل شيء وعند ذا يسكن الجاش وتطمأن النفس ويرتاح العقل من عناء السؤال وتعب الطلب — اولا — وعليه فيبقى السؤال متسلسلا والطلب متتابعا والعقل حيرانا مدلَّها — او يضغط الماديون عليه ويأخذون منه بالمخنق قايلين له اقتنع بالماده وتعبَّد بهذه الغايه واخضع لهذه الآلهه طوعا او كرها فانها هي التي جعلتك انسانا وسوَّتك رجلا — لا ياهؤلاء كل شيء يمكن الضغط عليه ولا يتعذر خنقه الاَّ العقول فان هذا الهيكل الانساني اذا تعلقت به تلك الذبالة الالهيه استحال اغواؤه بالباطل واقناعه بالتمويهات دون الحقيقه وانَّما استغوت شياطينكم البسطاء وضعفاء العقول ممن لم تكمل بعدُ فيه تلك الغريزه ولا تحيزت الى كمال الاستقلال به تلك النحيزه فاختطفتهم اوهامكم وعلقت بهم حبايلكم فارديتموهم كما تردَّيتم واسقطتموهم الى حيث سقطتم — فواحسرةً على العباد الذين اغويتموهم

بل واحسرةً عليكم ايها الماديون والداروئيُّون ياحسرة على شريف نسب اضعتموه ورفيع اصل وضعتموه فجعلتم بينكم وبين القردة نسبا · وا لّفتم بين الكلاب والشمپانزي واخوتها وبينكم رِحما · اواصر قربى ووشايج ارحام · مع اخسِ الوحوش واسفل الهوام · اَخسِأ بها من نفوس سافله واخس فيها من همم ساقطه اسفتْ ان لا تشارك البهايم في انتكاس رؤوسها ومحدودية عقولها ونفوسها فالحقت آباءها بتلك السلايل وتقربت اليها باخسّ الوسايل نعم وما هي لولا الاشكال والصور منها ببعيد

جنِّب يا هذا ريشة يراعك النقيَّه عن هــذه الاوحال ونزِّه اطلس طرسك الاغر عن هاتيك المقاذير فليست العناية مصروفة الى تصفية ذلك التعكير ولا الرغبة مسوقة الى ابانة الكدر فيها من التميز وانما الغرض الوحيد هنا هو اثبات تلك القوة المقدَّسة عن لوثة الماده وتراكيب الطبيعه وخسة النقص والحــاجه وسِفلة الخلق والامكان انَّ تلك البرهنة التي تقدَّمت من كَثب آخذة من الحقيقة بكل سبب ونسب تلك وان كانت محكمة الاصول وطيدة المباني سامقة المعاني مدرَّعة بكل منعة وحصانه عن كل نقض وخلل لكن ربما لا تروق للطبيعي فلايصغي لها اذنا ولا يفتح اليها من البصيرة (لوكانت له) عينا وذلك لابتنائها على بعض مصطلحات الفلسفة الالهيه وهو يعدُّ ويفترض الآلهيات وجميع مصطلحاتها اوهاماً في اوهام على ان ليس في برهنتنا تلك ممَّا يُظن انه من ذلك القبيل سوى لفظي الممكن والواجب وهي حقايق راهنه ومفاهيم عامه ومعاني في ذاتها متأصلة لا علاقة لها باصطلاح قوم دون قوم ولا تبتني على تواضع طايفة دون طايفه بل هي كالالفاظ التي تدل على ساير الحقايق — ومداليل الواجب والممكن المقصودة في الاقيسه والبراهين هي معانيها الذاتيه الجليه لدى كل متصور ولا سيا بعد ادنى بيانٍ اذهي بمكان من البساطه والتباعد عن الغموض والتقعير بيد انّنا تجافياً عن تلك المزعمه وحذراً من التشبث بهــذه التعلة الواهيه نسدّد له برهنة لا تبتني على شيء من ذلك وندمغه بحجة لو ان الثقلين (لا قدَّر الله) اصبحوا ماديين ودراونه وتألّبوا بالمظاهرة والمعاونه على ان يلتمسوا له حــلا او يهدموا منه اصلا او يسدُّوا له بابا او يجدوا عنده آخر الامر سوى السكوت جوابا لضاقوا فكرا وقصروا يدا ولوجدوا التعلق بجبــال الشمس اقرب اليهم امــدا · برهنةً تجسم لك الحقيقة حتى كانك تمسُّها بكفك وترمقهــا بطرفك وتتجلّى لك من ست جهــاتك وعشر حواسك على انها من البساطة والسهولة بحيث ينالها من آمم — الاميُّ فضلا

عن الامام والعامي فضلا عن العالم — انالا اريدان اتمسك باذيال (الاسبرتزم) والتشبث باسلاك اوهام (انبوترم) (والمانيترم) وسواءكانت هذه المزاعم حقيقة اووهما باطلا ام حقا فانّ الامر اجلى من ان يستدل عليه بهذه الملتويات المعقده والظلمات المشتبهه والحقيقة اجلُّ من ان يستدل عليها بالباطل او الامور المجهولة الحقيقه (أَوَلَم يكف بربّك انه على كل شيء شهيد) ولكني اقول ياذا المبدأ ويا اخا اليقين وياصاحب الدين — اذا قذفتك اعاصير الدهر وزوابــع الحدثان باحد اولئك الطغمة من صُور البشر والجُفاء من اشكال الانام لا واستغفر الله بل احد اخوان الخنــازير وابناء القردة والشمبازي (كما يزعمون هم عن انفسهم) وامتهنتك الصروف والمحن بالخصام معه وتسجيل الحجة عليه في صحة مبدئك فسله سوأ لا لا تجد انت ولا هو ابسط منه وقل له يا هذا اتفرّق بين الوجود والعدم وتميز بين الموجود والمعدوم ام لا ميزة بينهما عندك ولامغايرة فيهما لديك فان قال نعم الفرق جليٌّ بينهما والتغــاير بديهيٌّ فيهــما وكيف يغيب على الانسان ما لا يغيب عن اخسّ الحيوانات بتمام انواعها واصنافهــا — فقل له — هذه الاشياء الكونيه التي تمسها يدك وتبصرها عينك من قريب وبعيد وحادث وتليد وكلما تحس به عينا او ذهنا هل هي موجودة او معدومه — لا محالة هي موجوده — فهل هي نفس حقيقة الوجود وعين ذاته او حقايق مختلفــة الذوات والوجودُ امرٌ وراء حقيقتها وهو وصف طارٍ عليها مشترك بينها — لا محالة انها ليست نفس حقيقة الوجود والاّ لكان جميع الموجودات حقيقــة واحده ذات اثر واحــد وخواص متفقه وهو خلاف المحسوس بالضروره فهي اذاً سوى حقيقة الوجود ولكنها متصفة به ثابتة بثبوته وهو في نفس ذاته زايد عليهــا عارض لها — وعليه فمــن اين عرضت لها هذه الصفه ومن ذا الذي افاض عليها تلك الصبغه — مَن ذا اوجدها تيك الحقايق — اهي انفسها اوجدت انفسها فيكون المعدوم قد اوجد نفسه حين لا حظّ له من الوجود ام المــادة اوجدتها والسوءآل بعينه جارٍ فيها اهي نفس الوجود ام شيء موجود والثــاني هو الجواب لا محاله — اذاً فهل من سبيل بعد هــذا السبر والاستقراء والجولان العقلي والحركة الفكريه الاّ الى الخضوع والاذعان بانّ هناك قوة فعّاله وراء الماده وجميع الماديات —وتلك القوّة هي روحية محضه لا اقتران لهــا بالماده ولا بغيرها من اي شيء يفترض اعني انها وجود صرف لا تركيب فيها ابدا حتى لا يبقى مجال سوءآل عند العقل عن سبب التركيب والانضمام فيه مع غيره ولا

يفترض فيه انفكاك عن الوجود حتى يقال من اوجدها اذ بعد ان كان هو نفس حقيقة الوجود لم يعقل انفكاكه عن نفسه حتى يتطلب العقل الوصول الى موجده والوقوف على علته وايجاد الموجود ممتنع فكيف بايجاد ذات الوجود — وهذا البرهان بعد الاعتراف بان هذه الكاينات حقايق موجوده بسيط جدا اما لو قال المماحك اني لا افرق حتى ولا بين الوجود والعدم ولا الموجود والمعدوم فان كان ممن لا يعنيك امره ولاسبيل لك عليه فدعه ورأيه واتركه وشأنه وقل كلمتك وامش وابذل له ماعندك وامض وان كنت معنياً بامره قيما بتربيته موءاخذا بفساده مدفوعا الى صلاحه فابسط كفك عند قوله لا افرق بين الوجود والمعدوم واضرب بها جلدة وجهه ضربة منكره فاذا امتعض وامتقع فقل له ما عراك وما دهاك وهل وجود الضربة وعدمها عندك الآ سواء — اضربه ولا تبالي واصفعه ولا تمالي اجلده ولا تأخذك به رأفة في دين الله — اضربه وانا الضمين لك انها ستكون هي الضربة القاضية على أُمّ جهله وخانقة عقله وسُوس وسوسته هي الضربة القاضية على سفسطته التي لا يفرّق بها بين الموجود والمعدوم فيسدّ على نفسه باب كل علم وسبيل كل معرفه اذ النظريات كلها كما علمت لابدّ وان تنتهي الى البديهيات واجلى البدايه واولها واولاها بالرسوخ والاعتماد هي تلك الجليَّه بل هي اول حجر وضعته العناية للانسان في اساس علومه ومعارفه وابتناء نظرياته قال بعض اكابر الآلهيين في آخر كلام له عقده لبيان الفرق بين الحق والباطل وشرح معانيهما ماهو ذا — واحق الاقاويل ما كان صدقه دايما واحق من ذلك ما كان صدقه اوليًّا واول الاقاويل الحقة الاوليَّه الذي انكاره مبنى كل سفسطه هو القول بانه لا واسطة بين الايجاب والسلب فأنه اليه ينتهي جميع الاقاويل عند التحليل وانكاره انكار لجميع المقدمات والنتايج ثم ذكر كلاماً للشيخ الرئيس عن السوفسطائيه والازراء عليهم وكيف ينبغي ان يكون الحوار معهم قال في آخره فأن اعترفوا بانّهم شاكون او منكرون او انهم يعلمون شيئا معيَّناً من الاشياء فقد اعترفوا بعلم ما وحقّ ما وان قالوا انا لا نفهم شيئا ابدا ولا نفهم انّا لا نفهم ونشك في جميع الاشياء حتى في وجودنا وعدمنا ونشك حتى في شكنا ايضا وننكر جميع الاشياء حتى انكارنا لها ايضا ولعلّ هذا ممَّا يتلفظ به لسانهم معاندين فسقط الاحتجاج معهم ولا يرجى استرشادهم وليس علاجهم الاّ ان يكلفوا بدخول النار اذ النار واللانار واحد ويضربوا فان الالم واللاالم واحد انتهى

نصّه والغرض ان اساسية التمييز بين الوجود والعدم هي اول الاوايل واساس النظريات واجلى البديهيات وبها يتوصل الى ما يشاء من الغايات وما تشاء له العنايه وقد عرفت كيف التوصل بها الى قطع السنة الماديين وافحامهم وازاحة بلية تشكيكاتهم واوهامهم

وبعد هذا كله فمن تجده اقوم حجه واعدل محجه واسدّ برهانا واشدّ اركانا وادنى من الحق وابعد عن الافك والباطل ومن تراه اولى بان يُنحى عليه باللايمه ويقال له

اي داء اصاب عقلك يامسـ ـكين حتى رُميتَ بالوسواس

الملحدُ حيث يقوله للموحِد ام الموحد حيث يعكس عليه قوله ويقول له

ايّ خبل اصاب عقلك ياما فون حتى وقعت بالالحاد

ولكني مزيدا في الاستظهار وتاكيداً للحجة والبرهان استطرد القول هنا في امور عسى ان تكون معينة على جلاء الحقيقه وايضاح ما قدّمناه من الصواب للالبّاء وذوي الافكار النافذه والقرايح القويمة ان شاء الله

﴿ الأول ﴾ ان اليقين بوجود قوة مجردة عن المادة هي مبدء الكل واليها ينتهي الكل وهي (الآله) مساوق ومقترن اشد الاقتران لليقين بوجود جوهر مجرَّد في الانسان سوى اعضائه الجسديه ودقايقه الماديه وهي (النفس و (الروح) وهاتان العقيدتان الجوهريتان اللتان هما الاساس والينبوع لكل شرف وسعاده والوازعان عن كل شرّ وشقاء متلازمان اقوى التلازم مرتبطان باوثق عرى الربط والماديون المعطّلون لمّا جحدوا الصانع وانكروه وغمطوا الحق وكفروه اضطرّوا (ولا جرم) الى انكار النفس والروح وان يكون في الانسان شيء سوى هذا الهيكل المحسوس والبنية المشاهده زاعمين (ضلّت مزاعمهم) ان ما يصدر من الانسان من الحركات الفكريه والتجولات النظريه وساير الاحساسات ليس هو الا من وظايف المادة ومقتضيات هذا المزاج والتركيب فهو في ذلك كاصناف النبات وانواع الحيوانات او لعلّه على نواميس الارتقاء قد صار اكمل منها فليس في الوجود حسب فلسفتهم سوى المادة والقوة — والقوة مضطرّة على العمل بلا اختيار والعالم ازليّ متحرك بالطبع وفيه مبدء حركة ذاتية تنشأ هذه الصوادر والمظاهر عنها والآله (معاذالله) والنفس والروح كلها على آرائهم صور خياليه لا حقيقة لها بل اخترعتها المتخيله اضطرارا كساير الموهومات فعبدتها الناس واتخذتها آلهه ولكنها بتقدم العلم سوف تزول شيئا فشيئاً هذه فلسفتهم وذاك علمهم (عفاً على العلم والفلسفه) ان كان هذا سبيلها وتلك نتايجها

والغرض ان الاعتقاد بالروح المجرده متاخم ومتآخٍ مع الاعتقاد بالآله نفيا واثباتا وسلبا وايجابا والله جلت عظمته انبأ عن ذلك في صادع وحيه ومعجز فرقانه حيث حكى عن اهل الفسوق والخطايا ومجترحي السيئات بقوله (نسوا الله فانساهم انفسهم) والماديون بهذا النسق ولذلك السبب جحدوا الله فجحدوا انفسهم وعن طرد هذه الجمله انبأ خاتم النبوه في جوامع كلمه حيث يقول صلوات الله عليه (من عرف نفسه عرف ربه) (اعرف نفسك يا انسان تعرف ربّك) والاعتراف بوجود مجرد حادث — بالضرورة يضطرّ الى الاذعان بوجود مجرد قديم والبرهنة عليه جليّه ولكن الشأن كله في وضع المقدم اعني ثبوت النفس المجرده ومن هنا سلك جمع من الالهيين الى اثبات القوة المدبره للعالم المجرده عن الماده من طريق اثبات الروح والنفس ونهض خلف لهم في هذه العصور حاول اثبات المجردات الروحيه على سبيل الالزام من طريق (المايتيزم) و(الابنوتزم) التنويم المغناطي و(الاسبرتزم) استحضار الارواح ونظاير ذلك والفلاسفة الآلهيون قديما وحديثا كلٌّ سلك الى اثبات الواجب الصانع مسلكا وكل طايفة نهجت له طريقا واخذت اليه سبيلا وكل هاتيك الطرق وان اختلفت مشاربها ومشارعها ولكنها تؤدي الى غاية واحده وتنتهي الى منهل واحد وان اختلفت في القرب والبعد والظهور والخفاء ولكن لكلٍ وجهة صحيحه وطريقة موصله (والطرق الى الخالق بعدد انفاس الخلايق) فبعض سلك من الطبيعيات وبعضٌ من الرياضيَّات وآخرون من اثبات المجرّدات وطايفة من سبيل الحركة والمتحركات وهلمَّ جرا وليس تعدُّد هذه الطرق والمسالك الا لشدَّة جلاء الامر ووضوحه بحيث من ايّ طريق سلكت وصلت اليه ومن اين ما تدليت وقعت عليه وفي كل موجود سبيل اليه ودليل عليه (وفي كل شيء له آيه) بل القول الذي ما عليه من مزيد ء انه اقرب الى المرء من حبل الوريد ء امَّا طريقتنا التي تقدّمت في اثبات الواجب جل شانه فهي سوى تلك الطرق كلها فانا نرى ان الواجب بهرت عظمته · اجلّ واجلى من ان يستدل عليه بشيء من مصنوعاته · واعزّ وامنع من ان يطلب من سوى ذاته (يامن دلَّ على ذاته بذاته) (بك عرفتك وانت دللتني عليك) ونرى انه جلَّ شانه اجلى من كل حقيقه وهو اقرب في الايصال الى نفسة المقدسه من كل طريقه وانَّه انمَّا خفي لشدة ظهوره

وانمَّا عميت عنه العيون لعجزهـا عن مقاومة ساطع نوره(١) ولذلك سلكنا اليه من طريق الحكمة المتعاليه والفلسفة الساميه وهي طريقة الوجود التي هي من امتن الطرق واسهلها واسلِّها لوسوسة الالحاد وسفسطة الزنادقه وتشكيكاتهم في اجلى الحقايق امَّا البحث عن الروح المجردة الجزئيه واثبات النفس فقد ارجأنا الخوض فيه على تخوم ما ينبغي له الى آخر اجزاء هذه الدعوه اعني جزء المعاد وجعلنا البحث في النفس اصلا برأسه لا واسطة الى غيره وسنسجل بعونه تعالى هنالك ان النفس هي التي تُدرَك وتُعلم قبل كل شيء بل وهي المدرك والمحسوس بالحواس اوَّلاً وآخراً وان المادة التي يقولون انها هي المشاهدة المحسوسه لاتحسُّ ولا تدرَك ابدا وانَّ المُدرِك والمُدرَك حتى فيما هو المحسوس بالحواس الظاهره من الالوان والطعوم والاشكال والاصوات وغيرها ما هو الا النفس كما رمز الى ذلك اساطين الحكمه وكبراء العلم والمعرفه والواصلون الى مراتب النهايات البشريه وقلَّ من اهتدى الى هذا الرمز او تعمق في غوره وسنشير اليه في مواضع من دعوتنا هذه ولعلك يكبر في نفسك هذا القول وتعظُمُ عندك هذه الدعوى وحقاً لك ذلك وانت تحسب انك لا تسمع ولا ترى حفافيك وحواليك سوى الماده وزاد على ذلك ان الماديين قد اشربوا ذهنك ان لا وجود لغيرها وانَّ كل شيء خلافها فهو وهمٌ باطل ولكن امهلني رويداً ريثما نبلغ الى المعاد بيني وبينك من مباحث المعاد ان شاء الله فعسى يتطامن هناك تعاظمك ويسلس جماحك وتلين شدَّتك فانتظر ذلك وما ثقتي واعتمادي الا على مَن منه مبدئي واليه معادي

﴿الثاني﴾ ان تلك الطينة السوداء والعوبة شياطين الاهواء التي سفهت احلامها وخسرت عقولها وانكرت صانعها قد عرفت ان مزاعمها تلك — هوسات خاليه ووساوس فارغه ما تفيأت ظلَّ حجه ولا اوت الى شبح برهان وما سلكت مسلكا علميًّا حتى يهون على اهل العلم الجولان معهم في رهان البحث ومجالدة الجدال سوى انهم باهتوا تلك الحقايق الجلية الراهنه بدعاوي ظنيه وخيالات وهميه يريدون ان يقتلعوا بها اهرام تلك الاسس التي يزول الابد ولا تزول ويبيد الدهر ولا تبيد

(١) يقال ان جماعة من الاسماك اجتمعت في البحر وذهبت الى كبيرها وقالت له اننا نسمع من بعض كبارنا ان في الكون شيئا يسمى بالماء وانه شيء عظيم تتوقف عليه حياتنا ونهلك بدونه وقد جئناك نطلب منك ان تعرفنا وترينا ما هو واين هو فقال لهم كبير السمك اروني شيئا غير الماء حتى اريكم الماء فاني لا ارى في محيطنا سواه وحيث لا ضد له ولا ندّ فكيف اعرفكم به هذا مثل السمك فتدبره عسى ان ينفعك اذا شاء الله

وهيهات صدع الصبح فحمة الدجى وهتكت الشمس استار الظلام وكلما ضربنا الفكر في مزخرفات اقوالهم ومخرفة آرائهم لم نجد فيها ما يمكن ان يلصق به اسم الدليل والحجة اومايوسم به سمة الاقناع والخطابه بل وبالاحرى ليس فيها ما يمكن ان يعوّل عليه العقل اويكون على الاقل سبب حيرة له اوموضع صغو اليه كلاً بل جاؤونا بالقحة والصلف وصلابة الوجه وبذائة اللسان يحسب الملحد (شميّل) واخوانه انه اذا نمقّ الفاظه وزخرف اقواله وسوّد صفحات قراطيسه او وجهه بسب الآلهه والاستهزاء بها حتى جرح القلوب وخدش العواطف واهاج لوعة ملايين من البشر يحسب انه عند ذلك قد صار فيلسوفا وعُدّ حكيما وان مجاهرته تلك بتنديد عامة الاديان والهزء بها ما هي الاّ شجاعة ادبية منه وهكذا يحسب جراميزه وجراميقه الذين اعشتهم زبرجة عباراته وقادهم حب الشهوات الى اتباعه حيث حبّذلهم اتباع الشهوات وطَرَح نير الدين عن أعناقهم فصاروا يرونه ممن يجاهر برأيه ويحسبون تلك فضيلة ويعدّونه شجاعاً ادبياً ويسمونه (معاذالله) حكيمافيلسوفا (عميت عين الادب وسال ماوءها ان كان هذاهو الادب) (وغارت ينابيع الحكمة ان كانت تلك هي الحكمة والفلسفة) والغرض ان ليس في زخرف تلك الاباطيل مايستحق ان يطلق عليه اسم الحجة او الدليل حتى نصرف اليه العناية اونستوقف عليه البحث والنظر نعم انّ عويصة وقوع الشرور في العالم قد ينقدح منها شرر الشك في انفس الضعفاء والقاصرين من الموحدين او يفزع الى التشبث في الاستناد اليها بعض الملحدين فيتوهّم واهم او يزعم زاعم انّ تلك الشرور تنبىء عن عدم مدّبر حكيم للعالم وان الامر في الكون على فوضى الطبيعه وصُدَف الماده فان من يسبر احوال الامم الغابره والحاضره بل من يرنو اليهم بموق عينه يجدهم بصفة دائمة ينصبُّ عليهم من مارج المصايب والنكبات والمظالم والتعديات والشرور والآثام وسفك الدماء وهتك الاعراض لاجل طفيف من الغايات والاغراض مايوّد الانسان من هول تلك المناظر الفظيعه والتصورات الهايله اَن ليت العالم لا كان ولم يكن· فايُّ عناية في هذا العالم الذي كلّما توّسع اهلوه في ما يسمُّونه (بالمدنيَّه) ازدادوا في العِداء والهمجيه حتى على النفوس البرية من ابناء جنسهم وبالجمله فشرور هذا الكون وشقاوُءه وما فيه اهلوه من البلاء الواقع منهم عليهم فضلا عمّا ينزل بهم من غيرهم من الاوجاع والاسقام والمحن والفقر وضروب الرزايا كل ذلك ممّا يبعث الحيرة ويقضي بالعجب ويكاد المتفكر في هذه العويصة المظلمه ان يخرج من اهابه ويستيقن ان الامر على حال من الفوضى وعدم التدبير

لا يمكن ان تصفها يراعة البليغ ولا آلة التصوير فان كان الآله الذي يدين به الملايين من الملبين يعلم ويرى ما فيه العالم من ذلك الهرج والمرج وما ارتطم عليه من الشرور والبليّات فاما ان يكون غير قادر على دفعها فهو كما لو كان غير عالم بها ايس بآله واماً ان يكون عالما قادرا على ازاحتها واراحة العالم منها ومع ذلك لا يفعل فهو ظالم (معاذ الله) او بخيل والظالم والبخيل لا يصلحان لادنى ولاية فضلا عن الربوبية فلو كانت الالوهية والوحدانية والعنايه والعلم والقدره والجود حقايق راهنه ونواميس ثابتة لما وقع شيء من الشرور ولصار العالم وسار على ابدع نسق ونظام وحيث كان الحال على ضدّ ذلك فبالحري ان يكون من صنع تلك المادة الخرقاء واثر الطبيعة الحمقاء الخرساء الصماء التي لا عقل ولا نور ولا احساس ولا شعور — وهذا اقصى ما في الوسع من الاحتجاج عن الملحدين وتصوير ما لعلّه يختلج في ضمايرهم او تبوح به السنتهم او اقلامهم على الجملة او التفصيل ونحن بعون تلك العناية التي ندين بها ونفزع في كل نازلة اليها نمزق غيوم ذلك الوهم المتراكم حتى تتجلى شمس الحقيقة ناصعة من ورائه واليك البيان — ذُكر عن اشهر الفلاسفة الاقدمين واقدم مشاهيرهم ان ما في العالم من حيث الخير والشر لا يخلو بحسب القسمة الحاصرة العقليّة من خمس صور اما ان يكون خيراً محضاً او شرا محضا او غالب الخيريه او غالب الشريه او متساوي الطرفين — و يشهد السبر والاستقراء انّ ما في العالم اثنان من تلك الخمس اما الخير المحض او غالب الخيريه وليس فيه واحد من الثلاثة الباقيه ابدا هذا ما نقل عن ذلك الفيلسوف الالهي ولكنها جملة لم تخرج بعد عن دايرة الدعوى المجرده ولم يدعمها السند والبرهان ولا اوضحها الشرح والبيان وهي في اشد الحاجة الى ذلك وعليه فنقول انّ جميع ما مرت الاشارة اليه من الشرور التي تقع في العالم سواء كانت من جرايم البشر او استندت الى علة مجهوله واسباب خفيه لاتعدو ان تكون واحدة من ثلاث وببيان اجلى ان الاستقراء الصحيح والحصر العقلي يجعل الشرور كلها ضمن ثلاث دواير نبحث عن كل واحدة لنرى كيف نسبتها من العنايه واين محلها من الحكمه وهل اخلّ التدبير الالهي بصالحها ام لا (الدايرة الاولى) الشرور الامكانيه والنقايص الذاتيه اعني بها اللازمة لطبيعة الممكن من حيث امكانه ونقص كيانه وهي التي يقتضيها تناهي الكاينات والممكنات ومحدوديتها بمعنى ان لازم ذات الممكن ان يكون محدود العلم محدود القدرة متناهي العجز متلاشي القوة فلا يعلم بكل

شيء ولا يقدر على كل شيء ولا يملك ايَّ شيء وسواء كان تسمية مثل هذه بالشر حقيقيا او مجازيا فهو ممَّا لا مدخاية للعناية به اذ هوناشئ من قِبل ذات الممكن لا من صنع العنايه كما ان ليس في سعتها ازالته وقلبه بان تجعل مكان الجهل الذاتي علما ذاتيا وقدرة ذاتية وحياة ازلية وهلم جرا اي تجعل الممكن واجبا والحادث قديما وهذا من قلب الحقايق وتحوير الذوات وهو من اول المستحيلات وليس هذا من نقص في قدرته (معاذ الله) اوجهل في علمه او بخل في جوده بل لاستحالة ذات الشيء وتناقضه فانه يلزم ان يكون الانسان مثلا انسانا ولا انسان معا في ظرف واحد— اذاً فالقصور من القابل لا من الفاعل نعم الذي يلزم في العنايه ان تمنحه الاستعداد للعلم والقدرة والبقاء والخلود والسعاده وقد تكرمت بذلك له على منتهى حدوده وآخر تخومه وصيَّرته في حالة كافية للبلوغ الى درجة الكمال ومرتبة السعاده دون ان تعوقها تلك الشرور الذاتيه عن ذلك الفيض وتلك المنح فالعناية المقدسه ما اخلَّت بوظيفتها في هذه الدايره بوجه من الوجوه بل دبَّرت فوفَّرت وجادت فزادت والاعتراض بمثل هذه الشرور ساقط بتاتا (الدايرة الثانيه) الشرور الطبيعيه وهي امّا ما ينشأ من اقتضاء الطبيعه ومزاجات العناصر وتراكيب الاصول واستبدالها عما يتحلل منها واستكمالها في نواميس نشوها ونموها ومن هنا تعرض طايفة من الشرور كالعلل والامراض والضعف والنحول والمزمنات من الآفات والعاهات على شتى انواعها واصنافها واختلاف مواضعها ومحالها وتعدُّد اسبابها وعللها وامّا ما ينشأ من كاينات الطبيعة وايجاد انواعها وافرادها كايجاد الحيوانات المفترسه من سباع الطير والبهايم والحشرات المسمَّمه كالحيات والعقارب وكايجاد الآلات المزهقه للنفوس المبيدة للارواح او كخلق النيران المحرقه والمياه المغرقه والزوابع الممزّقه وما اشبه ذلك مما لا يحصيه الحصر ولا يستوفيه العدّ ولكنها قد تحسب بانفسها شرا اوربما يترتب عليها شيء من الشر اما ايجاد مثل هذه الكاينات فبالحريّ ان تعدَّ خيراً محضا لانفسها واحسانا خالصاً في حق ذواتها وقد قيل (وما اصدقه من قول) «لو كان السمُّ شراً بنفسه لَقتَل العقرب قبل كل شيء ولو كان السلاح شرا بذاته لقتل حامله قبل كل احد» بل هو خير للنوع ايضا كما هو خير لخصوص ذاته اذ ما اكثر ما يترتب على تلك الكاينات من الخواص والمنافع اللازمه في صالح النوع البشري ولولاها لم يكمل النظام ولا سدَّدت مواضع الحاجه ولا تّسع الخرق وفشى الخلل فحقًّا هي خير بالذات

وشرّها بالعرض فان حدوث الشر منهـا ناشئ من سوء استعمالهـا ووضعها في غير مواضعها التي وضعتها العنايه فيها والى هذا رمز الحكماء حيث قالوا (الوجود خير محض) والشرور اعدام فالعنايه ما اخلّت بالحكمة اللازمه حيث اوجدت تلك الكواين نظراً لخيرها في انفسها وضرورة النوع اليها في صالح حاجياتها لا في فاسد شهواتها فالخير من العنايه والشرّ من البشر ومنشأ الشر هنا هو منشأ الشر في مقتضيات الطبيعه من حدوث الاوجاع والاسقام والعاهات والزمانات وساير النقايص الماديه والخساير البدنيه فان العناية الازليه وضعت لهذا الهيكل المؤلف من العناصر المختلفه والطبايع المتباينه نواميس ومناهج لو سار عليها ربّانيّ ذلك الهيكل ولم يتعدّ به حدودها لحفظ بنيته واستبقى جامعته ورابطته الى اجلها المحدود وعمرها الطبيعي ولكن الجهـل والجشع وغلبة الشهوات وضعف الارادات وسيئات العادات هي التي جرّت الويلات والبليّات على البشر وليست الجناية فيه من العنـايه بل من سوء ما كسبت ايديهم فهل لو بحثت عن ايّ سقم واية عاهة اكنت تجدُ علة تلك العله وابعـد اسبابهـا او اقربها سوى افراط في مطعم اومنكح او جهد متاعب فوق الطاقه بدافع الحرص والتفاني على التوفر من الحطام ولو ملك الانسان من نفسه ان لايسير في جميع تلك السبل الاّ على خطّ الاعتدال والاستقامه التي وضعها واضع هـذه البُنى وباني هذه الهياكل لعاش المرء رافلا بمجلّلات الصحة حافلا بمهنئآت النعيم والراحه — اتراك تجهل ما يجرّه ويجنيه الابوان على اولادهم من اوّل حرث بذورهم الى منتهى تربيتهم — اتجهل ما يصيب النُطف من العاهات من عمىً او اقعـاد او خرس او صمم او غير ذلك وكلها من سوء ادارة الآباء فيما يجب مراعـاته من عدم الافراط في الشهوات واستعمال الحرث ووضع البذر على النواميس الشريفه والطقوس المقدسه التي وضعتها الشرايع الالهيه والعناية الكليه والنطاسيون من اطبـاء العقول والنفوس والاخلاق والابدان — على ان في تلك المصايب والاسقام والعاهات والرزايا من المنافع النوعيه والمصالح العامه ما لا يغيب عن اوايل العقول وكفى بتلك واعظا وزاجرا وعـبرة وانذارا وان قلّ المزدجر والمعتبر ولكن حقيق بها ان تُلين قسوة الانسان وتخفف شدّته وتدفعه عن غلوائه في اهوائه وتكون له ابلغ عظة ومدّكر اما الاعتراض بالموت وافتراضه شرّا بل من اعظم الشرور والسوءآل بانه لمـا ذا لم يبق الانسان مخلّدا في الدنيا فهو كالاعتراض بانه لما ذا لم تبق الاجنّة في ارحام امّهاتها و كان اقرّ لها واهنى

فلأيّ شيء أُخرجت الى الدنيا وهي دار العناء افليس المكث في المشيمه خيرا من هذه الحياة الذميمه تدبّره جيدا فانه رمز لطيف وسر شريف — وبمثل هـذا الذي قلناه في البحث عن اسباب هذه الشرور يتضح القول في (الدائرة الثـالثه) وهي الشرور الادبيه وهذه هي الطامة الكبرى والبلية العظمى في النوع البشري وعليه ومنه واليه وهل يجـد الباحث المنقب واللبيب المتدبر منشأ لهذه الشرور سوى اطـلاق النفوس وتسريحها في مراعي شهواتها وعدم اعتقالها بشكيمة العقل وانقيادها بقادة الشرايع وجماحها عن السير على سنن الآداب المقدسه واتباع القاده وهل الاّ خروجها عن جادة الصراط المستقيم الذي وضعته العناية الالهيه لتكميلها وتربيتها وحفظ شرف جوهرها وما الغاية والغرض الوحيـد من وضع الاديان ونواميس الشرايع وبعثة الاطبـاء الروحانيين وصحف الوحي سوى معالجة هذه النفوس وحفظ صحتها والسير بها على الاعتدال والاستقامة حتى يصير هذا الكاين الحيّ انساناً بحقيقة الانسانيه وبالاحرى ليس الغرض سوى قلع جراثيم الفساد وابادة جذور الشرور من الارض. وخلاصة القول هنا ان العناية الحكيمة لمّا شاءت بدافع الجود والسخاء الذاتي ان تمنح هذا الخلق الانساني اشرف جوهر يمكن فيه ويستعدّ له وهو حرية الاراده وجوهر الاختيـار فجعل في كيان طباعه ولازم ذاته غريزة مبدأين مبدأ ميل الى الخير بجوهر عقله وآخر الى الشر بجوهر نفسه وطبيعته والتجـاذب بين هذين المبدأين على صفة دايمه حتى يمتلك احدهما الآخر ويكون مسخّراً له فيتمحّض للخير او للشر او يتردّى ما بينهما ولو انّ العناية جعلت الانسان مجبورا على الخير ليس الاّ لكانت دفعته عن التمتع باشرف نعم الوجود وَ لَباءَ من ذلك الى شرّ مباءه فلم يبق له استحقاق محمدة على احسان ولا مذمّة على اسائه ولتساوت الافراد مع اختلافها في الاستعداد فلا يمتاز الخبيث من الطيّب ولا الجيّد من الرديّ وهـذا بخس في الكيل ونقص في الموازنه وابطال للحكمه وتطفيف في ميزان العدل فالعناية ما صنعت في ذلك الاّ جميلا وما فعلت الاّ خيرا وانما الشر من سوء اختيار البشر. تمثيل ذلك ان تمكين اليـد من القبض على السيف ووضع القوة فيها على الضرب متى شاء ذو اليد — ما هو الاّ خير واحسان من العناية اليه ولكن اختيار الانسان ان يستعمل هذه القوة في قتل النفس البريّه وازهاق النفحة الالهية من هذه الهياكل المحترمه بما انها صنع الله هو الشر والفساد في الارض غير انه لا يمسّ شرف العنايه ولا هو من صنعها ابدا وانما كلّ الوزر فيه على سوء اختيـار الانسان

واستعماله النعمة في الكفران والصالح في الفاسد ووضعه الشيء في غير موضعه وهكذا حال ساير القوى المودعة فيه فان جعل اللسان بحيث يقتدر على النطق والحركه متى توجهت الاراده وتكهربت اسلاك العروق بسيَّال المشيه هو من اعظم النعم ومِنح الخير للانسان ولكن تحريكه بالسباب والبذاءه والالحاد والافساد والصدّ عن سبل الهدى الى مجاهل الضلال هذا هو الشر الناشي من سوء الاختيار وخبث الجوهر (ليميز الله الخبيث من الطيّب) والسوءآل بان العناية لما ذا خلقت الخبيث ولم تجعل كل نوع البشر من الطيب ما هو الا كالسوءآل بانه لماذا خلقت الشوك ولم تجعل الكل ورداً ولما ذا خلقت الملح ولم تجعله سكرا ولما ذا خلقت الصبر ولم تجعله عسلا وتجد جواب هذا على غاية ما يمكن من الشرح في مباحث الجبر والاختيار والقضاء والقدر من آخر هذا الجزء فراجع اذا شئت

ثم انَّ العنايه جلَّ تقديسها بعد ان منحت الانسان تلك النعمة العظمى وذلك الجوهر المقدّس الا وهو حرية الاختيار لم تهمله وشانه وتتركه ونفسه فيتردى بجهله وسوء اختياره في مهاوي الهلكه الموءبده ويكون منحه الاختيار مع جهله كدفع السلاح الى الطفل مع اهماله كلاَّ بل لم تزل عين المراقبة تحوطه وترصده وعواطف الاشفاق والحنان تسعده على سلوك سبل الخير والنجاة وترفده فبعثت الرسل اليه ونشرت الكتب بين يديه وسنَّت له القوانين وشرعت له الشرايع واستظهرت بالاعذار والانذار والوعد والوعيد والجنة والنار كل ذلك تعديلا واستدراكا لتلك المنحة الجوهريه واخذاً به الى جانب الخير وابعادا له عن هاوية الشر ولكن باختياره ليكون ذلك اسمى له واسنى وابقي لاستحقاقه مراتب الكرامه وسامات المجد والشرف دون ما اذا اُجبر على الخير فانه عند ذلك كالحجر في قبضة صاحبه اين ماشاء وضعه موضع سوء او احسان وكيفما وضعه فالحمد والذم له لا للحجر ولكن قُتل الانسان ما اكفره واشدَّه كل تُلك العنايات والالطاف والتدابير الباهره لم تنجع فيه ولم تعمل الا في اقلِّه وبالرغم على كل تلك المسعفات الجاذبه الى مناحي السعاده ابى الاَّ الميل مع الهوى الى مهاوي الشقاء — لطفت العنايه بالانسان واشفقت عليه اشفاق الام على جنينها وحافظت عليه محافظة اليد على عيونها فما حرَّمت عليه شيئا لصالحه الاَّ وجعلت له مندوحة في غيره خلوا من ضرره فما حرَّمت الزنا حتى رَغَّبت في النكاح وما حرمت الربا والسرقه حتى احلت البيع والتجاره وما حظرت الخمر حتى اباحت اُلوفاً من المشروبات الطيّبة مع سلامة العقل وإرفاد النشاط والقوه

ولكن اذا امعنت النظر وضربت الفكرة في الاسباب والعلل وجدت من اقوى الدوافع والبواعث الى ارتكاب تلك الجرائم ونشر هاتيك الشرور وسير النفوس البشريه على خطةٍ من الشقاء هي ضدٌّ العناية الآلهيه — اقوى الاسباب والبواعث ان لم اقل انّها السبب الوحيد هي الروح الخبيثة التي بثّها الماديون والملحدون في العالم من ابعد عهوده والى اليوم · تنبعث العناية الى رحمة العباد فترسل ابراهيم وموسى وعيسى ومحمد فتتجسد تلك الارواح المطهره وتتنازل هاتيك الانوار المقدسه وتتهالك على اصلاح البشر وسنّ النواميس الشريفه فيهم وتلاقي الالاقي وكل طاحنة القرى والفقار في سبيل ذلك وريثما تدبُّ نسمة الصلاح في العالم او اوشكت · يقوم مثل (مزدك) و(ماني) و(فول الشميشاطي) و(ابيقور) و(ديوجنيس) الكلبي وامثالهم الى عصورنا هذه التي قذفت فيها طبيعة الالحاد رجيعاً من هضمها الرابع فظهر افراد بل اوغاد من الغربيين ومقلدتهم صاروا يعيدون مخرفات اولئك الاقدمين من المفسدين في الارض وكل اولئك وهؤلاء من حاضر وغابر يضربون على وتر واحد وهو نشر الاباحة العامه والاشتراكية المطلقه وبالاخص محو كل فضيله وحثّ الناس على كل رذيله وابطال عامة الشرايع والاديان ولمّا انتشر بين البشر ميكروب هذه الكروب وسرت في البلاد عدوى هذا الهواء الاصفر تسمّمت العقايد بهذا السمّ الناقع وازهقت هذه الروح الخبيثة تلك الروح الطاهره (الدين) فبعض جاهر بالالحاد والزندقه وهو الكثير او الاكثر وآخرون اعتنقوها من وراء ستارٍ شفّت عنه خطتُهم الخاطئه ونبذهم نواميس الدين وراءهم ظهريًّا والغرض انّ بمساعي الدارونيين والماديين والعاكفين على انقاض ضلالتهم ضعفت ثقة الناس عامه (الاّ من شاء الله) بالاديان عامه وطرحوا نيرها من اعناقهم واستأمنوا مواقف العدل الالهي ومقاوم الجزاء والقصاص والعقاب والحساب واطلقوا انفسهم من تلك القيود وخرجوا من هاتيك الحبوس فهرعوا يركبون رؤوسهم الى شهواتهم يسحق بعضهم على بعض ويفترس قوم آخرين · القويُّ يحطم الضعيف · والضعيف يقضم الاضعف وخدُّ الارض اذ ذاك محمرٌّ خجلا من دم الابرياء واشلاء الضعفاء يحمرُّ تارة من دم اعراضٍ تُهتك واخرى من دم نفوس بغير حقٍ تُسفك وبالحري ان يستكثروا من ذلك اذ لا دار سوى هذه الدار (بزعم اولئك) ولا غاية لذةٍ وراء لذاتها ثمّ لارادّ ولا رادع ولا وزَر ولا وازع اذا قال الدينيُّ للانسان خفِّف من غلوائك

زاد المؤلف هذه التتمه بعد طبع الملزمة الآتيه فلذلك وضعنا نمرة هذه الملزمه بالحروف كي لايختل الترتيب

واذكر موقفك يوم جزائك قال له الداروني هذا حديث خرافه واقاصيص سخافه لاتقف بنفسك عن غايه ولاتردّها عن شهوه فانّك ابن الطبيعه وعبدها فاعمل بماتوحيه اليك فانّ (الطبيعةمقدسه) — وانت جد خبير بما عليه الانسان من غريزة حبّ الذات والميل الى الشر والشهوات وانه حيوان قبلماهوانسان وبهيم هامل قبل ماهوعاقل كامل فلا جرم ان يزفن فرحا ويطير طربا باقوال الماديين و(شميّل) واخوانه نابذاً وراءه نصايح قاطبة الانبياء والكتب الالهيه والحكماء والفلاسفه وجماهير المصلحين في العالم اذ الشهوة تبعث الشوق والشوق يبعث الحب (والحبُّ يعمي ويصم) الحبُّ يعمي ويصم ويدفع الى الشهوة بنفسه فكيف مع المرّغب والمساعد والمُوءّمِن والمُطمّن — هذه هي بواعث النفوس البشريه الى الشرور الادبيه بل والماديه — ايّها السايل — لا العناية الالهيه كما سردتُ في سوالك وقررته عنك في اشكالك بل لعلك الى هنا قد احطت خُبرا باسباب كلية الشرور في العالم بحسب دوايرها الثلاث التي لا يخرج عن حيطتها شر من الشرور وهي الامكانيه والماديه والادبيه واصبت بما قدمناه لك من الشرح الذي لا اظنّك تعثر على مثله في غير هذه الصفحات من هذه الدعوه — نعم عساك اصبت من ذلك البيان رمز ما اوعزت اليه الحكماء من الفلاسفه والواصلون من ارباب المعارف في قولهم (ان جميع مافي العالم خير بالذات وان ترتّب على بعضه شرٌّ بالعرض) وما اشرنا اليه اول البحث من قولهم (لا يوجد في الكون الاّ الخير المحض او غالب الخيريه) وخلاصة كل ذلك فيما اقول ان الموجودات كلها خير من جهتها الربوبيه ء وان كان بعضها شراً من جهتها البشريه ء اذاً فاين الخلل واين الجنايه ء من الالطاف المقدسه والعنايه ء واختمُ لك هذه المباحث بكلمة واحده هي من مواد العلوم الالهيه وينابيعها ءوهي ان اثر كل شي ء لايكون الاّ من سنخه ء والله سبحانه نورٌ كله ءووجود كله ء وجود وخير كله ءوالخير لا يصدر ابدا منه الا الخير ء والعدم شرٌ كلُّه ءومنه نشأت الشرور ءوالخلقُ والامر كله لله حتى ان الخير والشر ايضا من الله ءولكن بمعنىً لا يخفى عليك اذا شاء الله ء فتدبر رعاك الله واستعذ بالله من اضاليل الماديين والملحدين فانهم الشر ء ومنهم وعليهم يعود الشر والله سبحانه يتولانا واياك ايها الناظر الكريم بعنايته المنيعه التي لا ترام ولا تضام ء انشاء الله ء

﴿الثالث﴾ من الامور التي جعلناها نافلة وتعقيبا واستظهارا ومزيدا لما سجلناه من الدليل والبرهان على تلك الحقيقة الجلية الغنية بذاتها عن كل حجة — وكلُّ دليل

عليها فهو دونها في الجلاء والوضوح والانارة والسطوع (سبحانك ايكون لغيرك من الوضوح ما ليس لك حتى يكون هو المظهر لك متى غبتَ حتى تحتاج الى دليل يدل عليك ومتى بَعُدتَ حتى تكون الآثار هي التي توصل اليك عميت عين لاتراك ولاتزال عليها رقيبا وخسرت صفقة عبد لم تجعل له من حبك نصيبا) (١)

وهو المنهج الذي سلكناه من الاستدلال به عليه والتوصل منه اليه ، والامرُ الذي نحاول التعريج عليه في سيرنا هذا هو البحث عن اصل الاديان كما بحث الطبيعيون عن اصل الانسان ولكن هل اذا ارتقى الباحث في معارج بحثه وتجوّل في مناهج العلم والتاريخ يصل الى غاية وفاق يقف عندها وينتهي اليها ، نعم ومهما استعصت هذه النظريه واقتمت ارجاؤها وانسدَّت مسالكها ولكن لا اظنُّ المنصف يجدني مجافيا للحق او مجانفا لو قلت انَّ اوّل معبود عُبد في الارض هو (الله) بل ما عُبد في الارض سوى الله . والانسان وان كان لا يعبد على الاغلب الاَّ هواه ولكن ليس وِجهتُنا الى ذلك وانما الكلام فيما يتخذه الانسان شعارا ويعتمده تعبدا ودينا ويتسمّى به وينزع اليه لاما هو العامل الاقوى في عامة شؤونه وما هو المركز الجوهري لفلك حركته وسكونه . يسعني ان اقول ان المعبود اوّلا وآخرا هو الله ولو حاولت تسجيل هذه الدعوى من كلمات فلاسفة التاريخ ونوابغ الحكمة من اليونانيين وغيرهم لعلّي كنت اسدُّ على الخصم ان ينبس بحركة شفه نعم لمّا كان الانسان مادياً قبل كونه مجردا وجسمانياً قبل كونه روحانيا ابى له هذا الكيان المادي الاَّ ان يستنزل الحقايق المعقوله من ذروة تجردها الى حضيض التمثيل والتجسيم ولا سيما بعد ان رأى نفسه مضطرًّا الى الاذعان بها مع عجزه عن اكتناهها وتحصيل جواهر معانيها فلا جرم تدرَّج الى اقامة الاشباح والهياكل ونصب الصور والتماثيل لِيرى من تلك الحقيقة شبحا بعينه ويلتمس مثالا لها في مظاهره ويمس شيئا منها بملامسه بيد انك لو تدبرت احوال كل هاتيك الامم على اختلافها وتنوعاتها في معبوداتها الوثنيه لم تجد فيها مَن تناهي الجهل به الى افتراض تلك الهياكل الماديه والصور الحيوانيه او الجماديه هي ذات الآلهه التي تأله اليها النفوس وتضطر الى الاذعان بها العقول وتنقاد قسرا الى عرفانها والاعتراف بها الفِطر لا تجد من يزعم ان تلك الاوثان والتماثيل التي يصنعونها ثم

(١) هذه الفقرات من دعاء لريحانة رسول الله سيد الشهداء واول من سنّ شريعة الاباء الامام ابي عبد الله الحسين سلام الله عليه رواه السيد ابن طاوس في الاقبال وغيره من العلماء

يعكفون عليها هي الصانعة المدبره والخالقة الموجدة والعلة الاولى والازلية القديمه وانما اتخذتها البشر واسطه . وجعلتها وسيله . ونصبتها مظاهر وتماثيل تتطلّب بها الزلفى وتلتمس منهـا الشفاعه وتستدرّ بها انواء المفـازة وانوار الرحمه وحظوظ القربى والكرامه (ما نعبدهم الاّ ليقربونا زلفى) والغرض انّ الوثنيين والثنويـين والبراهمه والصـابئه والمجوس والبوذه وكل عبدة المظاهر المحسوسه والمدهشات الكونيه ما عبدت سوى الله ولا قصدتْ الا اليه ولاحنتْ وولهت الى غيره ولكن تاهت في سبيله وعشت في طريقه وما ضلت فيه ولكن فيما يقرِّبها اليه ويستدنيهـا منه (ولئن سألتهم من خلق السموات والارض ليقولُنَّ الله) وقد تجلى هذا الشأن وانكشف الستار عن هـذا السرّ فاصابه جماعة من فلاسفة العصور الاخيره وكتّابهم الباحثين ولو انفسح لنا المقام لاكثرنا من نقل كلماتهم في ذلك ولكن حسبك ما ذكره الفيلسوف (ماكس مولر) الاميركي الـذي استبحر في البحث عن اصل الاديان في كتـاب سمّاه (اصل الدين وارتقاؤه) سجّل من نصوص الهند القديمه التي هي ابعد الديانات عصرا واقدمهـا عهدا واولها في العالم تاريخا ان الانسان ما عبد غير الصانع الحق على صفته التي لاتحدّ ولا تكتنه واماًّ ما عبده البشر من الاوثان والاصنام والكاينات الطبيعيه من حيوان او شجر اونجم او غير ذلك فانما هي من منشآت خياله تقاضى ايجادها وايجاد الخضوع لها حبُّ الانسـان لمشاهدة كل ما يشعر به في نفسه ويهجس به في ضميره قال : انّ هذه الآلهة المجسمة ليست الا تمثيلا طرء على الانسان بعد تلك الفكرة الطبيعية وبناء على هذا فقد ركع آباؤنا وسجدوا امام الله الحـق حتى قبل ان يجسروا على الاشارة اليه باسمه) نعم وان هـذا الفكر الحصيف والرأي المرير لاجلى من ان يحتـاج الى توسعة في النقل واستعراض للشواهـد وكان من الحريّ بادي الرأي ان نستثني الماديين والمعطلين من تلك الكلمة العموميه وهي قولنا (ما عَبد احدٌ سوى الاحـد ولا جحد الخالق مخلوق ابدا) ولكنّا لانرتاب في اطرادها وعدم انثلامها حتى في تلك الشرذمه فانهم على اليقين يهجسون بها في ضمايرهم ويجدونها قبل كل شيء في وجدانهم ويحسُّون على الفطرة كغيرهم انّ لهم صانعا حكيما وموجدا مدبّرا ولكن نزوعا الى الشهوات واندفاعا الى الحرية المطلقه والاباحة العامه والتخلي عن كل قيد انكروه بعد عرفانهم وجحدوه وهو مِلء وجدانهم . وكان من عظيم العنايه وواسع الحكمه وجود مثل اولئك النوابغ في الالحاد وجراثيم الفساد وسفلة العبـاد فهم من الشر

القليل الذي يترتّب عليه خير كثير · واي خير اكثر من ان تتجلى باحتكاكهم اشعة الدين وترسخ اصوله في نفوس المعتقدين وتظهر أدلته وبراهينه على صفحات الصحف كما ظهرت واستنارت على صفحات الكون · قيّضت العنايه ان يقوم في كل عصر شذاذ من دعّارة البشر ودعاة الشر وحملة عرش الضلال والباطل فتنابذ تلك الحقيقة الراهنه وتسعى جهدها في تشويش النظام وافساد العقايد واختلاس الصحة الدينيه من النفوس المستقيمه بالقاء الشكوك والاوهام وتبديل الاستقامة الفطريه بالاعوجاج والانحراف عن لاحب المحجه وواضح الحجّه ولكن ابت نواميس العنايه الاّ ان تجري على مجاريها وتسير على مناهجها (فلا يصح الاّ الصحيح) ولا يحق الا الحق (ولا يحيق المكر السّيء الاّ باهله) (امّا الزبد فيذهب جفاء وامّا ما ينفع الناس فيمكث في الارض) فاصبحت تلك الحقيقه لا تزداد بمنابذة المناوين والجاحدين لها الاّ تجلياً ووضوحا واستنارةً وسطوعا فهم منها كالفراش يُلقي نفسه على النار ليطفئها فيحترق بها ويزيدها اشتعالا · ما ينبس نابس منهم ببنت شفة من الزيغ والالحاد الاّ وتهيج العواطف وتثور الافكار وتجول الاقلام وتنتشر الصحف وتمور الارض مورا بالكتبة من اهل الاديان وفلاسفة الموحدين من مسلمين ومسيحيين ولا تعتم تلك الحقيقه على اثر ذلك ان تعود من الظهور بحيث تكاد بعد ان تُحسّ تَمسّ وغبّ ما تُهجس تُلمس ويرجع فيها الامر حتى للسذّج والبسطاء قريب المنال بارزا من التعقل والخيال الى شبه المعاينة والمشاهده على ذا ما مضى من العصور الغابره والايام الخاليه وعليه تمضي الازمنة الحاضره والتاليه (سنة الله في الكون ولن تجد لسنة الله تبديلا) وقصار اي من هذا الامر اني لا اريد ان اجعل احد الادلة والبراهين اجماع امم العالم على التمسك بالدين والاعتراف بتلك الحقيقه المدبره مهما اتّسع نطاقه وتباعدت اطرافه وكان له وجه صحة وقبول — كما لا اريد ان استدل بالاكثريه والغلبه التي لا مجال لها ولا للاجماع في المعقولات · لا اريد ان اتمسك بكلمات الانبياء والرسل وقادة الشرايع من صحف ابراهيم وتوراة موسى وانجيل عيسى وفرقان محمد ولا ببراهين الفلاسفه وحكماء الهند والفرس واليونان والرومان والعرب كهرمس وفيثاغورس وسقراط وافلاط وارسطو وكونفوشيوس اول موحّد العنايه في الصين وبيدبا وبزرجمهر وحنظله وخالدوقس وكثير من امثال هؤلاء من نوابغ الامم ورجال العلم والحكمه واساطين الفلسفه ومشاهير الدهور ومهبط وحي الفضل والمعارف الذين افنوا طويل اعمارهم وسحابة ليلهم ونهارهم في نصرة تلك الحقيقه

حتى استشهد بعضهم في سبيلها وبذل جوهرة حياته احياء لها ولو قصرنا النظر على امة واحدة من الامم من اليونان او غيرهم واردنا نقل كلمات حكمائهم في اثبات هذا الموضوع اعني وجود الصانع الحكيم والبرهنة عليه لما وفى اوسع عمر طبيعي بذلك فما ظنك باحصاء جميعهم — حتى ان (ديمو كريت) ذيمقراطيس الذي وهم الكثير من كبار الكتّاب في عصورنا الاخيره كالفيلسوف جمال الدين وغيره — انه في مقدمة الماديين والملحدين وواضع اوّل حجر لأساسهم قد اشرنا لك انه من اكابر الموّحدين وفطاحل الآلهيين وقد اشبع القول في ذلك صدر المتألهين . راجع مبحث حدوث العالم من ثالث اسفاره تجد من بعض ما ذكر فيه ما نصه (قال بعض العلماء ان هذا الرجل قد تصفحنا من كلامه القدر الذي وجدناه فدل على قوة سلوكه وذوقه ومشاهدات له رفيعه قدسيه واكثر ما نُسب اليه افتراء محض بل القدماء لهم الغاز ورموز واغراض صحيحه ومن اتى بعدهم ردّ على ظواهر رموزهم اما غفلة او تعمداً لما يطلب من الرياسه انتهى ثم ذكر بعض كلماته واشار الى تاويلها وشحن عدّة اوراق بكلمات امثاله من اراكين الحكمه واساطين الفلسفه كثالس وانكسيمايس واغاثاذيمون وفرفوريوس وانباذقلس ويوذاسف وارشميدس وكثير من اضرابهم سوى من عرفت من حكماء اليونان ومشاهيرهم ولكنني لا انحو الى نقل شيء من ذلك مهما كان فيه من الاقناع وواضح الحجه وانما اريد التنبيه على ما اجده احرى من ذلك بالبيان ولو على الاشارة والاجمال . ربما يقول الغرّ من الناشئه والطريف من الصبيه انه لو كان الدين والصانع الحكيم امرا راهنا وحقيقة جلية لما انكره فلاسفة الغرب وكيف تغيب عنهم تلك الحقيقه مع ما هم عليه من الافكار الساميه والعقول الثاقبه والاختراعات الباهره التي ادهشوا بها العالم وكادت ان تكون اِعجازا ونبُوه يحسب اولئك الفتيه ان جميع نوابغ الغرب وفلاسفتهم من المعطلين والملحدين مع انّ الواقع على ضد ذلك بتاً حتى ان رئيس المعطله في هذه العصور الاخيره (داروين) الشهير الذي اليه تنسب (الداروينيه) قد اعترف في بعض كلماته بالاضطرار الى الاعتراف بوجود تلك القوة المدبره المجرده عن الماده وتردّد في مقام آخر وقطع بنفيها وانكارها في غير مورد على ان اهمّ عنايته كانت مصروفة الى البحث عن اصل الانسان وفلسفة نشوه وارتقائه . دع داروين يبحث في الانتخاب الطبيعي وان اصل الانسان هو الارنج والجوري او (الشامپنزيه) او غيرها من انواع القرود ولترجع الى

غيره من فلاسفة الغرب واركان المدنيّة الجديده . بيد اننا لانحاول الاحصاء والاستيعاب من كلماتهم واقوال مشاهيرهم فان ذلك ممّا يحتاج الى موءلف ضخم ومشروع متّسع ولكننا نورد لك نموذجا من ذلك نعطيهم النّصف به ونعرّفك كيف انّهم فلاسفة روحيّون الهيّون كما هم فلاسفة ماديون طبيعيون واساتذة مخترعون

قال الاستاذ الفلكي الشهير (نيوتن) من المستحيل تصور ان الضرورة هي الموءثرة وحدها على هذا الكون لان هذا التخالف في الكاينات لايمكن ان يتأتى من ضرورة عمياء هي هي في كل زمان ومكان والخلاصة ان الكون في تناسق اجزائه وتناسبها مع تغيرات الازمنه والامكنه لايمكن ان يصدر الا من ذات اوليه لها علم واراده : وقال الاستاذ الشهير (هرشل) كلما اتسع نطاق العلم ازدادت البراهين الدامغة القويه على وجود خالق ازلي لاحدّ لقدرته ولانهايه فالجيولوجيون والرياضيون والطبيعيون قد تعاونوا وتضامنوا على تشييد صرح العلم وهو صرح عظمة الله وحده : وقال (كاميل فلامريون) لقد عجز الاساتذه عن حل مسئلة استمرار الوجود ودوامه ولذلك فهم مقرون بضرورة وجود الخالق وتاثيره الدايم المستمر ليمكنهم تفسير تعاقب الكاينات وادراك سر اصول الاشياء : وقال الاستاذ الطبيعي الانجليزي (ميلين ادوارد) يجب ان يندهش الانسان لما يرى ان امام هذه المشاهدات الناطقه المتكرره رجال يدّعون لك ان كل هذه العجايب الكونيه ليست الا نتايج الصدفه او بعبارة اخرى نتايج الخواص العامه للماده واثر لتلك الطبيعه التي تكون مادة الخشب ومادة الاحجار وان الحامات النمل مثل اسمى مدركات القوة الانسانيه ليست الانتيجة عمل القوى الطبيعية او الكيماويه • ان هذه الفروض الباطله او بالاولى هذه الاضاليل العقليه التي يسترونها باسم العلم الحسي قد دحضها العلم الصحيح دحضا فان الطبيعي لا يستطيع ان يعتقدها ابداء واذا اطل الانسان على وكر من اوكار بعض الحشرات الضعيفه يسمع بغاية الجلاء والوضوح صوت العنايه الآلهيه ترشد مخلوقاتها الى اصول اعمالها اليوميه : وقال (سبنسر) نرى من كل هذه الاسرار التي تزداد غموضا كلما زاد بحثنا فيها حقيقة واضحه لابد منها وهي انه يوجد فوق الانسان قوة ازليه ابديه ينشأ عنها كل شيء : وقال العلامه (فنوتل) ان اهمية العلوم الطبيعيه لاتنحصر في نهمة عقولنا فقط ولكن اهميتها الكبرى هي رفع عقولنا الى خالق الكون وتحلينا باحساسات الاعجاب والاجلال الواجب لذاته المقدسه : وقال العلامه (لينيه) ان الله الازلي الكبير العالم بكل شيء والمقتدر على كل شيء قد تجلى لي ببدايع صنايعه حتى صرت مندهشا مبهوتا ان المنافع التي نستمدها من هذه الكاينات تشهد بعظيم رحمة الله الذي سخرها لنا كما ان جمالها وتناسقها تنبي عن واسع حكمته وكما ان حفظها عن التلاشي وتجدّدها يقر بجلاله وعظمته :

والصق الاقوال بالصدق واقربها الى الصواب وادفعها الى الاستحسان والاعجاب قول علامة الطبيعه واستاذ الطبيعيين (باكون) ان العلوم الطبيعيه اذا رُشفت باطراف الشفاه ابعدت عن الله ولكنها اذا شُربت عبًّا اوصلت اليه ع

الى كثير من امثال هذه الكلمات لامثال اولئك الجهابذة الروحيين والاساتذة الطبيعيين على انهم من اكابر الآلهيين مثل (وليم طمسن) و(اون) و(دوسون) و(غراي) و(كربنتر) و(فولتير) بل وحتى (داروين) احيانا فانه قال في كتاب اصل الانواع الارجح بدليل التمثيل ان اصل كل الاحياء التي عاشت على الارض صورة واحده اوليه نفخ الخالق فيها نسمة الحياة • ولكن عصفت

به زوابع اوهامه فقلبته منكوسا على ام راسه فقال (ولكن التمثيل دليل خادع) نعم وليس بعازب عني ان هناك طايفة اخرى على شقاق هو ءلاء اقل منهم او اكثر اشدّهم والدّهم (بخنر وهيكل وكليفرد) وهم الذين يقولون (كبرت كلمة تخرج من افواههم) «لاحاجة لنا الى القول بالله» فهم يستغنون عنه تعالى شانه بالكييس الهلامي والمخاط الحجري وما بعد ذلك من سلاسل القرود وسلايلها

ولكن هل من قايل عني للاغرار من الناشئة الحديثه ء انه ان كان ولا بدّ من التقليد للغربيين والعكوف على مباديهم والتطفل على فضلات موايدهم والجمود على رشحات اقلامهم فهلا يكون التقليد لتلك الطايفه الروحية منهم التي هي الى مباديكم ادنى ء وبها اشبه ء وبالحجة ادلّ وبالبراهين اجلى ء والى الادب اقرب ء وبحفظ النظام ونواميس الشرف اوفى واكفى ء ولدرء المفاسد والشرور الزم واتم ء ام كان حبّ اللذات والميل الى الشهوات هو الذي زيّن لكم هوسات تلك الفاغه التي تكاد القرود تهزء بها والنقاعيات الهلاميه تسخر منها على ان فيها محو كل فضيله ومحق كل ادب وازهاق روح كل علم ومعرفه

قال الفاضل اللاهوتي الدكتور (انس) في كتاب «نظام التعليم في علم اللاهوت القويم» ان اقوال الماديين ادّت الى نفي كل علامات القصد في المبروآت وعناية الله بخلقه وحكمه الادبي والاختيار والتكليف وخلود النفس والمعاد وجعل التعقل والوجدان والحس وكل ادراك حركات ماديه ناشئة من الدماغ • اقول نعم ولقد بلغ بهم منابذة العلم الى انكار عامة البديهيات حتى قال قايلهم (ما هي الاّ مبادئ وهميه ورثناها من السلف)

وزاد بعضهم فقال (لعل من بديهيات سكّان بعض السيارات انّ اثنين واثنين خمسه) يريد حقيقة الخمسه لا لفظها كما لا يخفى فانظر واعجب واضحك وابك نعم وحيث بلغ الكلام بنا الى هذه الهلجات التي هي اشبه بسمادير السكارى او المجانين فقد وجب علينا ان نكفّ ونقف . وبالاكيد انّ شمس الحقيقه قد نصعت وسطعت ولم يبق عليها ستار ولا غبار واني وان كنت قد اسهبت واطلت ولكني بالعزو لما طويته اجدني قد اقتنعت بجرعه واجتزأت بلمعه ومهما يكن من شي ء فاني (والله هو الشهيد) قد محضت لك النصيحه ومخضت لك على الزبده واعطيتك مصاص الحق ء ولم آل جهدا في تقريب البعيد ء وتسهيل الشديد ء عليك والاخذ بيدك ء الى سعادتك ونجاتك ء ولم يبق سوى الضراعه الى من هو الغايه ء ومنه العنايه ء ان يتولاك بهدايته وتوفيقه ء فعلى عنايته المعوّل ء فانّها تمام السبب ء او السبب التام ء واليه ارغب في ان يجعل عنائي له ء وجزائي عليه ء وسعيي خالصا لوجهه الكريم ء وماتوفيقي الا بالله عليه توكلت واليه انيب وكانت في النفس بقية امور مهمه في هذا المقام لم يتسع لها المجال وعسى الله سبحانه ان يوفق لذكرها في غضون هذه الدعوه حسب المناسبات التي ربما تتفق وتسنح ان شاء الله

الفصل الثاني

﴿ في توحيد الصانع جل مجده ونفي الشريك عنه ﴾

نحن نبحث في هذه النظرية وان كانت في الجلاء عن البحث غنيه كيف وقد

تجلت لوحدانية الحق انوار * فدلت على انه المحمود هو الدار

سوى ان هذه المسئلة على التحقيق ليست كسابقتها بديهيّة بل هي استدلالية نظرية إذ نفس تصورها لا يكفي في حصول التصديق بها بل يتوقف ذلك على توسيط دليل وبرهان. والنظر في آية وتبيان. ولكن هذا المقصد على غموضه هو ايضاً من اوضح المقاصد. اذ في كل شيء له اية تدل على انه واحد فلو تأملتَ في مملكة نفسك وجنودها وعدة قواها وعديدها وباهر سلطانها وعظيم شانها . ثم عطفت النظر الى جسمك وما اشتمل عليه من عجيب الصنع وغريب الوضع وبديع الحكمة ومحكمات الربط والاتقان . فضلاً عن ان تُوجّهَ حواس الادراك . الى عجيب صنع الافلاك . وما احاطت به الارضون والسموات . من عجايب المخلوقات . واختلاف الليل والنهار واستقامة سير الفلك الدوار . وما للشمس في الارض من عجايب الاثار وتربيتها للمعادن والحيوانات والاشجار وما يترتب على حركتها او حركة الارض عليها من الفصول . وما اشتملت عليه من الحِكم والاسرار في الطلوع على الناس والأفول . وما اشتمل عليه عرش الملك الجليل . من الدقيق والجليل . وغوادي حوادثه في الغدوّ والاصيل

أُنظر الى العرش على مائه * سفينة تجري باسمائه * واُعجب له من مركبٍ دائر
قد أَودع الخلق باحشائه * يسبح في لجّ بلا ساحل * في جندل الغيب وظلمائه
وموجه احوال عشاقه * وريحه انفاس ابنائه * فلو تراه بالورى سائرا

من الف الخط الى يائه * ويرجع العود الى بدئه * ولا نهايات لابدائه
يكوّر الليل على صبحه * وصبحُه يفنى بامسائه

وبالجملة فكلّ شيء يقع عليه بصرك . وكلّ معنى تتصوّره فِكرُك اذا دققّتَ النظر فيه . وتوصّلت من باديه الي خافيه . وجدته كتاباً مبينا ودفتراً بادلة التوحيد مشحونا . ففي كلّ عضو من الانسان الف دليل على ذلك وبرهان . ولكلّ نفس الى ذلك النبأ الصادق . عدّةُ سنن وطرايق

كيف لا والطرقُ الي الله بعدد انفاس الخلايق
وجميعُ اوراق الغصون دفاترٌ * مشحونةٌ بادلّة التوحيد

(امّن يبدأ الخلق ثم يعيده ومن يرزقكم من السماء والارض أإلهٌ مع الله قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين) ووجه الاستدلال بهذا البيان . بحيث يعود الى البرهان . هو انّ كلّ من تأمّل واعتبر . ودقّق النظر . وفكَّر في كل جزء من اجزاء العالم الكبير . من الحقير والخطير . من الذرّة الي الذرى ومن العرش الى الثرى . وفسَّر من كتاب الله التكويني آية من آياته في ارضه اوسمواته . وعرف من العالم حسن موضعها . ولزوم موقعها . واحتياج باقي الاجزاء اليها . وتوقف النظام عليها . وارتباط بعض الاجزاء ببعض وما تعمل السماء ومائها في الارض . وتوقف حياة اهلها على حياتها . وحلاوة عيشهم بنباتها . الى غير ذلك مما يقصر عنه البيان . ويكل دون اقاه اللسان وانما ياتي عليه المتفكر في نفسه . ويصيبه المتأمل بقوة حدسه . وهكذا لو نظر في العالم الصغير . وطبّقه على العالم الكبير كتطبيق الكتابين الانفسي والآفاقي . واجال بصيرة القلب وبصر العين في الغابر والباقي . واستبطن الظاهر الجلي . حتى وصل الى سره الباطن الخفي . وعرف ما اشتملت عليه اجزاء بدنه من دقايق الحكم وعجايب الصنع . وغرايب الابداع . وبواهر

الاختراع . وتلطَّف حتى رأى بمستحكم الايقان . ونيّر العرفان . ما رُوعي في خلق الانسان . من الحكمة والاتقان . حتى صارت العين في ملوحه والاذنُ في مراره . والفم في عذوبه . ورُبطت الجوارح بعضها ببعض بحيث صار يتوقّف حصول الفايدة من كل جارحةٍ على حصول فائدة الاخرى وعاد فقد بعضها موجبًا لعدم الانتفاع باخواتها وان كانت صحيحة المجرى . اللهَ عليك . الاّ ما نظرتَ في يديك . او رجليك ثم انسبهما الى عينيك . فانك تجدهما في وَهلةِ النظر . وجذَع الفِكر . ممّا لا ربط لأحديهما بالاخرى . ولا توقّفَ لفايدة اليد على العين وإن عظمت قدرا . إذ العين فائدتُها الابصار واليدُ فايدتها الأخذو الدفع والقبض والبسط وليس بينهما علاقة جامعة . ولا بين وجود احدهما وعدم الآخر ممانعه . اذ الاشلّ يبصر . والاعمى عن بسط اليد وقبضها لا يقصر . ولكن اذا حقّقت ودقّقت وتعمّقت في الفكرة واغرقت . وجدت انّ فايدة كلّ من الجوارح بدون اختها وبال . وحسرةٌ ونكال . واعتبر في ذلك حال من دخل صحيحًا سويّا الى بستان قدانمرت اشجارها . وازهرت ثمارها . وحين هشّت نفسه وَهمّ ان يتناول شيئا منها شُلّتْ (وياحرسك الله) يداه . اوجُذمت (وياعاذك الله) رجلاه . فعيناه تبصران . ويداه ورجلاه تقصران . اوعميت (ويااجارك الله) عيناه — ويداه مبسوطتان . فهل تراه يجتني الاّ الحسره . او يتزوّد الاّ الزفره وقس على هذا من بدنك ساير الاجزاء . وجميع الجوارح والاعضاء ثم اعتبر من حال هذا العالم الصغير حال العالم الكبير ولطّف فكرتك وردّع نظرتك . وانظر في ارتباط ارضه بسمائه ونباته بمائه . وحيوانه بانسانه . وشمسه بقمره . وفلكه بملكه . الى غير ذلك ممّا يختلّ باختلاله النظام ولا يتمّ الاّ به الصلاح العام . و(ح) فاذا تفطّن المتدبر . وبلغت فكرة المفكّر

الي عجيب هذا الصنع والاختراع . وما اشتمل عليه من الحكمة والابداع
بل عرف الحكمة في البعض من ذلك الصنع البديع فضلا عن الجميع
وتيقّن بمقتضى جبلته وفطرته وبحسب مادلّه عليه عقله كما استبان لك وجهه
انّ لهذا العالم صانعا ادّاه ذلك لامحاله الى الجزم واليقين . بحكمة ذلك
الصانع ثم بوحدانيته وانّه لكمال قدرته لا شريك له ولا معين . اذ لو
كان اكثر من واحد لكان لا (يخلو) بحسب القسمة الحاصرة العقلية من
ان يكونا ناقصين معًا بمعنى كون كلٍ منهما قاصرا في حدّ ذاته وواقع امره
ناقصا بحسب جوهره عن انشاء مثل هذا الصنع وايجاده في الخارج او يكونا
معا كاملين في القوة متوازنين في القدرة بمعنى انّ في كلٍّ منهما بحسب ذاته
كفاءة للقيام بهذا الامر او يكون احدهما كاملا والاخر ناقصا وهذه القسمة
الثلاثية حاصرة لا سبيل الى تربيعها ابدا امّا الثاني فلا سبيل اليه لما تحكم
به ضرورة العقول من انّ المعونة والمشاركة انما يقتضيها النقص والحاجه
ويستدعيها الفقر والفاقه وحيث لا نقص حسب الفرض فلا معونة ولا
مشاركة والا كانت استعانة كل منهما بالآخر واشتراكهما مع قدرة كل
منهما على الاستقلال عبثا والعبث لايقع من الحكيم وقد فرضناه وعرفناه بحسب
ما راينا من عجيب صنعه حكيما فلا يمكن تطرق العبث اليه و (حينئذ)
فاحد الكاملين هو المتفرد بالصنع الواجبُ الوجود والاخر لاحاجة ولا
ضرورة في وجوده اوعدمه فهو اذًا ممكن والآخر هو الواجب والصانع
ومن هنا ظهر بطلان الفرض الثالث كالاول اذ الحاجة والنقصان .
تستلزم الامكان او هي عين الامكان . و (ح) فالناقص او الناقصان
يندرجان في عداد الممكنات . ويخرج عن الوجوب ما فرضناه واجبا
بالذات . اعني به ما ادّانا اليه النظر الثاقب . من لزوم الصانع الواجب

كما عرفت في المقدمة والفصل الاول ولكني اخالك حيث تكون واسع الخيال ذا فطنة فسيحة المجال . لا تقنع بما قدّمناه لك من تحقيق الحال . وتطالبني بسند هذه الدعوى وهي انّ الحاجة والنقصان . يستلزم ان الامكان او هي عينه في الذهن والعيان . ولا تكتفي مني بذلك البيان حتى اكشف لك عن السرّ المصون . والعلم المخزون . الذي كنت أنفس على كشف ستره . واظهار سرّه . وأغار على غرّاء غُرّته وعصماء عصمته . أن يستطلعها كلُّ شارد ووارد . او يستضيء بها الاّ الواحد من الناس بعد الواحد . وهو الاصل والاساس الذي يبتني عليه جميع مسايل التوحيد . والحديث الذي ما عليه في الادلّة على وحدانية القديم من مزيد . ولولا الرغبة والتنافس على اظهار الحق وتحقيقه . والوله الى ايضاح طريقه . لما كنت سخيًّا ببيانه ، ولا حريصًا الاّ على كتمانه ، ولكني امتثالاً لِما امر الله به من بذل الجهد والاجتهاد ، في الهداية والارشاد ، أُلخصُّ لك لُبابه ، واكشف عن نيرّ وجهه حجابه ، واقول والثقة بالله تعالى انّ كل موجود تجده في الخارج اوتحكم بتحققه في نفس الامر والواقع فلا شكّ انّ العقل يحكم بانّ ذلك الموجود لا يخلو امّا ان يكون ذاته وحقيقته ليس الاّ تمام حقيقة الوجود وذاته فليس في ذاته شيء سوى الوجود ولا في حقيقة الوجود شيء سوى ذاته وبعبارة اجلى بيانا واعلى برهانًا انّ العقل لا يرى لِما يفرضه في عالم التصوّر ويدركه في عالم الخارج الاّ الوجود اوالعدم فالشيء من حيث التحقق والثبوت امّا موجود او معدوم لاثالثَ لهما ثم الموجود لا يخلو عنده امّا ان يكون صرف الوجود بحيث لايتطرّق اليه شيء من انحاء العدم والنقص فيكون ذاته الوجود ليس الاّ اي لا يرى فيه شيئًا وتركيبًا من ضدّه وهو العدم اصلا اولايكون كذلك بل يرى انّ وجوده

شيءٌ زايد عليه لاحقٌ به فهو مركبٌ من الوجود ومن ذلك الشيء الذي انضمّ الى الوجود انضمامًا اعتباريًا ، وتركّب معه تركيبًا ذهنيًا عقليًا ، لاواقعيًا خارجيًا ، بل ليس في الخارج الاّ الوجود الناقص المحدود المشوب بالعدم فهو بذلك النظر الفرضيّ الاعتباري يرى التركيب والانضمام وبالنظر الواقعيّ الدقيق لايرى سوى الوجود المحدود على مراتبه في الشدّة والضعف والنقص والكمال اِذ القسمةُ حاصره امّا الوجود المحض او العدم المحض او المركب منهما اعني الوجود الناقص — امّا العدم المحض فهو باطل الذات والحقيقة فلم يبق في الخارج الاّ الوجود التام او الناقص على مراتبه المختلفة الغير المتناهية ثم انّ العقل بعد ذلك التقسيم الصحيح يحكم بتًا انّ القسم الأوّل من الوجود لايحتاج الى علةٍ وسبب في وجوده اذ قد فرضنا انّ ذاته الوجود والذاتيُّ لايُعلَّلُ ضرورةً فالوجودُ وجودٌ بنفسه وموجودٌ بنفسه اِذ ثبوت الشيء لنفسه ضروريٌّ ايضًا لااعني بقولي انه موجود بنفسه انّ ذاته علةٌ لوجوده فانه واضح الاستحاله بل المراد انه قايم بنفسه غنيٌّ عن غيره فوجوده وغناه عين ذاته لاشيءٌ لاحقٌ به عارض عليه ولُباب المراد واضح جليٌّ لِذوي الالباب وان كانت العبارة لعلها قاصرة عن بيانه ، منحطّةً عن رفيع شأنه ، ولكنها غاية مايمكن في الاداء ، والمقصودُ بعد التأمل في غاية الوضوح والجلاء ، واستبن ذلك من النظر في الوجودات الامكانيه فانك لا ترى منها موجودا خاليا من نقص وحاجه وفقر وفاقه بحيث لم يطرَ عليه العدم خارجًا ولا صحّ عروضه له ذهنا وما هو الاّ من كون وجودها عرضيًا لذاتها و كلّ مابالعرض لابدّ وان ينتهي الى ما بالذات وسندُ ذلك انّه لاينقطع صحة السوءال من العقل حتى ينتهي الى الذاتي فيتضح الحال ، وينقطع السئوال ، اَلا ترى انّ بياض

الاجسام بعروض البياض لهـا والبياض بذاته ابيض واذا كان عروض البياض لغيره به فثبوته لنفسه اولى وقد حكمتْ بداهة العقول كما سبق مِن انّ معطي الشيء لايكون فاقداً له فاذاً لابد ان تنتهي هذه الوجودات العَرضية الأمكانية الى وجودٍ ذاتي وجودُه بنفسه وهو الذي نسميه بواجب الوجود تسميةً مطابقةً لنفس الامر وحاقّ الواقع وهذا هو القسم الاول من الوجود الذي لامدخل فيه للعدم والنقص والفقد لشيءٍ من الكمالات اصلاً لاذهناً ولا عقلاً ولا خارجاً — والكمالاتُ كلها من ناحية الوجود والشرورُ كلها من العدم فاذا تمّ الوجود فقد تمّ الكمال وثبت استحالة الشريك لانّ واجب الوجود هو تمام تلك الحقيقة وصرفُ حقيقة الشيء لاتتثنّى ولا تتكرر كما هو ظاهر جداّ لمن تدبَّرْ والاّ لزم الخلف الواضح فاذاً حقيقة الوجود لاثانيَ لها ابدا والناقصُ والناقصان يندرجان في القسم الثاني من الوجود وهو عبارة عن الممكنات المحتاجة في وجودها الى واجبٍ بالذات ، اذ ذواتها ليس صرف الوجود بل هي مركّبة منه ومن العدم ، وموجودة لاعن قِدم ، فبالضرورة يحكم العقل بانّ لوجودها سبباً وعله غير محتاج في وجوده الى ذلك ، والاّ لكان حكمه حُكمها بل لما صحّ ولا امكن وجود ممكنٍ أبدا وقد سردنا هُنالكَ بفضل الله تعالى من براهين التوحيد ، ما ليس عليها من مزيد ، تغنيك بوضوحها واتقانها عند التأملّ ، عن الدوران حولَ دائرة الدور والتمسك بسلسلة التسلسل وتندفع به جميع ما اُوردَ في هذا المقام من الشبهات وينحلّ ما انعقد واعضل عندهم من التشكيكات ، وانقلعَ اساسُ الشركة في الاُلوهية ، والتعدد في الربوبيه ، ولم يبقَ لشبهةِ (ابن كمونه) وامثالها مجالُ صدورٍ في الصدور فضلاًعن ورود اوظهور ، او احتمال تقريب اوترتيب فنافس عليهِ واغتنمهُ ان

كنت من اهله وتدبّر فيه واستعن بمن الله وفضله فانّه من كنوز المعارف الآلهية ورموز اللطايف الربانية ، وهو المرموز اليه بقوله تعالى (لو كان فيهما آلهة الاّ الله لفسدتا) اذ لو تعددا لأمكنا ولو امكنا ولم يكن ثمة واجب الوجود بالذات ، تهاوت الارض والسماوات ، فانّ العلة اذا بطلت بطلت المعلولات لعدم قيوم يمسكها (انّ الله يمسك السموات والارض ان تزولا) وهذا كاف لك انشاء الله وكله مما دلّنا عليه ، وقادنا اليه التفكر في الوجود والموجودات ، وما فيها من الأيات والبينات والدلايل الواضحات ، (سنريهم اياتنا في الافاق) (وفي انفسهم حتى يتبين لهم انه الحق اولم يكف بربك انه على كل شيء شهيد) ومن هنا يستبين لك الوجه في الحثّ على التفكر في ايات الله جلّت عظمته والنظر في ملكوت السموات والارض من الآيات والروايات حتى استفاض في الاخبار (انّ تفكرّ ساعة خيرٌ من عبادة سبعين سنة) وذلك انّ التفكر طاعة النفس التي توصلها الى اعلى عليين ، من منازل المعرفة واليقين والعبادة طاعة البدن والفرق في الشرف بين الطاعتين ، كالفرق في الفضيلة بين المطيعين والنفس جوهر مجرّد من عالم الملكوت الأعلى ، والبدن من المواد الداثرة السفلى ، واين الماديّ من المجرّد ، والفاني من المؤبد ثم انّ هنا تتمةً مهمه وهي انّ الطرق الى الله وتوحيده ، جلّت عظمة تمجيده وان كانت عند ارباب الحقايق ، بعدد انفاس الخلايق ، ولكن مرجعها الى ثلثة على التعيين ، كما ذكره جلّ ذكر في كتابه المبين ، حيث قال جلّ من قايل لنبيه الاكرم صلى الله عليه وآله وسلم (ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنه وجادلهم بالتي هي احسن) « فالأوّل » هو التدرّب في معارج المعرفة والايمان ، الحاصل من الترقي والطيران ، بجناحي

العلم والعمل وتهذيب النفس بتحلّيها بالفضايل ، بعد تخلّيها عن الرذايل حتى يحصل لها من الصفاء والتجرّد ما تنال به نوعا من الدلاله ينتهي الى ماهو اقوى من المشاهدة والمعاينه ، حيث ينفتح لقلبه الاسماع والابصار الباطنة ، واعني بالعلم هنا علم الأخلاق وتهذيب النفس فانّه من احسن الطرق الى تحصيل العلوم والمعارف فانّ العبد اذا واظب والزم نفسه على التخلق بالاخلاق المأنوسة الكريمة ، والتخلي عن الرذايل الموحشة الذميمة ، التي يحكم عقله بحسنها بمقتضى الانسانية وعلى صرف الطبيعه مع قطع النظر عن كل شارع وشريعه وذلك ، كالصدق ، والامانة ، والعدل ، والانصاف ، والحياء ، والعفاف ، والاحسان ، والشفقة ، والرأفة بنوع الأنسان ، بل ساير مخلوقات الله ذوات الأنفس والارواح حتى النبات والحيوان ، بل وعظمة جلال الله ما بُعثت الرسلُ والانبياء ، ولانزلتِ الكتب على ايدي السفرآء ، الاّ ليتخلّقَ الخلقُ بتلك الاخلاق ولِتبرء من اضدادها الراجعة الى الظلم والنفاق (هو الذي بعث في الأميين رسولاً منهم يتلوُ عليهم آياته ويزكّيهم ويعلِّمهم الكتابَ والحكمه) والحكمةُ هنا هي التي ذكر سبحانه وتعالى جملةً منها في سورة الأسرآء فانّه جلّت حكمته بعد ان نهى عن الشرك وامر باداء حقوق الوالدين . والمسكين وابن السبيل ، ونهى عن البخل ، والتبذير ، والزنا ، وقتل النفس ، والكبر وحثّ على الوزن بالقسط وغير ذلك من حميد الخصال وجميل الافعال قال جلّ من قايل (ذلك مماّ اوحي اليك ربّك من الحكمه) ولذا قال (ص) بعثت لأُتمّ مكارم الاخلاق و حينئذ فاذا جاهد العبدُ على تحصيل تلك الصفات . حتى صارت احوالاً له بل ملكات . وسارَ على صراط العدل والاستقامة التي امر الله بها نبيَّه (ص) بقوله (فاستقم كما اُمرت) وحسُنت مع الله

والناس سيرته وسريرته وبرئ وزكى من رذايل البهيمية والحيوانية ، وصار انسانًا بما تقتضيه حقيقة الانسانيه . فعند ذلك يستعد لقبول الواردات القلبيه . والفيوضات الغيبيه . والتعليمات الالهيه ، ويصير من المعرفة واليقين على طرفٍ من الكمال . يضيق عن وصفه القلم والمقال . حتى يصل الى مقام من الايمان . فوق المشاهدة والعيان . وينكشف له من اسرار العلوم والمعارف . وانوار الحكم واللطايف والادلة القاطعة ، والبراهين الساطعة . مالم يخطر ببال ، ولا الم بخيال ولا مرّ على احد ممن صرف عمره في البحث والجدال والنظر والاستدلال . فيما ينسجه الوهم وينسفه الخيال من البراهين والاشكال

پاي استدلاليان چوبين بود پاي چوبين سخت بي تمكين بود

واليه الاشارة بالحديث المروي في الكافي وغيره من قول الصادقين سلام الله عليهم (من اخلص لله اربعين صباحًا جرت ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه) كل ذلك ببركة تصفية النفس بالاخلاق الزكيه . من الحكمة العمليه . فانها من احسن الطرق لنيل الحكمة النظرية العلميه . والى هذا كله اشار بقوله صلوات الله عليه (من عمل بما علم ورثه الله علم ما لم يعلم) وقوله سلام الله عليه (ليس العلم في السماء فينزل عليكم ولا في الارض فيخرج اليكم ولكنه مودع في نفوسكم تخلقوا باخلاق الروحانيين يظهر لكم) وهذا باب واسع . ومقام شاسع . وبسط الكلام فيه كما هو حقه يوجب الخروج عن خطة هذه الوجيزه وانما الغرض ان العلم والعمل متعاضدان مترافدان كل منهما يكمل الآخر ويقويه ويوسعه ويزيد فيه كما هو صريح الحديث وهذا هو دليل الحكمه المشار اليه في الآية الشريفه ولكن المرتبة الكامله منه غالبا لا تحصل الا بتربية ولي

من اولياء الله الكاملين بل المعصومين والأمثل فالامثل ممن اقتدى بآثارهم. واقتبس الهدى من مشكاة انوارهم . وهو يرتقي الى شامخ مقام من عوالم الغيوب . تكلّ الألسنةُ والأقلام عنه وتعرفه القلوب

درآنجايي كه نور حق دليل است چه جاي گفتگوي جبرائيل است

(الثاني) من الطرقِ والادله التفكر في الآيات والاثار بصحيح العقل وصريح الاعتبار. وهذا ممّا يفيد العلم واليقين غالبًا للمعتبر المفكر بالنسبة الى خصوص ذاته وفي حدّ نفسه وان لم يقدر على رفع الشبهات . ودفع الخصم باقامة الحجج والبينات. وهو طريق الموعظة الحسنة وتدخل فيه البراهين الأقناعيه ممّا يفيد العلم واليقين لمن كان من اهل السلامة من متعارف الناس

(الثالث) المجادله بالتي هى احسن وهو طريق البحث والجدل لكن بالبراهين الحقة والقضايا الصادقة لا بالجدليات والمغالطات ونظايرها من الشعريات وغيرها فانها لا تخرج عن الكذب والباطل وان كانت مجادلة عن الحق — والحقُّ اجلُّ واعلى من ان يأمر نبيَّه بذلك فاذا اتّضحت طرق الأدلة الألهية لديك فنقول انّ ما ذكرناه من التوصل الى وحدانيته تعالى بالتفكر في آياته وان ارجعناه واتممناه بالدليل المسلّم .واعدناه الى البرهان المحكم المفيد للجزم . القاطع للخصم . ولكنَّه على وجهه وتقريره الأول وقبل التعمق والاغراق فيه يعدُّ من طريق الموعظة الحسنة الذي يفيد العلم واليقين . وان لم يوجب الأقتدار على دفع شبهات المشككين . وقد كان الغرض في هذه الوجيزه هو ذكر خصوص مايوجبُ الاعتقاد الصحيح ثمّ اذا حصل مايقتدر به على دفع شبه الجاحدين وردِ المعاندين فذلك تفضُّلٌ من فضل الله ونعمته وتوسعٌ في المعرفة من سعة رحمته وحينئذ فان

حصل لك الجزم واليقين بما ذكرناه من البراهين فنعم المطلوب وان ابيتَ الاّ عن الدليل الأصطلاحي على وجه لايحتاج الى طول تلك المقدمة من التفكر في المصنوعات والنظر فى الآيات ويكون اقرب في الوصول الى المقصود من ذلك الوجه وإنْ كان وجيهاً بحيث يكون على طريق المجادلة بالتي هي احسن . وقاطعا للخصم وان كان الدّاًالسن (فنقول) بعون الله تعالى ان اهل الله قد اقاموا على توحيده من البراهين مالا تسعه الدفاتر والدواوين ونحن نذكر لك برهاناواحدامن اوضحها وانقحهاواسهلهاواقربهاايصالاالى الغرض المقصود بحيث يهجم بك على الحق الواضح بغتة ويفجأ لك بالمراد وهله ، ويعطيك الصواب حبوه ، ويقرّب لك بعيد الشقة ، بلا كلفة وعلى غير موءنة ومشقة ، وهو انه لو كان فى الوجود واجبان اواكثر لكانا مشتركين فى وجوب الوجود البته تحقيقا للالٓهيه ولو كانا كذلك لوجب ان يمتاز كل منهما عن الآخر بصفة ليست في شريكه تحقيقا للاثنينيه ولو كانا كذلك اعني كونهما مشتركين فى شيء ممتازين فى آخرجاء التركيب والامكان وبطل الوجوب اذيبقى صحة السوآل من العقل بانه لِمَ تركبا ومن ركّبهما فان قات هما لزم ان يوءثر الشيء في ايجاد حقيقته وتركيب اجزائه وهو باطل بضرورة العقول وان قاتَ غيرهما نقلنا الكلام اليه وهلم جرّا على ان التركيب مستلزم للحاجه والحاجة كما عرفت تستلزم الامكان بل هي بالنظر الادقّ عين الامكان وحينئذ فقد صار مافرضناه واجبا ممكنا وهذا خلف وايضا فتلك الصفة على كل حال . اما ان تكون صفة نقص او صفة كمال . وعلى التقديرين . فقد صارا ناقصين محتاجين . اما على الاول فواضح واما على الثاني فافقد كل منهما صفة الكمال التي في الآخر وهي التي اختص بها وامتاز عن شريكه فيها واذا جاء

النقص جاءت الحاجة والفقر والفاقه وواجب الوجود بالذات يستحيل
عليه تطرّق النقص من جميع الجهات ويمتنع فيه فقد كمالٍ من الكمالات
والاّ لصار الواجب ممكنا، وهو فاسد فسادا بيّنا، فان حصل من جميع ماذكرناه
لك الأيقان . ورسخ فى قلبك الايمان ، فاحمد الواهب المنان ، فانه جل
شانه هو المتفرد بالفضل والاحسان، والاّ والعياذ بالله فاجتهد فى اصلاح
نفسك وزكّها بالاخلاق الكريمه ، فاني لا اظنّها الاّ محجوبة عن الصفاء ببعض
الصفات الذميمة وهو الذي عاقها عن بلوغ الكمال واخرجها عن حدّ الاعتدال
واجهد في ان تنالك دعوةُ برٍّ من عباد الله الصالحين، في ان تسعك رحمته
التي وسعت كل شيء في العالمين، واياك والخوض في كتب القوم فانها
لاتزيدك الاّ شكًّا وحيره، ولاتنتفع منها بحقيقةٍ ولاصوره ، اذلا اظنّك
تعثر على انقح من تلك البراهين والاشارات ، ولا اوضح من هاتيك
العِبر والعبارات والله وليّ التوفيق والهدايه ثم ان استيقنت ممّا ذكرناه عرفانا
وكملت ايقانا بوحدانية واجب الوجود جلّت عظمته وعرفت معنى وجوب
الوجود تحققًا وشهودا لاتلقفا وتقليدا، يظهر لك عيانا، ويستبين عندك وجدانا
وجوب كونه تقدّست آلاؤه مستجمعا لصفات الجمال والجلال ، والتقدّس
والكمال، ومن تلك الصفات مااشتهر عند المتكلمين من الصفات الثبوتيه
والسلبيه (امّا الاولى) فثمانية القدم وهو الازليه والابديه ويجمعهما السرمديه
ثم (العلم) وهو فيه جل شانه وبهر برهانه عبارة عن حصول الاشياء عنده
وحضورها لديه وشهوده لجزئيّها وكلّيها (لايعزب عن ربك مثقال ذرة
في السموات ولا في الارض) وليس هو بمعناه المشهور المعروف عند ارباب
الفنون الرسميه الذي يرجع حاصله الى احدى المقولات التسع من الفعل
والانفعال او الكيف (تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا) فانّه جل شانه مقدّس

عن الجوهرية والكمية والكيفيه وغيرها من المقولات العرضيه ويجلّ عن ان يحلّ في شيء اويحل فيه شيء — الاهو الله واجب الوجود الحيّ الاحد الفرد الصمد المعبود ثم (القدره) بمعنى انه ان شاء فعل وان شاء ترك لا بمعنى [(١)] صحة الفعل والترك لما فيه من الخلل الذي لا يسع المجال بيانه ثم (الحياة) وهي الصفة المصحّحة للاتصاف بالعلم والقدره وهذه هي اُمهاّت الصفات الثمانية والباقي كلّه من الثبوتية والسلبيه راجع اليها فاماّ الاربعة الباقيه من الثبوتيه (فهي الاراده والادراك) وهما راجعان الى العلم وناشئان منه ثم (الكلام والصدق) وهما راجعان الى القدره بنحو من الاعتبار ايضاً فهذه هي الثبوتيه عند المتكلمين (واماّ السلبية) فسبعة عندهم (نفيُ التركيب ونفيُ الجسميه والعرضيه ونفيُ محليّته للحوادث ونفي الرؤية ونفي الشريك ونفي الاحوال ونفي الاحتياج) وليت شعري وما ادري ما الذي دعاهم الى هذا الاصطلاح وما الذي اوجبَ ضيقَ افكارهم في متّسع هذه الخطط الفساح، ولا اعلم لماذا خصّوا صفاته الكماليه بهذا العدد وهي لا تحصى ولا تُحدّ ولو انّهم قالوا انّ صفاته الثبوتيه كلّ صفة تدل على الكمال . وتثبت المجد والعظمة والجمال . من غير حدوث ولا تغيير ولا محلية ولا حال . وصفاتهُ السلبية كل صفة هي على ضد ذلك مما يوجب النقص والعجز والمحدودية . وجميع ما يدلّ على الحدوث والتغير وغير ذلك من لوازم المخلوقية والمعلوليه . لاَصابوا التوفيق . وقاربوا التحقيق . وبالجملة فالعارفون بالله جل شأنه وعز سلطانه يثبتون له كل صفة توجب التقديس والتنزيه . وتدل على الكمال من غير شايبة تعطيل ولا تشبيه . من دون حصر لها بحد . ولا ضبط لها بعد (سبحانك لا احصي ثناء عليك انت كما اثنيت على نفسك وفوق

(١) هذا اشاره الى النزاع بين الحكما والمتكلمين ولا يهمنا بيانه

ما يقول القايلون) ثم ان كل تلك الصفات ثبوتيّها وسلبيّها فرعيّها واصليّها ذاتيها واضافيها صفات الفعل او صفات الذات جميع ذلك ممَّا يقتضيه ويستدعيه وجوب الوجود بحيث اذا تمَّ كونه واجب الوجود بالذات . لزمه لزوما بتيًا جميع تلك الصفات . وكان بودِّي هنا ان ابسط الكلام بعض البسط في صفاته المقدسة والفرق بين الفرعي والاصلي وصفات الفعل وصفات الذات وذوات الاضافة منها وغيرها وما الفرق بين الاسم والصفة والفعل والذات وما معنى قِدَم بعض الصفات وحدوث بعضها مع تقدّسه عن الحوادث وما معنى حدوث الاسماء الذي عقد له شيخنا ثقة الاسلام الكليني رضي الله عنه بابا في الكافي فقال (باب حدوث الاسماء) وذكر فيه عدة اخبارٍ صحيحة صريحة اوّلها مارواه بسند معتبر عن ابي عبد الله «ع» (قال ان الله تعالى خلق اسما بالحروف غير مُصوّت . وباللفظ غير مُنطق وبالشخص غير مُجسَّد . وبالتشبيه غير موصوف . وباللون غير مصبوغ منفيّ عنه الاقطار . مبعَّد عنه الحدود محجوب عنه حسّ كل متوهم) الحديث على طوله واشكاله[1] وعن معنى ماتظافر عن ائمة الهدى «ع» مما هو بمضمون ما رواه في الكافي ايضا في (باب صفات الذات) عن ابي عبد الله «ع» ايضا قال قال ابو بصير سمعته «ع» (يقول لم يزل الله ربنا والعلم ذاته ولا معلوم والسمع ذاته ولا مسموع والبصر ذاته ولا مبصر والقدرة ذاته ولا مقدور فلمَّا احدث الاشياء وكان المعلوم وقع العلم منه على المعلوم والسمع على المسموع والبصر على المبصر والقدرة على المقدور قال فقلت فلم يزل متحرّكا فقال «ع» تعالى الله انّ الحركه صفة محدثة بالفعل قلت فلم يزل متكلما فقال «ع» ان الكلام

(١) قد ذكرنا بعض الكلام في هذا الحديث في رحلتنا الحجازية الموسومة بنهزة الاسفار ونزهة السمّار

صفة محدثة ليست بأزليه كان الله تعالى ولا متكلم) الى غير ذلك من
اسرار الحقيقه والمباحث الغامضة الدقيقه ولكن وجدت انّ تحقيق
هذه المطالب مع احتياجه الى افراد بالتأليف لاتسعه هذه الوجيزه يشتمل
على بيان اسرار غامضة الهيه وكشف ما يجب ستره من استار
الربوبيه ومثل ذلك لاتحتمله عقول العامة بل ولا الخاصة الاّ من هداه
الله بألطافه الى سواء السبيل واذاقه جرعة من ذلك السلسبيل ومن اجل
ذلك كانت الانبياء والاوصياء والعرفاء والحكماء تقنع منه بالاشارة
والايماء وتأبى ان تكشف عنه قناع الخفاء وتجد الفاظها فى مقام التعبير
عنه رموزا على انك لو فتشتها وجدت تحتها كنوزا ولعلّه بلغك ما شاع
من قول النبي «ص» وفى بعض الروايات انّه عن الوصي «ع» لو علم ابو
ذرّ ما في قلب سلمان لَكفرّه اولاستحل دمه) يقول سيد اولياء الله عليّ
«ع» (هذا وقد آخى بينهما رسول الله «ص» فما ظنك بغيره) الحديث وبالجمله
فهناك دقايق اسرار لاتحتملها عقول عامة البشر ومن باح بها استباحوا دمه
وقالوا انه ألحَد وكفر

بالسر ان باحوا تباح دماؤهم * وكذا دماء العاشقين تباح

فلذلك كتمناها في الصدور وارخينا دونها الحجب والستور مكتفين من ذلك
بقوله تعالى (سبحان ربك رب العزة عما يصفون وسلام على المرسلين
والحمدلله رب العالمين) ولكن لايذهبن عليك احسن الله مذهبك انّ هنا
اعني في مبحث الصفات مطلب لا بد من بيانه والتنبيه عليه والاّ فالتوحيد
بدونه لايخلو عن شايبة شرك ونحن ايضا نقنع منه بالاختصار والإجمال
ولكن على نحو يتضح به الحال وترتفع به المحاذير وذلك ان تعلم
انّ صفاته جلت عظمته منتزعة من حاق ذاته ونفس وجوده وثبوته وحاقّ

حقيقته المقدّسه عن شايبة التركيب والالتئام ، ولوثة التحليل والانقسام وخسّة التأليف والانضمام ، بل ذاته البسيطه التي هي في اشدّ واقوى مايكون من الوحدة والبساطه ، مع ما هي عليه من الشمول والسعة والاحاطه ، منشأ لانتزاع تلك الصفات من غير تكثّر او تركّب في الذات او شيء زايد عليها خارج عنها هو منشأ انتزاع تلك الكمالات فالعجب «حينئذ» ممن ذهب الى زيادة الصفات على الذات من اهل التوحيد وغفلته عن خطل هذه المقاله وما تستلزمه من الضلاله بلزوم تعدد القدماء الثمانيه والآلهة اذا تعددّت كانت كلها ساقطة واهية بل الحقّ الصريح والمذهب الصحيح الذي قامت عليه براهين الحكمة وصرّحت به على الأستفاضه اخبار اهل بيت العصمه واتّفقت عليه جميع الحكماء الراسخين وكوشف به قاطبة العرفاء الشامخين ، كون صفاته ، تقدّسَ عن الاكتناه قدسيّ ذاته ، زايدةً على الذات المقدّسة في الاعتبار العقلي والتحليل الفكريّ لا في العين والخارج والحقيقة والواقع وان شئت تقريبَ ذلك بوجهٍ ما وتمثيله ولله المثل الأعلى فانظر الى نفسك العاقلة المجرّدة البسيطة (فمن عرف نفسه فقد عرف ربّه) فانّك تجد فيها من الصفات مالا يُحصى من الحبّ والبغض والارادة والكراهة والعلم والفطانة والجود والشجاعه الى غير ذلك من الملكات النفسانية وبكلها توُصف ، وبجميعها تُعرف ، وهي على بساطتها وتجرّدها ما انثلمت بتلك الكثرة وحدتها ، ولا تركبت من تلك المتغايرات المختلفات حقيقتها بل وحدتُها محفوظة ، مع كون تلك الكثرة منها منتزعة وفيها ملحوظة ، وهذا شبحٌ من المثال ، ضربناه لتقريب الامر عليك وكسر سورة الأستبعاد من ضيق المجال ، والاّ فيجلّ ذو العظمة والجلال عن ان تحكي عنه الاشباهُ او تُضرب له الامثال

اي برون ازوهم وقال وقيل من خاك برفرق من وتمثيل من

اين الممكن من الواجب ، واني تُقاس الاحجار السود بنيّر الوجود الثاقب ، بل اين مالك العظمة والجلال ، ممن لا يملك ان يقفَ عنده ولا بصفّ النعال ، سبحانك ماعرفناك حقّ معرفتك ، ولا عبدناك على مايحق لك ولا بعض عبادتك ، ولا انِستْ اناسيُّ العقول النوافذ بالوصول الى كنه احديّ صفاتك ، فكيف بقدسيّ احديّ ذاتك

آخرچه بلائي توكه در وصف نيائي بسيار بكفتيم ونكرديم بيانت

ولكنّي اعطف مقالتي على اخي في الدين ، قائلا له يا طالب الحق واليقين ، لا بدّ لي ان أُطهِر شراب توحيدك من شايبة دنس الشرك ، وانثر عليك لطائم البيان حتى تفوح منه نوافح المسك ، وحيث انّي قد جعلت على نفسي في صدر هذه الوجيزة ان اقرّب لك المطالب الغامضة والمعاني المشكلة المتعارضة ، بواضح من البيان ، محكم البرهان ، يعيد المعقول محسوسًا ، ووحشيّ المطالب الحكميَّة لذهنك مأنوسا ، وينتفع به العاميّ والعالم ، وعليل الفكر والسالم ، فلذلك عدلتُ عمّاً ذكره اساطين الحكمة من البراهين مخافة ان يصعب عليك فهمها ، ويرتجَ بباب الغموض دونك علمها ، ونذكر لك مالم نعثر عليه في شيء من كتبهم ولا تعرَّض له احدٌ من علمائهم على كثرة ما حرّروا وحبَّروا في هذه المسئلة ونحن بلطف الله وموهبته ، وتوفيقه ومعونته ، نبدي لك امورًا بديهية ، تؤدّيك قسرًا بضرورة الاعتراف بها الى ذلك الامر النظري فنقول والثقة بالله انا ننظر في نفوسنا ونتمثّل بها الامر ونتصوّره ولكن من غير الجهة التي ذكرناها ، وعلى غير تلك الصورة التي حكيناها ، وذلك انّ كل احد يجد من نفسه ضرورةً انها كانت جاهلة مهملة في ايام الصبا والشباب ، قبل

مراجعة الكتب والكتّاب ، ثم صارت بعد ذلك عالمة عارفة بعلوم ومعارف
شتى ثمّ يجدها كانت عاجزة ضعيفة ثم تمكنت بعد ذلك وقدرت على صنايع شتى
وافعال مختلفة ويجدها ايضا كانت اكمهة عميا ثم ابصرت ورأت صورا واشكالا
وخططا وبلدانا كثيره ويراها ايضا وكأنّها كانت خرساء صمّاء ثم نطقت وسمعت
اصواتا ونغمات والفاظا ولغات بانحاء وطرق متسعة وعلى هذا القياس في
ساير صفاتها وملكاتها ممّا لا نطيل عليك بتعداده ثم اذا نظرنا في هذه الحالات
والصفات ونسبناها الى نفوسنا وجدناها بضرورة العقل غير ذواتنا وليست
هي عين انفسنا ولا جزءٌ من حقايقنا وماهياتنا والاّ لوُجدتْ بوجودها
ولتصوّرتْ بتصوّرها وقد عرفتَ انّ نفوسنا كانت برهة من الزمان
موجودة وليست هذه فيها بمتحققة ولا ثابته وان كانت على التحقيق بعد
حصولها للنفس هي متحدة معها موجودة بوجودها بل في هذا التعبير ايضا
نوع مسامحه ولُباب الصواب انها من قبيل قوة الضعيف ، وكمال الناقص
النحيف ، ومن نحو سريان البرء في العليل ، لا من قبيل كثرة القليل ،
ومن نوع السعة في الشيء والتمام ، لا من نوع ضمة التركيب والانضمام ،
ولهذا قالت الحكما باتحاد العقل والعاقل والمعقول ، واقاموا عليه في محلّه براهينا
محكمة الاصول ، ولكن كلّ ذلك لا ينافي حكم العقل بالمغايرة ، بعد تحقق
الانفكاك بينهما لا المباينة والمنافرة ، فلا محالة يحكم العقل بزيادتها ومغايرتها
للذات كحكمهِ بمغايرة بعضها لبعض لما نجد ضرورةً من انفكاك بعضها عن
بعض فكم من عالم غير قادر وقادر غير عالم وسميع غير بصير وبصير غير
سميع الى غير ذلك ثم لا ريب انّا نجد بضرورة عقولنا انّ هذه الملكات
فضايل وكمالات وانّ عدمها فينا كان ضعفًا وضعه وخسةً ونقيصة وحيث
انها قد وجدت فينا لا عن قِدم ، وحدثت بعد العدم ، فلا نشك انه قد

اوجدها موجِدٌ ، وحصّلها ثابت متحصِّل ، فكما انّ ذوات وجود الممكنات لابدّ وان تنتهي الى موجود واجب بالذات فكذلك تلك الصفات فالعلم الممكن والقدرة الممكنة والحياة والسمع والبصر وغير ذلك من الصفات الحادثة لابد ان تنتهى وتوُجد بوجود علم وقدرة وحياة واجبات بنفسها غير حاصلة من غيرها كما كانت هي كذلك فينا فالحكم اذاً بوجوبها وقدمها مساوق للحكم بعدم زيادتها اذ سبيل الحكم بزيادتها فينا عروضها وحدوثها علينا والاّ فلا يخلو امّا ان يكون الواجب كل واحد منها فجميع ما تقدّم من براهين التوحيد تدفعه وتردّه او المجموع من حيث المجموع لزم التركيب في الواجب واحتاج الى مُركِّبٍ لأجزائه موءَلّفٍ جامع لشتاته فانقلب الواجب الي الممكن بعد الوجوب ، وهذا خلاف الفرض وعكس المطلوب ، فاذاً لامحيص للعقل من الحكم باتصاف الواجب بتلك النعوت الكمالية صونًا للذات المقدسة عن التعطيل من الحمد والثناء عليها بالصفات الجمالية والجلالية ومن كونها في الواقع ونفس الامر نفس ذاته لا بمعنى انَّ ذاته جلّ شانها هي هذا المعنى الذي نتصوّره من لفظ العلم والقدرة والحياة وغيرها تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا بل بمعنى انّ تلك الذات الاحدية البسيطة على بساطتها ، ومن سعة جامعيتها للكمالات واحاطتها ، ثابتٌ لها هذا الكمال وذاك الكمال وكل كمال فانا لمّا وجدنا فينا العلم وعرفنا احتياجه الى موجد هو في العلم اكمل منا قلنا هو بذاته عالم لا بعلم زائد والاّ لكان محتاجًا الى موجد لعلمه تعالى الله كاحتياجنا فاعتبرنا الذات على اجمالها في الموضوع ثم حملنا العلم عليها بلحاظ التفصيل ثم قيدناّه بقولنا بذاته حذرًا من ان يتطرق احتمال كونه كقولنا معاذ الله زيد عالم فجميع تلك الصفات من العالم والقادر والحيّ وغير

ذلك حاكية عن تلك الذات المقدّسة البسيطة باعتبار تعينات كمالاتها الخاصه فالرحمن يدل على تلك الذات باعتبار ترتب اثار الرحمة عليها والفيض منها وكذلك ساير الاسماء الخاصة كما انّ لفظ الجلالة دالٌّ على تلك الذات باعتبار جامعيتها على نحو البساطة والوحده لجميع الكمالات وقد ظهر لك من جميع ذلك انّ الصفات الزايدة منفيه ' والذاتيةُ له ثابته على سبيل العينيه ' اذ ثبوت تلك يستلزم الحدوث او الشرك ونفي هذه يستلزم التعطيل بل التعطيل لازم لكلا الوجهين كما لا يخفى وهذا هو المراد من قول مولانا الصادق سلام الله عليه (لم يزل الله ربنا والعلم ذاته والقدرة ذاته) كما مرّ في الحديث المتقدّم اي انّ العلم والقدرة وغيرها من الكمالات الوجودية ثابتة له ولكن غير زايدة عليه بل هي ذاته واليه يومي ويشير بقوله « ع » في حديثٍ آخر بل في احاديث مضمونها بل لفظها (من عبد الاسم دون المعنى او دون المسمّى فقد كفر ومن عبد الاسم والمسمى فقد اشرك ومن عبد المسمى دون الاسم فذاك هو المؤمن) وقد همّ ائمتنا الاطهار « ص » شأنُ هذه المسئلة اشدّ الاهتمام ' وورد عنهم من الادلّة والبراهين في ضمن الخطب والاخبار ما يُلزم بها اعظم الألزام وما ذاك الاّ من جهة انّ الألتزام بخلافها هو على حدّ الشرك بالله بل الكفر به وبنعمه ' عصمنا الله بلطفه وكرمه ' ومن بليغ ما وردفيها مافي نهج البلاغة من خطبة طويلة لمولانا وامامنا مولى العارفين وامام الموحدّين ذكر فيها صلوات الله عليه ما يدلّ على نفي زيادة الصفات بابلغ وجه وأكدِه نذكر منها بعض كلماتها الشريفة قال سلام الله عليه (اولُ الدين معرفتهُ وكمالُ المعرفة التصديقُ به وكمالُ التصديق به توحيدُه وكمالُ التوحيد الاخلاص له وكمال الأخلاص له نفي الصفات عنه لشهادة كل

صفة انها غير الموصوف وشهادة كل موصوف انه غير الصفة فمن وصفه سبحانه فقد قرنه ومن قرنه فقد ثنّاه ومن ثنّاه فقد جزّاه ومن جزاه فقد جهله ومن اشار اليه فقد حدّه ومن حدّه فقد عدّه ومن قال فِيمَ فقد ضمنه ومن قال علي مَ فقد اخلى منه) انتهى ما اردنا من كلامه ، ومعجز نظامه ، فانظر كيف سجّل تلك المقدمات كلّها لنفي زيادة الصفة وعقّبها بتلك الفقرات الموجزة المشتملة على البراهين المحكمات ، والقضايا المسلمات ، المبينة لمراده من نفي الصفة وانّ المقصود من نفيها عدم ثبوتها له على نحو يستلزم الحدوث الذي هو فرع الزيادة كما عرفت واقسم قسم صدق ، ويمين حق ، برب تلك البلاغة المعجزه ، ونبيّ تلك البراهين المتقنة على التوحيد في هاتيك الفقرات الموجزه ، انه لو لم يكن للاسلام دليل حق ، وبرهان صدق ، الاّ كلماته وامثالها من كلمات النبيّ واولاده المعصومين «ص» لكفى في وجوب اتباعه ، وعلوّه بالحق وارتفاعه فانّ رجلاً نشأ وشبّاً ، وتدرّب وتربىّ ، بين قومٍ من العُرب والاعراب ، ليس لهم من شيء من العلوم لاسيما الالهية نصيب ولا نصاب ، ثم يأتي ذلك الواحد منهم بهذه الاعاجيب ، ويصبّ تلك البراهين الحكمية بهذه الاساليب ، من غير ان يكون قد ساح وسار ، او ضرب في الاقطار والامصار ، او جاءه معلّمٌ من البشر فادّبه ، او حكيمٌ متألّه فدرّبه ، او ادخله ابوه او جدّه مدرسة او مكتبه ،

نِگار من كه بمكتب نرفت وخط ننوشت
بغمزه مسئله آموز صد مدرِّس شد

وهو مع ذلك لايزال يُملي على الناس طول عمره العلوم السياسيه ، والمعارف الألهيه ، باقوم بيان واقوى برهان ولا اجدني مُفرطًا مغاليا ، ولا في القول مُتعاليا ، لو قلت انهُ لو اجتمعت الحكماء الأساطين ، من الاولين

والآخرين، من الفرس واليونانيين، والاشوريين والفهلويين والمشائين والاشراقيين الى غير ذلك من الطبقات، واعانهم في البيان فصحاء جميع اللغات، على ان يأتوا بخطبةٍ من خطبه الشهيره، لا بل بفصل من فصولها الخطيره، لو فقوا حيارى، واعترفوا اِقرارا، وماوجدوا الا الي العجز مصير! ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا، اِحضر بقلبك، وانظر بلبك، واصغ بسمع فوادك، ولا تبغ سوى الحق بجدك واجتهادك، وتأمل في قوله (ع) من خطبة اخرى من النهج تعرض فيها لابطال زيادة الصفة ايضًا حيث يقول (من وصفه فقد حدّه) (ومن حدّه فقد عدّه) (ومن عدّه فقد ابطل ازله) (ومن قال كيف فقد استوصفه) (ومن قال اين فقد حيزّه) (عالمٌ اذلا معلوم) (وربٌ اذلا مربوب) (وقادرٌ اذلا مقدور) (يقول المستضيء بانواره، الراجي منه عزّ شأنه ان يجعله من المقتدين بآثاره، انك لو اعطيت التأمل حقه في هذه الكلمات وامثالها من خطبه، في التوحيد والموعظه، وسايرالعلوم لخشيتُ عليك ان تنشق قلبًا، وتتمزق عجبًا وعجبا، ولعلمتَ علمًا يقينيا، ووجدت وُجدانا حسيًّا، بعد ملاحظة تلك الجهات الواضحه، والدلالات اللايحه، من تصفح احوال تلك الذات الكريمه، وكمالاتها الجسيمه، مع عدم رجوعه الى مؤدّب معلمٍ ولا مراجعته لشيء من الكتب حادثة اوقديمه، وما اراك مع هذا كله تقول الا ان له معلمٌ الهيّ، وانه ينتهي الى عالم غير متناهي، والا فمن اين عرف هذا العربيُّ البحت، الناشي بين امةٍ تعبدُ الحجارة بعد النحت، انّ الوصف يوجب الحدّيه، وانّ الحدّ ينافي الأحديه وانّ العدّ والاثنينيه، يبطلان القِدم والازليه، الى غير ذلك مما صرفت حكماء اليونان وغيرهم في تحصيله اعمارها، واتعبت في البحث عنه عقولها وافكارها، وقضت في تعليمه وتعلّمه والتصنيف فيه ليلها ونهارها، وهو

«ص» يجيء به على صرف طبعه وترسّله من دون اتعاب فكرته وتأمله فكانما يُملى عليه فيمليه ' او يقرأ في كتابٍ قد اُدرج كلّ ذلك فيه ' اويلوح له لوح سُطرت تلك المعارف في مطاويه ' لا بل كانه يجري من سلسال او ينحدر من جبال ' او يفيض من ينبوع ' فتراها مع انّها على البديهة والارتجال ' في غاية السهولة والاسترسال ' على انها محكمة البراهين والمعاني ' جزلة الالفاظ والمباني ' تزّف لك من النفايس عرايس ' ومن الفرايد خرايد ' تملأك بهجة ونورا ' وتملؤ لك كاسا تسقيك به شرابًا طهورا ' فيها برد الغليل ' وبرء العليل ' وشفاء الداء الدخيل ' وعلى العلاَّت فمن لي بان انعت فضلها ' الاَّ اذا أُعطيت قوةً مثلها ' ولكن ما اظنك اذا اعطيتَ الانصاف حقه ودقَّقت النظر في هذا المقام ' الاَّ مستسلما في نفسك لحقية مذهب الاسلام ' عارفًا بانّ له سرًّا عظيما وخطرا كبيرا ' فانّ لكل حقٍّ حقيقه وعلى كل صوابٍ نورا ' واني وحرمة الصدق وكلمتهِ ' والحق وذمتهِ ' لأعجب من اهل الفضل والكمال من علماء اليهود والنصارى ' ممن احرزوا بحريّة الافكار وصحة الضماير صيتًا وفخارا ' واستخرجوا من العلوم والصنايع ' ماليس لامره في الزمن الماضي مضارع ' ومع ذلك كيف تساهلوا في امر الدين ' وتغافلوا عن طلب الحقّ المبين ' وبماذا يُجيبُ اهل النَصف منهم اذا احتجّ الاسلام بمثل هذه الآية التي لا تُبارى ' والحجةِ التي لا يستطيعون لها ردًا ولا انكارا ' واعجبُ من ذلك من قدَّم عليها في الاسلام سواها ' وعدل بها من لم يقاربها في الفضل فضلاً عن ان يكون قد ساواها ' (ولكنك لا تهدي من احببت ولكن الله يهدي من يشاء) فنسأله تعالى الهداية لنا ولكافة عباده ' والسعي لما يسعف برضاه ومراده ' وقد جرَّنا استطراد الكلام في

المقاله، الى الخروج عمّا هو الغرض بالاصاله، ولكن يشهد الله تعالى انه ما حدانا على ذلك الا حبّ النصيحه، والشفقة بابناء النوع وان أبدي لهم المذهب الحقّ والكلمة الصحيحة، (والله على ما نقول وكيل)(١)

ولنعد الى تمام المسئلة التي كنا فيها فنقول قد تجلّى بحمد الله عليك، واتضح وضوح الشمس لديك، انّ القول بعينية الصفات، وعدم زيادتها على الذات، هو المذهب الصحيح، والحقّ الصريح، الوافي بتمام التقديس والتنزيه المتجافي عن نقيصتي التعطيل والتشبيه، وانه هو السراطُ المستقيم والقولُ المتوسط، بين مقالتي المُفرِط والمُفرّط، اذ كما انّ بعضاً قال بزيادة الصفات، ووجوبها وانفصالها عن الذات، وقد عرفت بما لا مزيد عليه فساده، وانه ينجرّ الى الكفر والالحاد، فاعلم انّ في مقابله قولاً

(١) هذا ويحسن هنا ان انبهك على شيء وهو ان الامامية ماانفردوا بما اعتقدوا من وحدة الصفات مع الذات والرد والمناكره لما قالت الاشاعره فقد اصاب في ذلك بعض الرُشد الفاضل الاندلسي (ابن رُشد) راجع رسالته الموسومه بمناهج الادله في عقايد المله المتحلية بزينة الطبع فى القاهره حيث قال فى باب الصفات مانصّه فان الاشعريه يقولون ان هذه الصفات هي صفات معنويه وهي صفات زايدة على الذات فيقولون انه عالم بعلم زايد على ذاته وحي بحياة زايده كالحال فى الشاهد ويلزمهم على هذا ان يكون الخالق جسما الى آخر كلامه وهو وان اضطرّه القصور آخر الامر الى الجمود عن اصابة الحق والفتور ولكنه قد اصاب الصواب فى التخلص من تلك الضلاله ووقوف المرء دون مايجهل خير من التقحُم على جهاله — ثم لايخفى عليك ان ابن رشد قد افرط في دعوى ان تلك المقالة اعني زيادة الصفات تشبه مقالة النصارى فى دعوى الاقانيم وقولهم (اقانيم ثلثه الهٌ واحد) وللكلام مع ارباب هذه المقاله وبيان تناقضها وتهافتها واستحالتها مقام آخر على انّ جميع ماتقدّم كافٍ في استحالة التركيب ومطلق التعدد والتجزية والتحليل في ذات الواجب — تثليثا كان اوتثميناً او غيرهما ولا فرق في ذلك بين الذات والصفات حيث تكون منتزعة من نفس الذات فتدبر

يضاهيه في وضوح الفساد ، وهو مذهبُ من قال باتحاد الصفات مع الذات مفهوماً وخارجاً وانّ قولنا الله (جلت عظمته) عالم قادر حي حكيمٌ الى آخرها مترادفة مع الذات كترادف بعضها مع بعض فهي بمنزلة قولك الله الله وهذا مخالفُ لضرورة الادراك والوجدان مضافا الى استلزامهِ التعطيل كالأول ولا حجة لهم في تلك الاخبار والخُطب الشريفه كقوله وكمال الاخلاص له نفيُ الصفات اذ هو بمقتضى التعليل بقوله «ع» (لشهادة كل موصوف انه غير الصفة الخ) صريحٌ في انّ المراد نفيها باعتبار الزياده المستلزم للحدوث لا النفي المطلق كيف وهو تعطيل للذات عن جميع الكمالات وقد وردت عنهم «ع» اخبارٌ فوق حدّ الاحصاء ، في النهي عن التعطيل والتشبيه لما فيه من سدّ باب الحمد لله والثناء والمجد والبهاء ، وعليه فجميع ما في الخطب والادعية وسائر الاستعمالات ، من التحميد والتمجيد والمناجاة ، تكلفاتٌ بارده ، او مفرداتٌ بلا فائده ، وهذا مما لا يرتضيه عاقلٌ لنفسه الاّ ان يكون مغلوبا على عقله وحسّه ، وبالجملة فهذا القول في الشناعة كالسابق بل اشنع ، وان تخيّل قايله انّه الى خلوص التوحيد اقربُ ولِشوايب الشرك اقطع ، ولكنك قد عرفت انّ مفاسده وبليّته افظع ، وانت اذا عرفت الحقّ بفضل الله ودريت ، فلا يضرّك من ضلّ اذا اهتديت ، ولكن حفظاً لناموس شرف الانسان ، ورغبةً في النصيحة والاحسان ، يلزمك اذا عثرتَ بأحدِ ارباب هذين القولين ، ان تُقيلهما بالله العثرات وتريهما الحقّ رأي العين ، تاليًا عليهما ماتلوناه عليك فان اصابا الحقّ بهِ وبمثله ، فاحمد الله على ذلك فانه بمنّه وفضله ، وان وجدتهما مأسورين في سلاسل العصبيه ، مسجونين في سجن الجهل والجاهليه ، فجادلهما بالرأفة والرعايه ، واسأل لهما من الله الهدايه ، واتلو عليهما عسى

ان يخاصا من ذلك السجن ببركة هذه الآية ، وقل لهما ياصاحبي السجن ءارباب متفرقون خير ام الله الواحد القهار) (ما تعبدون من دونه الا اسماء سميتموها انتم وآبائكم ما انزل الله بها من سلطان ان الحكم الا لله امر ان لاتعبدوا الا اياه ولكن اكثر الناس لايعلمون) فانها هي النهاية في هذا الباب ، والغاية في الدلالة على تعيين الحق والصواب ، وبعد هذا كله ، فقد ثبت بمن الله وفضله ، ما اردنا اثباته من انه جل شانه وبهر سلطانه ، عالم بالاشياء بنفس ذاته لا بعلم زايد وقادر على كل شيء لابقدرة زايده وسميع لا بسمع وبصير لاببصر وفاعل لا بآله ، ومدرك لابحاسه (ذلكم الله ربكم لااله الا هو فانى تؤفكون) ثم انا وان اطلنا الكلام ، في هذا المقام ، بما لا مزيد عليه في ايضاح المرام ، ولكن بعد هنا مباحث ومطالب جليله ، فيها خيرات حسان وفيوضات جزيله ، عدلنا عنها حيث ان القصد بالاصاله ، من وضع هذه الرساله ، هو بيان خصوص ما يجب على عامة المكلفين اعتقاده ويكفيهم في مقام التوحيد الذاتي والصفاتي والافعالي انه تعالى واحد في الالهية ، فرد في الربوبية ، احدي الذات ، لا مجال فيه للتركيب والتأليف من الاجزاء والادوات ، ولا سبيل لانتزاع الحدود منه والماهيات ، لا عقلاً ولا ذهنًا ولا خارجًا وانه عز ذكره متصف على وحدته وبساطته بكل جميل منزه مقدس عن كل قبيح وانه لا مؤثر في عوالم الوجود والايجاد سواه وسبيل ذلك كله يستبين من القول واليقين بوجوب وجوده ووحدانيته وقد صفينا لك من سجال المعارف الالهية هنا نميرا غدقا ومنهلا مروقا ووصفنا لك من نعوت التوحيد كل قريب وبعيد واستقدناك الى غاية من طرق ادلته الثلثه التي لااحسب خفاء تطبيقها عليك نعم لو اردت الترقي في مدارج اليقين والمعرفة

والعروج في تلك المعارج من غرفةٍ الى غرفة ، فعليك بعد الاخلاص والمحافظة على آداب الشرايع المقدّسة باستفادة تلك المعارف من اهلها ، وطلبها من محلها ، والله هو الموفّق والمعين (والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سُبلنا وان ّالله لمع المحسنين)

قف معي هنا هنيئة ريثما اوفيك فلسفة تلك الفصول وخلاصة تلك الابحاث وذاك انك عرفت حسبما قدّمناه لك انّ اصل الايمان واليقين بوجود الصانع في الجمله امرٌ قد فُطرت طبايع البشر عليه وانقادت بضرورة عقولها اليه ولم تحتج فيه الى اِنزال الكتب وارسال الرسل وليس من اجله وجب في العناية ذلك بل ما وُجدت في العالم امةٌ من الامم من بدء الخليقه الى يومك هذا انكرتِ الصانع او جحدتْ به حتى الطبيعيون والدهريون وعبدة الاصنام من المشركين وساير الوثنيين فان الجميع قالوا بثبوت قوة مدبّرة لا تُدرك بحقيقتها ولا تتكيَّف بكنهها وانها هي التي تتصرّف في الكاينات على قوانين ملتئمه ونواميس منتظمه وكلٌ يعبر عن تلك القوّة بعباره ويشير اليها باشاره (ولئن سألتهم من خلق السموات والارض ليقولنّ الله) ولكن العباد بعد العلم بتحققه وثبوته اغاضلّت في طريق معرفته وتاهت في سبيل عبادته وطاعته وحارت فيما ينبغي له ويجب من الحمد والثناء والرغبة اليه والدعاء ووقفت عن تعيين اسباب الزلفى عنده والقرب اليه والوفود بالكرامة عليه وعقولُ البشر ولا تسل عن مقدار ضعفها تعجز عن حمل اثقال الأحديه والنهوض باطواد الأزليه وتنحطُّ عن العروج الى اوج الادراك لذاتٍ ترفّعت عن الزمان والمكان والنهاية والشبه والمثيل والمثال وامثال هذه وهي لاترى الاّ محفوفا بذلك مغموراً بما هنالك فمنْ اجل شدة البعد عن ساحته والعجز عن كمال معرفته بُعدَ الممكن عن الواجب وعجزَ المادّي عن المجرّد والنفوسُ مجبولةٌ على معرفة ما هو من سنخها وادراك ماهو قريب منها لذلك عبدوا واطاعوا غيره بحسبانه من بشر او حجر او حيوان او املاك اوكواكب او غيرها ثم بعد مراجعة عقولهم ومطالعة وُجدانا تهم في انّ تلك ذواتٌ مثلهم مخلوقه وبالعدم مسبوقه مهّدوا لانفسهم عذرا فجمعوا شركا وكفرا وقالوا مانعبدهم الاّ ليقرّبونا الى الله زلفى فنظرا الى انتشالهم من هوّة الكفر وشَرَك الشرك والهلاك المؤبّد قضتِ العناية الازلية والرحمة الواسعة بارسال الرسل وبعثة الانبياء ونصب الاوصياء وانزال الكتب ليقودوا

الناس الى سبل المعرفة ، وطرق العبادة والطاعه ، ويعرّفوهم ماينبغي له ويليق به من الثناء والحمد ، والسناء والمجد ، وما به السعاده ، والنجاة والمفازه ، ومايتنتظم به شئون معاشهم ومعادهم — وجلُّ الغرض من هذه المقاله انَ ليس الجهد والعناء ، والسرّ من بعثة الانبيـاء ، دلالةُ الخلق وتعريفهم انّ لهم صانعاً اليـه يرجع الامر والخلق ، فانَّهامفطورةٌ عليه ، منقادةبالجبِلّة اليه ، وانما العناء كله ، والغرض جلّه من ذلك هو دلالة الخلق وارشـادهم الى ما يرتبكون فيه ولا يهتدون بانفسهم اليه من تعريفهم وتعليمهم صفات ذلك الصانعِ وإشراب قلوبهم وعقولهم توحيـده وتمجيده وتخليص العباد من شوايب الشرك واستنقاذهم من لحودالالْحاد إخلاصاً لهبالطاعه ، وإفرادا له بالعبوديه ، وتوحيداً له بالربوبيه — ولكن ويلُ أُمّ البشر وقُتِلَ الانسان ما اكفره ، وتعساً للمرء ما اجهله ، ينقاد الى شرّ الشرك بشعرة مع وضوح بطلانه ، ولا ينجذب الى بركة التوحيد بالف شطن مع سطوع برهـانه ، (ولقد صدّق عليهم ابليسُ ظَنَّه فاتبعوه وماله عليهم من سلطان) — ماذهب موسى لميقات ربه حتى اتَّخذ قومه العجل من بعده وجعلوه آلها — وما ارتفع عيسى الى السماء حتى جعلته النصارى مع الله اقنوماوربّاً ودعوهما ابا وابنا — وما غاب محمد للقاء ربّه حتى اختلفت امته في وصيّهفقومٌ جهلوا مقامهوانتزعوه وِسامه ثمَّ دانَ اللهَ بعضُهم ببغضه وزاغ ونزغ فريقٌ الى كفره وشركه معاذ الله كالخوارج والنواصب — وضلّ آخرون كابن سبا واصحابه فغلوا فيه حتى جعلوه آلها وخالقا طباقا لما اخبره به رسول الله ص ممّا استفاض عنه من قوله له (ياعلي يهلك فيك اثنان محبٌّ غالي ومبغض قالي) ومعرفةُ التوسط في الامور عزيزه واستقامة السير عليه اعزّ (ولكن حقّ القول منيّ لاملئنّ جهنّم من الجنَّـة والناس اجمعين) فتدبّر هذه النفثه واغتنمها واجعلها خاتمة تلك المباحث راغباً الى الله في حسن الخاتمه لنا ولك وان يجعلنا من الوافدين عليه بالثبات على شهادة (ان لا اله الاّ الله لا نعبد الاّ اياه مخلصين له الدين ولو كره المشركون) وسيـأتي زيادة بسط لهذه المقالة في الجزء الثاني عند التعرض لمسئلة الاقانيم انشاء الله تعالى

﴿ عدل ساعة خير من عبادة سبعين سنة ﴾

الفصل الثالث

﴿ في العدل بمعنى وضع الشيء في محله ، واعطاء الحق لمستحقه والعدلُ ﴾
﴿ ميزان الله بين خلقه ، وبالعدل قامت السموات وثبتت ﴾
﴿ الارض حيث اوجدهما العدلُ الحكيم على طبقه ، وما ﴾
﴿ ادري باي لسان اثني على العدل وماذا اقول ﴾

بعد ماقضت الضرورة بعظيم شرفه وتطابق على وجوبه المعقول والمنقول ، حتى صار من اوضح موارد احكام العقل ، فيما انفرد به واستقل ، ولم يتوقف على شارع مله ، ولا على واضع نحله ، بل مما اتضح وتجلى ، ان العقل يحكمُ مستقلاً ، بوجوب العدل وحسن الاحسان ، وحرمة الظلم وقبح العدوان ، كيف و(العدل) روح المدنية ، وحياة الانسانيه ، ونفوذ قوى المملكه ، وترياق سمومها المهلكه (العدل) مطلع شموس الرحمه ، ومنبع عيون الحكمه ، والسلطنة والسلطه ، والمنفعة والغبطه ، والعلو والرفعه ، والحصون والمنعه ، والمساجد والقلعه ، والبيتُ والحرم ، والكعبة والأمم ، والجيش والسريه ، والقسمة بالسويه ، والرعايةُ للرعيه ، والعسكر والجنود ، والرايات والبنود ، والطبل والعَلم ، والحكم والحِكم ، والمال والجبايه ، والخراج والجرايه ، والقايد والزعيم ، والحاكم والحكيم ، (العدل) ظلُّ الله في ارضه ، والحاكم في بسطه وقبضه ، اليه يأوي الضعفاء ، وبه يلوذ الفقراء ، وفيه ينتصف المظلوم ، وبه يرزق المحروم ، ومنه تشرق شمس المعارف والعلوم ، (العدل) خصب البلاد ، وامن العباد ، ومُعطي الواحد من الرعية قوى الآحاد ، وقوة الأجناد (العدل) هو الشوكة والقوة ،

والبهاء والسطوة ، والرأفة والمروّة ، والصدق والفتوه ، والمفازة والحظوه (العدل) مدافعُ وسيوف ، ومدارعُ وحتوف ، وجيش وصفوف ، والثابت كلُّ واحدٍ به ثباتَ الالوف (العدل) هو الزرع والنماء ، والريّ والرِواء وسيحُ الارض وسحُّ السماء (العدل) نظام شتات الامّه ، ومنبع الفضايل الجمَّه ، وسحاب سماء الرحمه ، وجماع تفارق الكلمه ، وطلاعُ تسامق العظمه (العدل) نواميس الحياة ، ومقاييس البركات (العدل) هو الحرز في المهالك ، والحَرَسُ للقوافل في الفيافي والمسالك ، والعسعس اذا عسعس الليل بالظلام الحالك (العدل) سُلمّ السلامه ، ومعراج كل كرامه ، والظلم ظلمات يوم القيمه ، (العدل) منبع البركه ، والظلم موضع الهلكه (العدل) هو الرقيُّ للسعادة والرقا ، والظلم هو الشقيُّ وبه العاهة والشقا (العدل) به قوتِ الدول الضعيفه ، واستفحلت الأمم المخنَّثة السخيفه ، وعُرفت الممالك الخاملة الغير المعروفة ، وتألفت الشعوب المتفرقة ، وامِنت واخافت وكانت هي الخايفة الفرِقه ، ونبهت بعد الخمول ، وطلعت بعد الافول ، وترقّت بعد الضعه ، واخذت غِبِّ الضيق بالسعه ، وعادت بالثروة والرفاهية منفرجه ، بعد ان كانت حرِجه ، وعزّت بعد الذله ، ولبست من العلوم والصنايع ابهى حُله ، وانِست بالتمدُّن وكانت وحشيه ورست قواعدها على العلم والتعلمّ وكانت امّا حِشويه و(الظلم) ابعدالله داره ، واخمد ناره ، به ذلَّ الاسلام بعدالعزّه ، وخفتَ صوتهُ بعدالصيت وعظيم الهزه (تالله) لاينطلق لساني ولا يطيق احصائي ، لِتعداد ما جرى على ملك قومي وملك آبائي ، وما جهَّمَ محيًّا مساعي بها ليل الحق من سادتي وزُعمائي ، وما هجم على حصون الدين المنيعة التي اقامت قواعدها أئمةالهدى من اوليائي ، التي بنوها بالجماجم ، وسقوها من دمائهم بالطوس لا المحاجم ،

فذرني وشجوني ، ودمع عيوني وشئوني ، فها انا ذا واليأس يميتني والرجاء يحييني ، والمقال ينشرني والفعال تطويني ، حتى يظهر الحقّ اهلهُ ، وينشر القسطُ عدلَه ، فلا تسلني عن شاني ، ودعني واحزاني

فلم أرَ مثل العدل للمالك رافعا ولم ارَ مثل الجور للمالك واضعا

ياداوُد انّا جعلناك خليفة في الارض و فاحكم بين الناس بالعدل فانه على ولاة الأمر اعظم كلّ فرض ، انّ الله يأمر بالعدل ومن لم يسعه العدل فبالاحسان ، (فاعدلوا هو اقرب للتقوى) بل هو عين التقوى وحقيقة الايمان ، فبالعدل تُنزِلُ السماء غيوثها بالبركات ، وتظهر الارضُ معادن خزاين الخيرات ، وترتع الحيوانات ، ويمرع النبات ، وبهِ يتوفر النماء وتتضاعف الاشياء ، فيدرّ الضرع ، وينمو الزرع * وُجدَ في خزاين كسرى انوشروان العادل ، سفطٌ حسبوا انّ فيه بعض الاحجار التي ليس لها معادل ، ومذ فتحوه وجدوا فيه حبةً كاكبر مايكون من النواة ومعها رقعه مكتوب فيها هذه حبةُ رمّانٍ عمل في خراجه بالعدل فجاء بهذه الرقعه ، ومثل ذلك يشهد لِما يحكى عنه حين كظّه الظما ، فجاء الى بستانٍ عصرَ له صاحبها بعض رمّانةٍ فعاد القدحُ بها مفعما ، فنوى الملكُ في نفسه ، ان يزيد في خراجه وطقسه ، فلماّ اراد الخروج امرَهُ بقطع رمّانة اخرى ، فعصرها بحضرة الملك فكان ماؤها قليلا نزرا ، فسألهُ والرجل لا يعرف انهُ الملكُ فقال لعلّ الملك في مكانهِ ، قد عزم اوحكم بتغيير عادتهِ من عدلهِ واحسانهِ فانّا لانعرف سببا لِنموّ هذه الثمار واِسعافها ، الاّ من عدل الملوك واِنصافها ومن هنا لايبعد صحّة مايروى عن سيد الأواخر في العدل والأوائل ، انهُ قال مبتهجا وُلدت في زمان الملك العادل * واعجب من ذلك ما يحكى انّ الملك المكين ، السلطان محمود سبكتكين ، ارسل الى بعض ملوك الهند او الصين

رسولا يسأله ماسبب طول اعماركم مع جحودكم للصانع وتكذيبكم للرسل والوسايط ونحن قصار الأعمار مع تصديقنا وايماننا فحبس الملك في بلده رسول السلطان وابقاه. بعد ان قربه وادناه. وقال له لا اجيب عن سوءالك حتى تنقلع هذه الشجرة المثمره من نفسها. وتنقطع من اصول غرسها. فبقي الرسول على ذلك زمانا وقد ضاق صدره وامتلأ احزانا. من الحبس والأنتظار. والفرقة وبعد الدار. فصار في ساير وقته يعمل افكاره ليله ونهاره. في السبيل الى قلع تلك الشجرة فبيناهو كذلك اذ سمع هدّة عظيمه والناس يهرعون. واليها يفزعون. فجاء معهم واذا بتلك الشجرة قد قُلعت من اصولها وقِرارها . ووقعت على الارض باثمارها . فسعى الى الملك قائلا بشراي فقد نجحت آمالى . فهاتني جواب سوألي . فقال له اذهب فقل له هذه همة مظلوم واحد قد اثرّت في قلع شجرة عظيمة فكيف لا تؤثر في قلع اعمار الظالمين همم جماعةٍ من الناس مظلومه . ودعاء المظلومين محمول على الغمام . وانفاسهم عندنا مؤثرة كتاثير ارباب الاستسقاء في الأفلاك العظام . ومثل هذا كثير لا يعدّ (١) فلا نخرج اكثر من هذا عن الصدد * والغرض ان العدل وما ادراك ما العدل حتمٌ على الخالق

(١) ويكفيك هنا مناقصة واحدة وهي ما حكاه ابن طباطبا المعروف بالفخري في تاريخه الموسوم بالآداب السلطانية من انه لما فتح السلطان هلاكو خان التتاري المجوسي الوثني بغداد سنة ٦٥٦ امر ان يستفتى من علماء العراق انه ايّ افضل السلطان الكافر العادل ام السلطان المسلم الجاير وايهما احق بامر الخلافة فجمعوا العلماء في المستنصرية ولما وقفوا على الاستفتاء احجموا عن الفتيا وكان السيد الحسني الحلي الامامي العابد الزاهد الشهير برضي الدين «علي» ابن طاوس «رض» حاضرا وكان مقدما محترما في علماء العراق فتناول الاستفتاء ووضع خطه فيه بتفضيل الكافر العادل فوضعت العلماء فيه خطوطهم بعده بلا توقف ولا غرابة في ذلك بعد ماروي عن سيد الكاينات من جوامع كلمه من قوله صلوات الله عليه يبقى الملك بالعدل مع الكفر ولا يبقى بالجور مع الايمان

والمخلوق. وفرض على الرازق والمرزوق ولطف بين العابد والمعبود. ونصف بين القاصد والمقصود. ما خرج شيء عن حيطته ولا اتّسع شيء بعد رحمة الله كسعته. وهو من الحقوق المتوازنة المتضاعفه والنسب المكرّرة المتضايفه. فكما يجب على الله بحسب لطفه وكرمه. وغناه وعظمه. ان يعدل في خلقه. ويوصل كل ذي حق الى حقه. هو الذي آتى كل نفس هداها (واعطى كلّ شيء خلقه ثم هدى) ولا يظلم ربك احدا. فكذا يجب على الخلق معاملته بالعدل والخروج ممّا يجب له عليهم بحسب وسعهم وطاقتهم. وما هو الاّ لتحصيل استعدادهم لسعادتهم والاّ فهو الغنيّ عن طاعتهم وعبادتهم

ويتفرّع هذ العدل على عدل الانسان في نفسه. بحسب مرتبة عقله وحسّه. بان يرشدها العقل الى ما فيه صلاحها ونجاحها. وتحصيل العلوم النافعة الكاملة. والتخلق بالاخلاق الكريمة الفاضله. والترفع عن السجايا الذميمة السافله. ومداومة الصدق. وملازمة الحقّ. قولاً وفعلا. وعلما وعملا. وقلبًا وقالبا. حاضرًا وغايبا. خفيةً وجهرا. علانيةً وسرّا

والميزان في كل ذلك من تعيين المحاسن والمقابح. والمفاسد والمصالح والنافع والضارّ. والضعة والفخار. هو العقل فقد عرفت انه هو الحكم العدل. الذي اليه المرجع في هذه الامور وعليه المعول. فحق النفس عليه وعدله فيها. ارشادها ودلالتها على محاسنها ومساويها. وما يسعدها ويشقيها. ويهلكها وينجيها. وحقه عليها وعدلها معه. الرجوع اليه والمراجعة والانقياد له والمطاوعة. والاخذ باحكامه والوقوف على ما يرد عليها من ناحيته ومقامه. فانّ علومه عن تعليم. واحكامه من لدن عليم حكيم فاذا وقعت بين العقل والنفس هذه المعادله. وحصل الصلح بينهما ولزمت تلك المعامله. وقام كلٌّ بما يجب عليه من وظيفته. وعمل كلّ منهما على

شاكلته . واخذت النفس بالسير على تلك الدلالة . فقد تمت لها جميع مراتب العـداله . وادّت كل ما عليها من الحقوق . للخالق و المخلوق لامحاله .و حينئذفقد صار الانسان انسانا كاملا . وملكا عادلا . وخيّرًا فاضلا . مصدرا للخيرات . وغوثا يعمُّ منه النفع والبركات . وهذه هي اعلى مراتب العداله . ولكنَّها لا تحصل الاّ للاوحديّ من الناس ممن اختاره الله واصطفاه . وانتجبه وارتضاه . واستحق خلافته على عباده . وولاية الامر في بلاده . اذ معرفة تلك الحقوق تفاصيلا وجملا .واسبابا وعللا . وتمييزالراجح منها والأرجح . والصالح والأصلح. معما هي عليه من الكثرة والوفور والتشعب . والاختلاف بحسب الازمنة والاحوال والتغير والتقلب . والتعارض والتزاحم.والتدافع والتصادم.فاستحضارُ جميع ذلك في نفسه فضلا عن العمل به امرٌ عسير . ومرمى خطير.ومقامٌ شاسع ومجالٌ واسع . وعظيم منزلة ورفيع مرتبه . لا تحصل الا بمنحة من الله وموهبه . لمن خصَّه اللهمن عبادهبالكمال . وخلَّصهمن شوايب النقص في الافعال والاقوال . حتى صار لا يخيس ولا يظلم حقا من الحقوق. للخالق او لنفسه او للمخلوق . وذاك هو الذي جعل الله التصرف في الامور كفالته . ورياسة الدين والدنيا حوالته . واوجب على عامة الخلق طاعته وولايته . وما ذاك الاّ لأنه جلّ شانه نزّهه كما نزّه نفسه عن الظلم واكمل عدالته (والله اعلم حيث يجعل رسالته)وحيثانّ ذلكالاستعداد وتلك القابليه . من الملكات النفسانيه . والمعاني الخفية الباطنية . التي لاتشاهدها الحواس ولا يطلع عليها الخاصة فضلاعن عامة الناس. اذليست تلك العدالةالكامله مماّ تقع عليهاالعين، ولا تُعرف بالافعال الجميلة مرّةً اومرتين . بل هي رابطة إلٓهيه . وملكة قدسيه

ومن هنا قالت الفرقة الامامية ولعلها اصابت. واستيقنت وما استرابت انه لا بد لصاحب تلك الولاية العامه . والرياسة المطلقة من تعيينٍ عليه ودلاله . ونصّ من صاحب الوحي والرساله . اذ هو الشريك له في تلك المرحله، بل الاعلى منه منزله. والمحيط به خُبرا . والمطّلع عليه علانية وسرا

ثم اذا فاتت على الخلق هذه النعمة . وسُدت دونهم باب هذه الرحمة لأسبابٍ يطول بل يعسر بيانها . ويرجح بل يلزم في مذهبي كتمانها . وجب ان يتولىّ على الرّعية الأقرب فالاقرب اليه عدلا . والاشبه فالاشبه به سيرة قولا وفعلا، وكلّما امتدّ باع الولاية والامارة . واتّسع نطاق السلطة والأداره . اشتدّت الحاجة الى العدل ومعرفة الحقوق

فاوّل ولاية للانسان ولايته على نفسه بحسب حاله . اول بلوغه وبُدوّ كماله . وصلاحيته لانفراده واستقلاله . وهو محتاج الى العدل بذلك المقدار والسير فيها بسيرة العقل والاعتبار. طلباً لاصلاح معاده ومعاشه. وتحصيل ما يقوده الى ثروته ورياشه . وما ينتظم به حاله . ويتّسع به كماله والاّ عاش في عيش وبي . وعاد في حال ردي . وكان ابرامه نقضا . واحواله فوضى

ثم بعد الولاية على نفسه. ولايته على اولاده واهله وعرسه، ممّن جعلهم الله تحت ولايته. واستودعهم في كنف رعايته . حتى الحيوانات الصامته والاشجار والزروع النابته . بل العقار وساير الاموال الثابتة وغير الثابته . فانّ لجميعها حدودا قايمه . وحقوقاً لازمه . والله سبحانه بكلّ ذلك محاسبه . وسائله عنها ومطالبه، حتى يضع كلّ شيء منها في محله. ويعامله بعدله. ويُعمله بوظيفته ويقوم بحقه وما يلزم من موءنته

وهكذا تشتد الحاجة الى العدل بحسب ترقي الانسان في سعة الولايه على قدر ما له من اللياقة والكفايه . من سائر طبقات الناس في تفاضلهم . واصنافهم

ومنازلهم . من مناصب الحكومة والدولة . ومراتب الشرع والملة ' كالوزراء والامراء والقضاة والولاة ' وشيوخ الاسلام ' وامراء الاقلام ' والكتّاب والحجّاب وزعماء الجيوش والفيالق ' وحرّاس الحبوس والمضايق ' وحاملي الرايات والبوارق ' ومن بايديهم الاقلام والمهارق ' واهل الخراج والجباية ودفع المؤن والجرايه ' وخزان بيوت الاموال وامنائها ' ونقباء بيوتات الشرف وزعمائها ' لا بل حتى العبيد والسادات ' وخدّام الدواب والحيوانات فانّ لجميع هو . لا . عدلا في من له الولاية عليه ' وميزانا يجعله في جميع معاملاته بين عينيه ' ولا تزال تتصاعد المراقي والمقامات ' في المناصب والحكومات والامارة والولايات ' حتى تنتهي الى زعيمها الكبير ' صاحب التاج والسرير والشرف الخطير ' والباب العالي (وعلم الاسلام الهلالي) فهناك مطمح الانظار ' ومسرح الآراء والافكار ' وتوقع ظهور العدالة الكاملة ' وترقب صدور الآراء الفاضله

*ومامن ملك سار بالعدل فى ملكه ' وجرت انوار عزماته فى صلاح ممالكه مجرى النيّر فى فلكه ' ورعى رعاياه باحسن سجاياه ' وعامل اهل مملكته ببرّه ورافته . واشفق عليهم اشفاقه بولده ولحمته . وقومه وعشيرته ' وسار فيهم سيرة السريّ الشريف في سريّته وطبّق على الحق والعدالة . اقواله وافعاله . الاّ وأنالك عنه بشير . ولا ينبّئك مثل خبير . انّك لا ترى تلك المملكة غبّ يسير . الاّ وقدبثّ ملكها بالعدل روح السعادة والرُّقي فيها . واجرى عيون الحياة في مجاريها . وطبع على العدل بسيرته العادلة طباع جميع امرائه ووزرائه . وجمع على الصدق والامانة اهواء ساير خزّانه وامنائه . وكال النصيحة والخلوص لكافة نوّابه ووكلائه . وزرع في ضماير رعيّته زروع الاخاء والاتحاد . ونثر في الواح قلوبهم بذور الطاعة له والانقياد . وقادهم

باشطان المحبة والهوى الى سبيل الهدى والرشاد ، وحين اذ يتوافق على العمل بالعدل الرئيس والمرئوس . ويتطابق على لزوم المعاملة به السايس والمسوس . ويتعامل بميزانه الملك والرعيه . ويتواصل بعنوانه السري والسرّيه . وتنتقش برسمه الصحايف والالواح . وتنتعش باسمه الاشباح والارواح ، حتى تعود الرعية جسما والرئيس لها رأسا ، لابل حياةً ونفسا لا بل عقلا مدبّرا وحسًّا ، ذالك حيث يكون الرأس راسًا موافقا ، والجسم للرأس مطابقا ، لا كرأس جمل على جسم شاة او رأس شاة على جسم جمل فاذا كانت الحال على تلك الصفة فهنيئًا لتلك الامّة بالعيش الهنيّ ، والشرف السني والطالع السعيد والزمن الرغيد ، والمجد المؤبد ، والذكر المخلد والرُقيّ والسعاده ، والحسنى من الله والزيادة ، والعزّة والمنعه ، والعلوّ والرفعه ، والجموع والقوّه ، والسطوع والسطوه ، واذعان الممالك والأمم ، وخضوع العرب لها والعجم والعيش على الصدق والوفا ، عيشة اخوان الصفا على الموازرة والمعاضده والمشاورة والمساعده ، والمساواة والموازنه ، والمواخاة والمعاونه ، في ثروة باهره ، وقوة قاهره ، ونعمة زاهره ، احيانا الله في ذلك العيش الانيق ، او حيّانا بلطفه بغتةً فاشهدنا ذلك الغصن الرشيق ، او ابقانا بمنّه الى ظهور ذلك العصر الوريق ، فانيّ اصفه واحمده ، ولا اعرف من يعرفه او يجده واذكر سجاياه ولا انظره ولا اراه ، واسمع بتذكاره ، وتتلو الصحف عليّ جميل اخباره ، ولا ارى في افقي شيئًا من آثاره

لا واعتدال مذهبك وعدل آبائك . وما سبكه الاسلام في شرايعه المقدّسه من احسن السبائك ، انّ العدل اذا استمرّ هجره ازمانا وسُدَّ بابُ العمل به عمى وطغيانا . استحالت الطباع لامحالة ظلما وعدوانا وعادوا اعداءً وقد جعلهم الله بفضله اخوانا . وصار المتغلبون سباعا ضارية ، والمتأمرون ذئابا

عاديه، وضعفاء الرعية كانضاء الابل الانقاض او كقطيع الماشيه، حتى راح كلّ واحد وهمّته من عجزه وتراخيه، هضم حقوق اخيه، وسلب نعم الله عليه واياديه، والسعي في ان يهلكه ويرديه، فلو تجسّمت لك اعمالهم لما رأيت الاّ نهشا وعضا ولو كُشف لك عن قلوبهم لما وجدت بعد ظلمة الجهل الا حقدا وبغضا . ولو بلوت احوالهم لما بلوت الا اخلاقا سبعيه او بهائم وحشيه . يفترس بعضها بعضا . فالصورة صورة انسان . والقلب قلب حيوان لاوانىّ لك منهم بطباع الحيوانات . بل ليتهم كانوا كالوحوش الضاريات فانّك لاتجد فيها من لاتاخذه على ابناء نوعه الغيرة والحميه . ولاتعدُّ بها الاّ القليل ممن لاتعطفه على ابناء جنسهِ عواطف الجنسيه وروابط السنخيه واّما نحن الاّ من عصم الله فاشدُّ بلائنا وعدواننا ليس الاّ على ابناء جنسنا واخواننا

وانّ الذئب يترك لحم ذئب ويأكل بعضنا بعضا عيانا

ثم اذا دبّ هذا الداء العياء في النفوس واستحكم، واستفحل امره في الطباع واستعظم، ومضى عليهِ دور بل ادوار، وشبّ عليه الصغار، وربت عليه الكبار فلا محالة صعب على المهرة من ناشئة العدل علاجه، وعسر بعد تمكنه ازالته من المكامن بل تعذر ولو بادقّ المكائن استخراجه، ولكن

لاتيأسنّ وان طالت مطالبةٌ اذا استعنت بصبر ان ترى فرجا

واذا أهمل حتى جرى في اصول المملكة وفروعها . وأُمهل الى ان سرى الى آحادها وجموعها . ودبّ والعياذ بالله داء الشقاق . من السوق الى الاعناق . وراج في الأنفاق . سوق الغدر والنفاق . وارتكز في الاعماق والعروق . حبُّ هضم الحقوق . وتُرك الشعب حتى انشعب . وقلب الملك حتي انقلب . والعقل حتى اعتُقِل واحتجب . فانا لتلك المملكة نذير مبين وعند جهينة الخبر اليقين . انْ سوف تثب عليها الليوث الحوادر . وتتعقبها

العقبان الكواسر . لا بل تفترسها والعياذ بالله تلك النسور . وتختلسها الاّ اذا حفظ الله ولو كان عليها الف سور . فانها لانتهاز الفرصة من ورائها وقد استدارت عليها بعيونها ورقبانها . وهي لا تنفك تجهد امّا لزوالها . او لذهاب شرف استقلالها . فلا يغرّنها ما تبدي لها من الملق والبشاشه . فما هي الاّ لانتزاع ما ابقت فيها من الرمق والحشاشه

انّ العدو وان ابدى مسالمة اذا راى منك يوماً فرصةً وثبا

فليبذلِ الجدّ والجهد اهل الحلِ ّ والعقد . في نشر لواء العدل وبثّ روحه في الممالك . ولتجهدان تعدل الى العدل بطباع من تعوّد من امرائها على خلاف ذلك . والاّ فلتقطعه ولو بقلعه من اسّ بنائه . فان الظالم في الارض كالعضو الفاسد في البدن قطعه اذا عسر علاجه خيرٌ من ابقائه . والعادل هو الحياة للاوطان . وناموس السعادة والعمران . وبه تلتئم الشعوب وتتألف القلوب . وتسعد المملكة . وتقوى الملكه . وليس العدل كما عرفت سوى اداء الحقوق وترك الميل والاجحاف . ومعاملة كل بما يستحقه من الموازنة والانصاف * وميزان العدل واللباب في هذا الباب ماامتنّ ببيانه وتفصيله . اعدل سياسيٍّ عالمٍ في العالم . ومن هو بعد اخيه سيد ولد آدم . امام الموحدين ويعسوب الدنيا والدين . في خطبة ذكر فيها جملا من حقوق الرعية على الملوك والامراء . وحقوق كل على الآخر من هؤلاء وهؤلاء . ونصب فيها موازين القسط . وقوانين الحق . ومكائيل العدل في السياسة . وتفاصيل مايجب على من القى الله اليه ازمة الرياسة . وهي احدى خطبه الجوامع . وآيات « نهج بلاغته » الساطع . وجميع ماذكرناه في هذا الفصل من الحثّ على العدل وفوايده وثمراته وعوايد بركاته ماهو الاّ لمحة من لمحاتها لابل لمعة من قبساتها لابل غيض من فيضها . لابل

ضغث من روضها . ألا وهي خطبته التي خطبها بصفين التي يقول في اولها «ص»

امّا بعد فقد جعل الله لي عليكم حقا بولاية امركم . ولكم عليّ من الحق مثل الذي لي عليكم . فالحق اوسع الاشياء في التواصف . واضيقها في التناصف . لا يجري لاحد الاّ جرى له . ولو كان لاحد ان يجري له ولا يجري عليه لكان ذلك خالصا لله سبحانه دون خلقه لقدرته على عباده ولعدله في كلّ ما جرت عليه صروفُ قضائه . ولكنه جعل حقه على العباد ان يطيعوه وجعل جزاءهم عليه مضاعفة الثواب تفضلا منه وتوسّعاً بما هو من المزيد اهله ثم جعل سبحانه من حقوقه حقوقا افترضها لبعض الناس على بعض . فجعلها تتكافؤ في وجوهها ويوجب بعضها بعضا . ولا يُستوجب بعضها الاّ ببعض . واعظمُ ما افترض سبحانه من تلك الحقوق حقُّ الوالي على الرعيه . وحقّ الرعية على الوالي . فريضة فرضها الله سبحانه لكلٍّ على كلّ نظاما لالفتهم . وعزّاً لدينهم . فليست تصلح الرعيةُ الاّ بصلاح الولاة . ولا تصلح الولاة الاّ باستقامة الرعيه . فاذا ادّت الرعية الى الوالي حقَّه . وادّى الوالي اليها حقها . عزّ الحق بينهم وقامت مناهج الدين واعتدلتْ معالم العدل . وجرت على اذلالها السنن . فصلُح بذلك الزمان وطُمع في بقاء الدوله . ويئست مطامع الاعداء . واذا غلبت الرعية واليها . واجحف الوالي برعيته . اختلفت هنالك الكلمة . وظهرت معالم الجور . وكثر الإدغال في الدين . وتُركت محاجُّ السنن . فعُمل بالهوى وعُطِّلت الاحكام . وكثرت علل النفوس . فلا يُستوحش لعظيم حقٍ عُطِّل . ولا لعظيم باطل فُعل . فهنالك تذلّ الأبرار . وتعزّ الأشرار . الى ان قال «ص» في وصف نفسه ليكون قانونا لولاة العدل من بعده وانّ من اسخف حالات الولاة عند صالحي الناس ان يُظنّ بهم حبّ الفخر

ويُوضع امرهم على الكبر . وقد كرهت ُان يكون جالَ في ظنِّكم انّي احبُّ الأطراء .واستماع الثناء . ولستُ بحمدالله كذلك ولو كنت احبُّ ذلك لتركتــه انحطاطاً لله سبحانه عن تناول ماهو احقُّ به من العظمة والكبرياء وربّما استحلى الناس الثناء . بعد البلاء.فلا تثنوا عليّ بجميل ثناء . لاخراجي نفسي الى الله واليكم من التقية في حقوق لم افرغ من أدائها . وفرايض لابدّ من امضائها . فلا تكلموني بما تُكلم به الجبابره . ولاتتحفظوا منّي بما يُتحفظ به عند اهل البادره . ولاتخالطوني بالمصانعة . ولا تظنّوا بي استثقالا في حقٍ قيل لي ولا التماس اعظامٍ لنفسي فانّه من استثقل الحقّ ان يُقال له . والعدل ان يُعرض عليه . كان العمل بهما عليه اثقل فلا تكفّوا عن مقالةٍ بحق . او مشورة بعدل . فاني لست في نفسي بفوق ان اخطي ولا آمن ذلك من فعلي . الاّ ان يكفي الله من نفسي ماهو املك به منّى فانّما انا وانتم عبيد مملوكون لربّ لاربّ غيره يملك منا مالا نملك من انفسنا واخرجنا ممَّا كنا فيه الى مااصلحنا عليه فابدلنا بعد الضلالة بالهدى واعطانا البصيرة بعد العمى انتهى مااردنا التشرّف والاستنارة بنقله من هذه الخطبة الشريفه * يقول الملتزمُ بحبل ولايته المعتصمُ بعصمته وامامته انّ الله جل شأنه قد كفاه من نفسه من ان يخطئ في قول او فعل او رأي او تدبير او غير ذلك بما منحه من العصمة التي تقول بها الامامية المبتنية على اصولهم الصحيحة . وبراهينهم التي هى بذلك صريحه . وستمر عليك الأشارة اليها في محلها «ان شاء الله» ومراده «ع» بقوله فاني لست بفوق أن اخطي وكذا ما قبلها وما بعدها مما هو قريب منها الأعتراف والاذعان بالبشرية ولوازمها وانّه يصحُّ عليه جميع مايصح على البشر ويمكن عليه الخطأ والنسيان بالامكان الذاتي من حيث انّه انسان وبشر . وطبيعة

الانسان بذاتها تقتضي تلك الامور فهو «ع» يريد المبالغة والتاكيد الشديد في اثبات انّه انسانٌ وعبدٌ لله رداً على من ادّعى الالوهية في حقه وقضى بالربوبية في شأنه . وحيث كانت هذه المقالة الردية . من ابغض الاشياء اليه حسب ماهو فيه من المعرفة بالله والعبودية . فلذلك جدّ في البيان واجتهد واكّد الحجة وشدّد . فحقق لذاته الطبيعة البشرية . واثبت لنفسه لوازمها اعترافا بالعجز والمخلوقيه . وسجّل انّ الخطأ والنسيان وغيرهما من النقايص له كغيره لازمه ، الاّ ان يسدّده الله ويعصمه

* والامامية تقول نعم من شدة عبوديته لله وطاعته له ومجاهدته في سبيله ومخالفته لهوى نفسه قد سدّده الله وعصمه . وادّبه وعلّمه . وكفاه من نفسه مايحذر . اذ النفس وهواها هو العدوُّ الاكبر . ولعلّ مايروى عن النبي «ص» قد تُلي عليك . من قوله اعدى عدوّك نفسُك التي بين جنبيك . ومذ عرفها «ع» وعرف شدة مكرها وبلائها . وما جُبلت عليه واجتلبته من النقص بشهواتها واهوائها . اعتصم بالله من شرّها المتفاقم . فكان الله له خير عاصم . وعند ذلك اطاعته نفسه وما اطاعها . فبدّل من النقص باقصى الكمال طباعها . والقولُ بأنّ هذه العصمة لاتختص اذاً بالامام ، بل يصلح ان تحصل فى كل واحد من الانام ، قلنا نعم ولكن اين حقيقة الاعتصام حتى يبعث العصمه . واين الالتجاء الى الله والكرامة عليه حتى يستوجب العبد ذلك النصيب وتلك القسمة . على انّا لانأبى من حصول تلك العصمة فى الجملة لكثير من عباد الله الكاملين . واوليائه المخلصين ولكنّا نقول انهم وان كانوا معصومين ولكنهم غير واجبي العصمه وتحقيق ذلك موكول الى محله ان شاء الله وانما الغرض دفع مايترائى فى بادىء النظر من منافاة بعض فقرات الخطبة للقول بالعصمه وحملها على ذلك بعد

قيام الدليل القطعي على وجوب عصمته كما سيأتي ان شاء الله مما لامحيص عنه على انّه في نفسه غير بعيد عن ظاهر الكلام الا ترى قوله «ع» بعد تلك الفقرات (وانما انا وانتم عبيد مملوكون لرب لا رب غيره الخ) فانه كالصريح فى ان مراده اثبات مشاركتهم فى العبودية لله والمخلوقية له لا المشاركة فى الخطأ والجهل الاّ بحسب اصل الطبيعه لا بحسب الحال الحاضر هذا كلّه مضافا الى مافي هذه الكلمات من فايدة التعليم والتدريب لساير ولاة الامر من بعده كي لايحملهم الكبر والفخر والهوى وحبّ النفس والانفة والترفع . والتعاظم والتمنع . عن احتمالهم تطرق الخطأ والغفلة فى حق انفسهم فيستقلّون فى آرائهم ويستأثرون فى التصرف بحسب شهواتهم واهوائهم قضاءً لوطر تلك الشهوة اللازمة ، وإعوازاً لتلك الملكة العاصمه ، اذهم بعدُ على اصل طبيعة البشريه . والخطأ جايز فى حقهم في الساعة الحاضرة والحالة الفعليه . فوجب طلباً لصلاح المملكة ونجاحها مراجعتهم لذوي الألباب المستقيمة ، والآراء القويمة ، والجدّ والعزيمه والدين والنصيحه ، والاغراض الصحيحه ، في كل نقض وابرام ، وحلّ واحكام ، ووقوف واقدام ، فيكون كلامه «ع» واردا مورد قوله تعالى لنبيّه الاكرم الذي طهّره واهل بيته من الرجس تطهيرا (وشاورهم في الامر وامرهم بينهم شورى) ومن المعلوم المسجلّ ، استغناء حبيبه المبجلّ ، عن مراجعة قومه واصحابه واكثرهم عربٌ بوادي ، ليس لهم في شيء من العلوم قدم ولا ايادي ، كيف وهو بالوحي المبين صادع ، والروح الامين اليه ذاهب وراجع ، لا بل قد استكفى عن كل ذلك واستغنى ، بما لا تسعه العبارة من المكان المكين والمنزلة الحسنى ، ومقام قاب قوسين او ادنى . فما امره بذلك الاّ

لتعليم العباد، وئلا لتهم على الحزم والسداد ، وما كل ولاة الامر والسلاطين بذلك المقام المكين، ولا كل خليفةٍ كعلي امير المومنين، واذا اظهر الحاجة الى الشيء من هو الغني الكامل، فما اعظم حاجتنا اليه، ونحن على مانحن عليه، من النقص والقصور، والضعف عن نيل حقايق الامور وعواقب الدهور * على ان هنا فايدة اخرى، ومزية لعلها بالذكر احرى، وهي انا وان كنا نقول بان علوم ذوي العصمه لدنيه، غير محتاجة الى طريقة التعاليم البشريه، ولكنا لا نقول بانها جميعًا حضوريه، بل كثير منها تدريجية كسبيه، لها اسباب وطرق خاصه غير الطرق المتعارفه وهي الوحي مثلا والالهام، والرؤيا او المنام، ومحاورة الملائكة الكرام، وغير ذلك مما ليس القصد هنا بيانه ولكن لا يبعد ان يكون احد الطرق مراجعة النبي او الوصي انفسهم لعظماء الامه، في خصوص ما يتعلق بتدبير المملكة من السياسات ووقايعها المهمه، ويكون مبدء المبادي جل شأنه قد جعل اليُمن والبركة في ذلك الاجتماع فيلقي الصواب على لسان احدهم وينتقده صاحب الولاية والأمِرة بقوة حدسه وصحة تميزه وما اعطاه الله من القوة والكمال فينفذه ويُمضيه، ويحكم به ويجريه، فيكون عرض الاراء عليه احد طرق تنبهه واصابته للصواب كالوحي والالهام وغيرهما وعلى هذا فالايات الشريفه على ظاهرها وحقيقتها ولا تنحصر بالحمل على صرف التعليم وان كان هو احد مقاصدها وهذا احد فوايد الاجتماع والتألف الذي بني عليه اساس الاسلام ولو لا خوف الاطالة لبسطنا فيه بعض الكلام * ولعل اليه الاشارة بما رووا عن النبي «ص» ان صح من مضمون قولِهِ (يد الله مع الجماعة وقوله لا تجتمع امتي على الخطأ) وامثال ذلك مما يدل على فضل الاتفاق والاجتماع، او وجوب اتباع ما وقع عليه الأجماع، ولكن الشان كله في حضور عظماء الامة واجتماعها، وثبوت اتفاقها جميعًا على ماوقع من دعوى اجماعها، ...

والغرض ان تلك الخطبة الشريفة ممـا يلزم على جميع الملوك وارباب الدول وولاة الأمر أن يتّخذوها وِردابه يلهجون ، ومنوالاً عليه ينسجون ، ويجعلوها غرّة في جباه سجلاّتهم ،وطرّة في نواصي مجلاّتهم ،واوسع منها في تفاصيل الحقوق ومراتب العدل بين طبقات الناس على اختلافهم ومعاملة كل واحد مع الآخر من الملوك والرعايا ، ومايلزم كلا منها لصاحبه من الاحكام والقضايا ،هو كتابه الجليل ،وعهده المفصّل المستطيل ،الذي عهده الى صاحبه وحواريّه ،وواليه ووليّه ،بل اخصّ اصحابه وثقاته ،واوثق اوليائه ووُلاته ، قايد فرسانه ،وزعيم جيوشه وعين اعوانه ،فارس الحروب ،وكاشف الغمّاء عنه والكروب ،الحربيّ المشهَّر «مالك» ابن الحارث الاشتر تغمده الله برضوانه الاكبر حين ارسله والياً على مصر فليرجع اليه من اراد معرفة سياسة المدن ، ودقايق الرقيّ والتمدن ،واسباب العمران والشرف ،والاخذ بموازين العدل والنَّصف ،بين طبقات جميع الناس من الوزراء والامراء والكتاب والحجاب والعساكر والاكابر والتجار واهل الحرف والصنايع ،والعمال وارباب البضايع ،ومعاملة الاشراف والسفل والمعاهدين من اهل الكتاب وساير الملل .الى غير ذلك من النفوذ الاداري . والروح التجاري . والعمل الزراعي . والعمل الصناعي . والجند والاسلحة . والقلب والاجنحة. وتدبير الاهل والمنزل . ومعرفة المبدء والموئل. والنفس وكمالها.وجورها واعتدالها.ومايزين ويشين . من الصاحب والقرين .ألا كلّ ذلك قد احصاه عهده.وحواه علاه ومجده.وضبطه حصره وعدّه.ألا كلّ ذلك قد اوضحه «ع» وابانه.ونصب بالقسط والعدل مكياله وميزانه.وعيّن مايجري له وعليه.ومايساق منه واليه.ألا كلّ ذلك ممّا اختصّ به علما وعملا.وقام به تفاصيلا وجُملا.فراجع ذلك العهد تجد جميع معاهد المحاسن في عهدته .وساير تفاصيل العدل والحقوق في جملته.ثم اعطف في ذلك النهج على ساير عهوده وكتبه.

ووصاياه وخطبه . فسترى هنالك من العلوم الاعاجيب . ومن معجز الفصاحة والبلاغة ما يحيّر الالباب ويذهل اللبيب . ومن الاحكام السياسية والحكم الالهية غرايب الاساليب ثم اذا قضيت وطرك من مراجعتها . وفرغت من تدبُّرها ومطالعتها . واخذتك هزة طرب المعرفة والعلم . لا العزة بالاثم . فقف هناك وصلّ وسلِّم وزد وبارك عليه . وابتهل الى الله قايلا اللّهم هذا هو الامام العادل فلا اعدل عنه الا اليه . فالحقُّ احقُّ ان يُتَّبع . وما لاحد مع الحق عداوة اوخُدع . ونحن طبع الله على الانصاف قريحتك وطبعك . قد اتعبنا بطول الكلام سمعك . ولكن يشهد الله انا ما قصدنا بذلك الا نصيحتك ونفعك . فامنحنا عافاك الله عفوك . وخلّ كدرك وابذل لنا صفوك . وهاك فذلكة المقام . وخلاصة ما سيق لاجله الكلام * فنقول ان الاتصاف بالعدل واقامة موازينه . واجراء اصوله واستعمال قوانينه . موقوف على معرفة الحقوق وهي كثيرة تكاد ان لا تُحصى ولا تحصر ولكنها على كثرتها واختلافها . وتباين انواعها واصنافها . تندرج كلية في (ثلاثة اصول) ولا يخرج شيء من الحقوق عنها بضرورة العقول «الاول» الحقوق التي بينه وبين نفسه . والاصلان الآخران يتفرّعان عليه كما عرفت وهو اصل برأسه «الثاني» ما بينه وبين الخالق من الحقوق «الثالث» ما بينه وبين المخلوق . وقد اشار الى ضابطة العدل وكليته في كل واحدٍ منها ذلك العالمُ الربّاني . والمعلَّم بالتعاليم الالهية فما المعلم الأوّلُ والثاني . وكلماتهُ في ضابطة كل واحدٍ منها كثيرةٌ يضيق المقام عن حصرها . ويقصر عن اقلها فكيف باكثرها ، ولكن نقنع فى كل اصل بواحدةٍ مماّ فيه من كلماته العديده ، اذ تغنيك من البحر الفريده * فضابطةُ العدل في الأوّل ما ذكره «ع» فى احدى خطب النهج يصف بها العبدَ الذي اعانهُ الله على نفسه ، وجعله من المقربين في حظيرة قدسه ، الذي قد الزم

نفسه العدل فكان اوّل عدله نفي الهوى عن نفسه يصفُ الحق ويعمل به ' لايدع للخير غاية الاّ امّها 'ولا مظنة الاّ قصدها 'فهو مصباح ظلمات كشّاف عشوات . دفّاع معضلات . دليل فلوات . يقول فيفهم . ويسكت فيسلم . قد اخلص لله فاستخلصه . فهو من معادن دينه . واوتاد ارضه * يقول اقلّ شيعته لايخفى عليك وجه جعله (ع) نفي الهوى اوّل العدل في النفس فانّها به تستعد لتحصيل الكمالات . وتتهيّأ لنيل السعادات . والاّ فما دامت تتبع الهوى والشهوات . وتسعى جهدها لنيل اللذايذ الداثرات . من التأنّق في الملابس . والتفوق فى المجالس . والتبصبص كلبيـاً للاطماع . والتلصّص ثعلبياً في الخداع . والتنعم في الشراب والطعام . واحتكاك الاجسام بالاجسام . الى غير ذلك من الشهوات البهيمية . والرذايل السبعية . التي مهما نال الانسان فيها من وافر الحظ والنصيب . فلايبلغ منها مقدار شهوة حمار او كلب او ذيب . ومهما كان الانسان على مثل ذلك احرص وهو اليه ارغب . فهو بالبهيمة اشبه واليها اقرب . أترى ان احداً من الناس . يُدرك بنفسه ما للسبع من القوة والقدرة على الافتراس . وانّ الانسان وان بلغ الغاية في الشبق وحبّ الجماع . ينال من الشهوة واللذة ماينال اقلّ الحمير عند الوقاع . ولولا استقذار ذكرها لشرحتُ في التفاوت حقيقة امرها . والغرضُ انّ النفس اذا تُركت وهواها . وأُرسلت في طلب مايلايم قواها فلا ترتج ابداً فلاحها . ولا ترتقب صحتها وصلاحها . ولا تنكسر منها سورة تلك القوى الاّ بالرياضة على مخالفة الهوى . ومَثلها في ذلك مَثلُ الحرث لارض الزراعة فانّها وان كانت بحسب ذاتها عذبة . طيّبة التربة . ولكنها لاتنال تلك السهولة والدماثة . الاّ اذا خُولف وضعها بالحراثة . وبعد الحرث والقلب . تصلح للزرع ونثر الحبّ . فتُسيم النظر وتسمو . وتمنّ بالثمر

وتنمو * وارضُ النفس اذا لم يحرثها العقل بمخالفة الهوى . ولم يوجّه سائس العدل لِيعدّلَ منها تلك القوى . لا تثمر ولا تنمو بها بذور الحكمة . ولا تنتفع بما ينزل من الماء سماء الرّحمة . ولا يحصل لها شيء من مراتب العدل قبل تحصيل هذه المرتبه . ولا تبلغ منزلاً من منازل السعادة قبل قطع هذه المرحله . بل من نالها فقد نال السعادة كلها فانها تستدعيها . وتستلزمها وتقتضيها . (واماَّ مَن خاف مقام ربّه ونهى النفسَ عن الهوى فانّ الجَنَّة هي المأوى) وقد اشار «ص» الى وظيفة هذا الاصل وميزان العدل فيه وفي (الاصل الثاني) اعني حق الخالق — بعهده الى مالك الأشتر الذي مرّت الاشارة اليه وبدء به وجعله اوّل عهوده ووصاياه نظراً الى تقدّمه بحسب الشرف والرتبة وان كان الأوّل في تقسيمنا متقدّما بحسب التحقق في الخارج . فلكلٍّ وجهٌ * قال سلام الله عليه (بسم الله الرحمن الرحيم) هذا ما امر به عبد الله عليٌّ امير المؤمنين مالك بن الحارث الاشتر في عهده اليه حين ولاّه مصر جبوة خراجها . وجهاد عدوِّها . واستصلاح اهلها . وعمارة بلادها أمرَه بتقوى الله وايثار طاعته واتّباع ما أمرَ به في كتابه من فرايضه وسُننه التي لا يسعد احدٌ الاّ باتّباعها . ولا يشقى الاّ بجحودها وإضاعتها . وأن ينصر الله سبحانه بيده وقلبه ولسانه ثم ذكر حق النفس وميزان العدل فيها (فقال) وأمره ان يكسر نفسه عند الشهوات . ويَزَعها عند الجمحات (فانّ النفس لأَمّارةٌ بالسوء الاّ مارحم الله) واشار الى ذلك والحثّ عليه والاهتمام به في ساير كلماته وخُطبه حتى يُوشك أن لا تُوجد له خطبةٌ او خطاب . او كلام او كتاب او دعاء او ثناء . او عهد او وصية . عمومية او خصوصيه ممّا اشتمل عليه النهج . او أُدرج في غير ذلك الدرج . الاّ وفيها الحثّ على تقوى الله . وتطبيق الحركة والسكون على مايوافق رضاه . ومابرح

«ع» يلزم بذلك و يختمه ، وبه يبتدئ كلامه وبه يختمه . شرف نظرك . واصرف عقلك و فكرك . الى وصيته لولده الحسن «ع» التي كتبها اليه بحاضرين منصرفاً من صفين. وهي من اطول وصاياه . واجمعها لخصايص الحسن ومزاياه . ومن افصح الكلام وابلغه واجمعه لدقايق الحكمة العلمية والعمليه ولطايفهما وهي تشتمل على فصول في مطالب شتى (واولها من الوالد الفاني المقر للزمان المدبر العمر ، المستسلم للدهر. الى المولود المؤمل مالا يدرك السالك سبيل من قد هلك ، غرض الأسقام ، ورهينة الايام . ورمية المصايب وعبد الدنيا وتاجر الغرور ، وغريم المنايا . واسير الموت . وحليف الهموم وقرين الاحزان . ونصب الآفات . وصريع الشهوات . وخليفة الأموات الى ان قال «ع» لولده وجدتك بعضي بل وجدتك كلي حتى كان شيئاً لو اصابك اصابني وكان الموت لو اتاك اتاني فعناني من أمرك ما يعنيني من امر نفسي فكتبت اليك مستظهراً ان انا بقيت لك او فنيت فاني اوصيك بتقوى الله اي بني ولزوم امره . وعمارة قلبك بذكره . والاعتصام بحبله . واي سبب اوثق من سبب بينك وبين الله ان انت اخذت به ثم قال في فصل آخر بعد كلام طويل واعلم يا بني ان احب ما انت آخذ به الي من وصيتي تقوى الله والاقتصار على مافرضه عليك . والأخذ بما مضى عليه الاولون من آبائك . والصالحون من اهل بيتك . ثم بعد ما أمره بالعدل مع الله واداء حقه اليه بالتقوى عطف القول على حقوق النفس في تأديبها وتدريبها الى مافيه سلامتها وسعادتها في الدارين واستقامتها . فقال «ص» أحي قلبك بالموعظة و امته بالزهاده . وقوه باليقين . ونوره بالحكمة وذلله بذكر الموت . وقرره بالفناء . وبصره فجايع الدنيا . وحذره صولة الدهر . وفحش تقلب الليالي والايام . واعرض عليه اخبار الماضين . وذكره بما اصاب من قبلك من

الاوّلين . و سِر في ديارهم وآثارهم . فانظر فيمَ فعلوا. وعمّا انتقلوا واين حلُّوا ونزلوا تجدهم قد انتقلوا عن الاحبَّه . وحلوا ديار الغربه . وكانّك عن قليل قد صرتَ كاحدهم فاصلح مثواك.ولا تبع آخرتك بدنياك. الى آخر ماذكره . رفع الله في الملأ الاعلى ذِكره . من لطايف الاخلاق وطرايف الحكمة . واسرار العلم . وانوار المعرفه . والغرض انّ التقوى هي جامعة حقوق الله على العبد فعدلُ العبد مع مولاه انيتّقيه ويخشاه . ولا يرضى الاّ بما يرضاه . ووجه ذلك في نفسه واضحٌ بيّن. إن كنت بوجود صانع لك تستيقن . فانّك بناءً عليه تعلم انّ ذاتك ونفسك . وعقلك وحسّك. بل جميع انفاسك وحواسك ، من عينك واذنك وفمك ، ولسانك وبنانك وكلمك . بل جميع اعضائك من قرنك الى قدمك بل جميع مافيها من قِواك ، بل كلُّ اقوالك وافعالك ، وخيالك وهواك . وسخطك ورضاك كل ذلك ملكٌ له بحقيقة الملكية والسلطنة والولاية من دون شائبة تجوّز او مسامحة او كِنايه فالتصرّفُ في شيء منها بدون اذنه ومراضيه وعلى غير الوجه الذي اباحهُ ورخّص فيه ، ظلمٌ وعدوانٌ ، وجور على وليّ الاحسان فحقيقةُ التقوى اذاً ان يجعلَ العبدُ مالك تلك الأمور نصب عينه في جميع حركاته وسكناته ، واهوائه وخيالاته فلا يتصرّف في شيء منها الاّ على الوجه الذي يعلم فيه برضاه ورخصته ويداوم على هذه المراقبة و المحاسبه والخيفة والخشيه ، حتى تصير له ملَكَة ، تنجيه من كل هلكه فلا يصدر منه قبضٌ او بسط ، اورفعٌ او حطّ اوهوى او خيال ، اوفعلٌ اومقال الاّ على طبق ذلك ووفق رضا المالك ، فاذا بلغ العبد الى هذا المقام فقداّدى المخلوق حقوق الخالق وخرج ممّا له عليه ، وقام بميزان العدل فيما بينه وبينه وهذه هي المرتبة العليا ، والغاية القصوى التي عرفتَ انّها لاتحصل الاّ

الخاصة عباده ، ثم تتنازل مراتب التقوى الى حيث يكون العبد ظالماً لجميع حقوق ربه ، حتى يموت والعياذ بالله مستغرقاً بذنبه ، غاصباً لجميع ماجعله الله امانة في يده . عصمنا الله بمنّه ولطفه فانه لاعصمة الاّ بسببه ولاتوفيق إلاّ به (١).

واما الميزان والضابطة الكلية) في (الاصل الثالث) اعني حقوق المخلوق التي عرفت انها في غاية الكثرة والوفور بحيث لاتكاد تحصي كلياتها فضلا عن جزئياتها الارقام . ولاتعدّها السنة ولا اقلام . وحق تفاصيلها ان تذكر في جزئي الحكمة العمليه اعني «تدبير المنزل وسياسة المدن» ولكنهم ماذكروا فيها الاّ ايسر اليسير ، وما ليس هو الاّ كالقطرة من البحر الغزير مضافا الى قلة من صنّف فيهما بحسب ما بايدينا اليوم ، من تصانيف القوم . ولم اعثر في ذلك الاّ على كلمات قلايل . او موجزات رسايل . للمعلم الاول واستاذه من اليونانيين . وابي نصر وابي علي من الاسلاميين . وبعض رسايل اخوان الصفا التي هي من اجل الكتب الاسلامية واقدمها . ولكن الجميع ماوفوه حقّه كماينبغي له من حسن التحرير والتبويب . والتنقيح والتهذيب والافراد بالتصنيف كما صنعوا مثل ذلك في الجزء الآخر من الحكمة العملية

(١) ولا يذهبن عليك انّ اول حقوق الله على عبده الاقرار له بالربوبيه والاعتراف له بالوحدانية وان لايشرك بعبادة ربه احدا ولا يتخذ من دونه ملتحدا وهذا هو جماع حقوق الله واصل التقوى واساسها ولا ينفع شيء من الاعمال الصالحة بدونه واذا اشرك العبد والعياذ بالله ولو بالشرك الخفي الذي هو اخفى من دبيب النملة على الصفا فقد ظلم ربه وبخس جميع حقوقه وآيةُ ذلك قوله تعالى (ولا تشرك بالله ان الشرك لظلم عظيم) والتقوى بجميع شؤونها انما تتحقق وتحصل بعد هذا الاصل وآيةُ ذلك ماتكرر من قوله تعالى (الذين آمنوا وعملوا الصالحات) وقوله تعالى (الذين آمنوا ثم اتقوا الآية) فراجع وتدبر

اعني تدبير النفس حيث افردوا له علم الاخلاق. وملأوا به الصحف والاوراق واجادوا واحسنوا. واحكموا واتقنوا. وصنفوا فيه ألوفا. وصيّروه علما شريفا سيّما الصدر الاوّل من اساطين علماء الاسلام وحكمائهم «كابن مسكويه» «والراغب الاصفهاني» وابي طالب المكي» وابي حامد الغزالي» وسلطان المحققين الطوسي) شكر الله مساعيهم الجميلة وضاعف في حقهم الطافه الجزيلة ونحن نبدي عذرهم في اهمال ذينك الجزئين المندرجين في الاصل الذي ذكرناه فانه متشعِّب الجهات مختلف الوجوه متشتت المسائل ينطوي كثير منه في تضاعيف العلوم فجملة منه في الفقه وكثير منه في الاخلاق وبعض في الطبيعيات فلا يكاد يُضبط لاتّساعه. وتشتت اصنافه وانواعه. ولكنّك اذا ادمنت النظر في كلمات مولانا امير المؤمنين وتصفحتها بالتأمّل والتدّبر فسوف تجدُ فيها من قوانين العدل وموازين القسط التي ينبغي ان يعامل الانسان بها غيره من ساير طبقات المخلوقين بل يجب على كلّ طالب شأو من الكمال ان يُنعم النظر في جميع الخلايق على اختلافهم من القريب والبعيد والطارف والتليد. والولد والذراري. والازواج والسراري. والاهل والعشيرة. والآباء والامهات. والاخوان والاخوات. والاصدقاء والاصحاب. والاقران والاخدان. فيستوفي من كل واحد من هؤلاء حقوقه التي له عليهم ولو بالمناواة لهم والمعاناة ويوّفيهم حقوقهم التي لهم عليه كلٌّ بمكانهِ. وعلى قسطه وميزانه. بتعيين عقل مطاع او عرف متبع او شريعة عادلة او اخلاق فاضلة اوغير ذلك من نافذ الحكم في سنّة طلب السعادة وتحصيل الكمال ولا يزال عاملا على الاخذ بهذه القوانين والكيل بتلك الموازين مع كافة اهل بلده ومصره. بل ساير ابناء عصره. بل ومع السلطان والرعايا. والامراء والسرايا. بل متنازلا الى اسفل من ذلك حتى ولو من

غير هذا الجنس من الحيوان والنبات . والاثاث والعقار . والعروض والنقود والمعاملات والعقود . تجد كلّ ذلك قد اجرى ذلك الامامُ العادل سنة العدل فيه . وبيّن ما يوجبه النَّصف في معاملته ويقتضيه . تجده بين غضون كلماته وفي تضاعيف خطبه وكتبه ودعواته . مؤتلفة في تفاريق وصاياه وعهوده مجموعة في جوامع كلمه وعقوده . مفصلة في تفاصيل فصوله . لدقيقه وجليله ولكن الميزان في ذلك كله . والضابطة الجامعة لفرعه واصله . ما اشار اليه في بعض فصول تلك الوصيَّة التي مرّ عليك بعضها وذاك قوله (ع) يا بُنيّ اجعل نفسك ميزانا فيما بينك وبين غيرك . فاحبب لغيرك ماتحبُّ لنفسك واكره له ماتكرهلها . ولا تَظلم كما لاتحبّ ان تُظلم . واَحسن كما تحبُّ اَن يُحسن اليك . واستقبح من نفسك ماتستقبح من غيرك . وَأرض من الناس بما ترضاه لهم من نفسك . وقوله (ع) من جملتها في بعض تفاصيل تلك الحقوق (قارن اهل الخير تكن منهم وباين اهل الشر تبن عنهم وحفظُ ما في يديك احبُّ اليّ من طلب ما في يد غيرك . ومرارةُ اليأس . خيرٌ من الطلب الى الناس . والحرفة مع العفة . خير من الغنى مع الفجور وظلم الضعيف افحش الظلم) الى ان قال (لا خير في معين مهين . ولا في صديق ضنين احمل نفسك من اخيك عند صرمه على الصلة . وعند صدوده على اللطف والمقاربة . وعند جموده على البذل . وعند شدته على اللين . وعند جرمه على العذر . حتى كانّك له عبد . وكأنه ذو نعمة عليك . واياك ان تضع ذلك في غير موضعه . او أن تفعله بغير اهله) ثم ذكر (ع) جملة من حقوق الاخوان وكيف ينبغي معاملتهم ومعاملة الاهل والعشيرة والنساء والخدم وغير ذلك فليرجع اليها لتهذيب نفسه من اراد الله به واراد لنفسه خيرا ومثل ذلك كثير في كلماته وكلمات اولاده المعصومين بحيث انهم (ع) ما تركوا

حقاً من تلك الحقوق الا وقد اوضحوا اسبيله . وبيّنوا اصفوته ونخيله . وخالصه ودخيله . وتراجيحه وتعاديله . ولكن القول الجامع الفصل . في هذا الاصل هو ما تقدّم من قوله (ع) (اجعل نفسك ميزانا بينك وبين غيرك الخ) وقد تكثرت هذه الكلمة الشريفة في ماورد عن نبينا وائمتنا (ع) وهي (١) ان يحب الانسان لاخيه مايحبّ لنفسه ولكن من انعم النظر . وامعن التدبر فيها والفكر . ووصل الى غور لوازمها ومعانيها تيقّن انه ليس لهذه الصفة مصداق . بل لم تقع في الخارج لسواهم وسوى امثالهم من خاصة الله وان بلغ العبد مابلغ من كرم الاخلاق فان لازمها انتفاء الحسد والعجب والكبر وغير ذلك من الرذايل . بل لازمها ايضا ثبوت جملة من الفضايل التي منها المشاركة والمساواة فيما في يد كل منهما للآخر من الغنى والثروة الى غير ذلك مما لا يخفى على الفطن العارف واما نحن اليوم عافاك الله فليتنا وعسانا نكفّ عن غير ناشر نا واذانا . وكيف نكفّ وها نحن نهشّ الى الغلبة فلا نزال ننهش . وننبش قبور المعايب لنهتك اخواننا فنفرح بذلك ونبتّش . فاين نحن رعاك الله وهذه المآثر وقد ذهبت وذكرها اليوم ذهاب امس الدابر . فالحديث بها عند الناس في هذا العصر سخافه . حتى كانهم يحسبونها احاديث خرافه

(١) ومن هنا قال احد طلاّب الحقيقة والباحثين عنها « صاحب الكوخ الهندي » (اعمل مع الناس ما تريد ان يعمل الناس معك) وقد اعجب الغربيون بهذه الكلمة وما ذلك الاّ لحرمانهم من النظر في كلمات اهل بيت العصمة . وباب الرحمة . ومعادن الحقيقة . وائمة الخليقة . والاّ فاذن تجد وتحس بمقدار التفاوت بينها وبين ما قدّمنا نقله من كلمات امير المؤمنين « ع » في قوله (اجعل نفسك ميزانا بينك وبين غيرك الخ) حيث ترى انّ التفاوت بينهما لايقاس بمقياس ولا يوزن بميزان . وانّى يقاس الحصى بالمرجان . او هُوَّةُ الكون بكيوان . فتدبر رعاك الله واعرف اهل الله تنال السعادة ان شاء الله

والله وليّ الهداية والاصلاح لناولهم وهو ارحم الراحمين ولكن لايحتجبن عنك رفع الله لك الحجاب . عن باب الصواب . اناّ انماّ اكثرنا من ايراد كلمات امير المؤمنين علي (ع) في تفاصيل العدل وتقاسيمه لِتعرف انّه هو الامام الصدّيق العادل . والفاروق بين الحق والباطل . فلا تعدل به من عَداه . ولا تساوي به من سواه .

وقد جشَّمناك سهوبَ الاسهاب ، وضربنا عليك من اخبية الكلام في العدل اطناب الاِطناب ، ونخشى ان نكون في تفاصيل العداله ،قد جُرنا عليك بالاطاله ، وسِمناك السأمَ والكسل ، واملينا عليك مايوجب الملل ، وهانحن نستميح سماحك ، ونستعطف بالعذر اليك شدّتك وجماحك فانا بما اقول زعيم ، والله به عليم ، انّ ذلك كله ما كان من قصدنا ونيَّتنا ولا اعملنا فيه شيئًا من فكرنا وروّيتنا ، بل سال القلم به وسفح ، وطفى لجّ البيان به وطفح ، واشجانا حديث العدل والحديثُ شجون ، وجرّنا الى بعض الكلام فيه لهجةُ ابناء العصر بذكره وهم فرحون ، نسأله تعالى ان يحقق الآمال . بظهور زمان الاستقامة والاعتدال ، وانتشار راية العدل والانصاف ، بين ساير الاصناف ولكن اين ياحبيبي لااين ، يا حُسن ماتسمع الأُذن ويا قُبح ماترى العين

ولم ارَ الاّ من يسرُّك قوله ولكن وشيكًا ما يسوءك فعله
وقد كان حسن الظن بعض مذاهبي فافسده هـذا الزمان واهله

ولنردد جامح القلم عن شنّ هذه الغارة . فعهدي بك حرُّ الطبع والحرُّ تكفيه الاشارة * ثم انّ مابسطنا الكلام فيه من (العدل الاخلاقي) وان كان خارجا عما عُقد له هذا الفصل اعني به الثالث المتكفل لبيان العدل (الاعتقادي) بالاصالة . الاّ انه بفضل الله ماجاء خارجا عن خطة هذه الرسالة

كما ينبِّه عليه تسميتها (بالدعوة الاسلامية) فانا وجدنا من العدل لنا اعدل شاهد . وعددنا من شرف مساعي ذلك المذهب ماهو اقوى معين على صحته ومساعد . وبعد ان محضناك النصيحه . ونصبنا لك فى العقايد والاخلاق موازين العدل الصحيحه (فلنعد الى الاصل . فيما عُقد له هذا الفصل)

من العدل الاعتقادي

فنقول ومن الله المعونة انّه قد اتفقت قاطبة المسلمين على اختلاف مذاهبها واذواقها ومشاربها على اتصاف ذاته تعالى بالعدل في الجملة بل ظنّي انّ ذلك مذهب كل من يقول بثبوت الفاعل المختار في المبدء حتى الاشاعرة وجعلُهم في مقابلة العدلية انما هو باعتبار لازم قولهم ومذهبهم في مسألة اخرى كما سيتَّضح لك ذلك ان شاء الله والاّ فهم قايلون بانّه جل شأنه متصفٌ بالعدل منزّهٌ عن الظلم كيف والكتاب العزيز طافح بذلك على وجه الصراحة والنصوصيه بحيث لايصحُّ من مسلمٍ انكارُه نعم لهم مذهبٌ يستلزم ذلك لزوما بنيا . ويوءدي اليه اداء بديهيا ' وذلك انهم انكروا الحسن والقبح العقليين بمعنى ان يكون للعقل حكم باحد الامرين على الافعال بذواتها وانفسها مع قطع النظر عن كونها ملايمة للطبع او منافرة له بتحصيل غرض او مصلحة او دفع مضرة ومفسدة او اعتيادٍ عرفيّ او انقياد دينيّ يوجبان الالفة او النفرة فالافعال عندهم بالذات ' ومع قطع النظر عن تلك الجهات شرعٌ سواء لاتفاوت فيها حسنا وقبحا ' وفاعلوها لايختلفون في الاستحقاق مدحا ولاقدحا فلو انّ رجلا اسدى عظيم الاحسان الى انسان ' ثم احتاج اليه باهون شيء فقابله بالردّ والهوان ' او القتل والحرمان ولم يكن ذلك الفعل ممّا يعود الينا ابدا بمنفعة او مضرة ' وقطعنا النظر عن حكم الديانة بتقبيحه

وتحريمه لم نجد فيه عندهم شناعة ، ولا استغرابا وبشاعة ، وهذا الحكم عندهم سارٍ في افعال الخالق والمخلوق جميعا سوى انّ افعال المخلوق قد تصير حسنة او قبيحة بعد تعلّق احكام الديانات بها ايجابا او تحريما بخلاف افعاله المقدّسة فانّه لا مجال للعقل فيها بتحسين او تقبيح ابدا فلو عذّب العبد الذي افنى عمره بالطاعة والعبادة وخلّده في جهنم وانعم على الشقيّ الذي اهلك العباد وافسد البلاد بالقتل والظلم وادخله الجنة لم يكن ذلك منه قبيحا ولا خلافه حسنا بل كلّ ما يفعله ويأمر به هو الحسن وكل مايتركه او ينهى عنه فهو القبيح لا انه يفعل ما هو الحسن لحسنٍ ذاتي يدعوه الى فعله او يترك الشيء لقبح ذاتي يوجب تركه ومن هنا لزم مقالتهم هذه انكار كونه تعالى عادلا بالمعنى الآتي قريبا بل صرّحوا بانكاره وجواز ان يُدخل النار مَن اطاعه والجنة من عصاه قائلين بان كل مايفعله هو العدل كيف ما كان وقد خالفهم في ذلك قاطبة العقلاء وضرورة العقول وتظاهر في خلافهم والردّ عليهم من المسلمين طوايف عُرفوا بالعدلية ، وهم كافة مشايخ العرفاء وسادة الصوفية واساطين الحكمة والفلاسفة الالهية وقاطبة المعتزلة وجمهور الاماميه وساير السلفيه والظاهريه ونحن نوضح لك الحقيقة باجلى بيان وذلك انّ لكل واحدة من الحواس الظاهرة بالضرورة ملايمات ومنافرات من الافعال الخارجية بل ساير الموجودات مما تقع عليه تلك الحواس فكما انّ السمع تلذّه اصوات القماري والبلابل بسجعها ، وتؤنسه نغمات الاوتار في تناسب وقعها ، وتزعجه اصوات الحمير وقعاقع الرعد المهول ، وعواصف الريح وزجل الطبول ، واللمس تلايمه النعومة وتؤلمه الخشونه ، والشمّ تُنعشه روايحُ المسك وتكمده العفونه وهكذا الذوق والبصر ، في مدركاتهما من الطعوم والصور ، فكما ان لكل واحدة من هذه الحواس منافرا وملايما ، ومصالحا ومصادما ، فكذا

لرئيسها وحاكمها ومُسيسها ، الذي به صار الانسان انسانا ، والاّ فهو بتلك الامور وحدها لم يكن الاّ حيوانا

لولا العقول لكان ادنى ضيغم ادنى الى شرف من الانسان

فلا محالة له منافرات وملايمات ، بضرورة ان له مدركات ومعقولات والاّ فهو معدوم باطل الذات ، وما القول بوجوده «ح» الاّ كالقول بالغول والعنقا وساير الخرافات ، ضرورة ان لا سبيل لنا للايمان بوجود شيء من القوى الحساسة الاّ بظهور آثارها اذ كم من واجد لجارحة العين والاذن وهو اعمى او اصمّ ، وفاقد لحاسة الشمّ وهو ذو انف اشمّ ، هذا حال النفس وقواها مع انّ لها جوارح وادوات ، واعوان وآلات ، ولهذا كانت مجردة في ذاتها ، مادّية في فعلها (والنفس في وحدتها كلُّ القوى) فكيف بالعقل وهو المجرّد في ذاته وفي فعله — والقولُ بانه لا يلزم من عزله عن تلك الحكومة والادراك بُطلانه من اصله بل يبقى له ادراك الكليات لاستقلاله بها من بين ساير القوى قولٌ خالٍ عن التحصيل بعيد عن التحقيق وبيان ذلك يحتاج الى الاشارة الى حقيقة الادراك ولُبّ معناه بحثا فلسفيا ، لا نظرا سطحيا وفهمُ ذلك وان كان لا يخلو عن صعوبه لما فيه من الغموض والغرابه على ذوي العقول الصحيحه . ومن له لطف قريحه . فكيف بمن سدّ باب العقول واحكامها بحكمه . بل ابطل حقيقتها بفاسد زعمه . ولكن حيث انّ لبيانه دخلا في اصل هذه المسالة . وبتحقيقه يتضح اقصى الحق وينكشف سرّ هذه المعضله . فنحن بعون الله نذكر هنا مايجريه قلم الغيب على اقلام من يشاء من عباده . ونبثّ منه مايمليه لوح الملأ الاعلى على لسانه وفؤاده ولا نبسط من القول فيه الاّ على قدر ما يباح لنا من افشاء سره . ولا نكشف حقيقته الاّ على وجه يجوز عندنا كشف ستره (فنقول) ومنه المؤونة والمعونة

ان حقيقة الادراك كما هو معناه لغةً اللحوق وحضور المدرك عند المدرك وهو يختلف باختلاف طرفي هذه النسبة المتقومة بهما المنتزعة منهما في ادراك زيد لعمر مثلا في الطريق اذا لحق به ظاهر واما في ادراك القوى النفسانيه الظاهرية والباطنيه . لمدركاتها المحسوسة والمعقولة الصورية والمعنويه . فانما هو بضرب من الاتحاد ونحوٍ من الاحاطة والسعة فالنفس بتوسط هذه الحواس التي هي كالآلات الموصلة لها كمالها بل هي كالجنود والاعوان للنفس في ذب الاذى عنها وجلب الخير لها تتّحد مع مدركاتها التي اوصلتها الحواس اليها بالنحو اللايق بها من الاتحاد * والاتحاد كلية على نحو الحقيقة والوحدة لا التركيب والانضمام لا يتحقق بين الماديين اصلا فان المادة مثار الكثرة والمغايره ولقد احسنوا فيما قالوا من ان المادي غايب عن نفسه فضلا عن غيره نظراً الى ان المادي لا يدرك شيئا من حيث المادة فهو غايب حتى عن نفسه اذ حيث لا ادراك فلا حضور وبالجملة فالمادي لابد ان يصير من سنخ مدركه حتى يدرك ويتحد معه الا ترى العناية الازلية كيف جعلت آلة الادراك التي هي الواسطة بين النفس ومدركاتها المادية ذات جهتين فمن جهةٍ تناسب المدرك وهي الجارحة كالعين مثلا لتنطبع فيها بالانعكاس او الارتسام . صور الاجسام . وتتّحد معها بهذا النحو من الاتحاد ومن جهةٍ اخرى تناسب المدرَك في التجرد وهي قوة الابصار التي اودعتها الحكمة في تلك الجارحة لتقدر على تجريد صور الجسمانيات كي تتّحد مع النفس فان تلك القوة شأن من شؤ ونها بل كالناحية والطرف منها ولكن طرفها الادنى هو ما اتصل بالاجسام وامتزج بالمادة كما ان طرفها الاعلى هو ما اتصل بالمجردات الخالصة من شوايبها وتلك المرتبة من النفس هي التي نسميها بالعقل وظني ان ما نروم توضيحه من ان الادراك للأشياء فى القوى المدركة عبارة عن الحضور وان الحضور ثمة

لايعقل الاّ بنحوٍ من الاتحاد بل الوحدة وسعة الوجود وان ذلك لايحصل الاّ مع المناسبة والسنخية إذ بالضرورة والوجدان. يستحيل أن يتّحد المتباينان من حيث هما كذلك كلّ هذه الامور واضحة لمن تدبّر وتدرّب في فكرته وفتح الله بصر عقله وعين بصيرته . وان طلبت في ايضاحه مزيدا . واردت مثالا يقرّب عليك منه امدا بعيدا . فقس الحال على وجدانك . الذي هو فوق سمعك في الادراك وعيانك . فانك تجد في نفسك عند العطش والظما نقصًا وانقباضًا وضيقا وألما . وكلّ ذلك راجعٌ الى امرٍ واحد وهو الإعواز والفقدان .والنقص والحرمان . ولايرفع ذلك تصوّرها لمعنى الماء . وانه رافعٌ للعطش موجب للرواء . ولا حضور الماء البارد بين يديك ، ومشاهدته بعينيك ، نعم اذا باشرته باعضائك ، او اجريته في امعائك ، وأحسَستْ به نفسك بواسطة تلك الادوات التي هي ايضا من قواها . ومنها واليها قوّتها ومجراها حصلت لك بتوسط هذه الآلات تلك الملابسة . ووقع للنفس مع الماء ذلك الاتّحاد والموءانسة . فهنالك تجد للنفس سعة وانشراحا . وبسطا وانفساحا وما هو الاّ وجدان بعد فقدان ، وكمالٌ غبّ نقصان ، ورفع مرض والم وصحةٌ عقيب سقم . وكذا القياس في النار فانّ تصوّرا انهـا جسمٌ بسيط عنصري يقتضي تفريق المجتمعات ليس هي الاّ الفاظٌ مفرداتُها مفهومة ومفاهيمها موهومة ، ليس لها من حقيقة النار ذكر ، ولا قلامة ظفر ، نعم هي شبح وخيال ، وحكاية ومثال ، وانّما احس بالنار وادركها ، من مسَّها وامسكها ، وعرف آثارها ومقتضاها ، من باشر بجسمه لظاها (سل عن النار جسم من عناها) والفرق بين المثالين انما هو بالملايم والمنافر وسيأتي بيانه في سياقة هذا التحقيق أن شاء الله ولكن ذلك اصلحك الله وعافاك ، حقيقة المعرفة وتمام الادراك ، وان كان هنالك مقامٌ في المعرفة اعلى منه ولكن

لا يسع بيانه مضيق هذه الباحة ، بل لا اجد في كشفه رجحانا ولا اباحة ثم لا ينافي ذلك الادراك عدم احاطة المُدرِك بتمام حقيقة المُدرَك إذ معرفة حقايق الاشياء مقامٌ فوق ما نحن فيه وانما الغرض اثبات انّ الادراك عبارةٌ عن الحضور وسِعة الوجود ولا يلزم من ذلك الاطلاعُ على الكنه والحقيقه فانّ اشدّ الاشياء حضورا الى الانسان واقربها اليه نفسه وهي من اجهل الاشياء عنده كنها وحقيقه ، واوضحها ادراكا وسعة ، نعم الشيءُ لا علم بكنههِ وحقيقته ، الاّ لعلتهِ او من قِبل علته ، واقنع من انوار هذه الحقايق بهذا الومض . فقد وصل الكلام الى مقامٍ يجد الندب قطعةُ من الفرض ، امّا اذا ادركت حقيقة الادراك فاعلم انّ عناية التدبير قضت واقتضت انّ لكل قوة من القوى وحاسة من الحواس ملايما ومنافرا ، باطنا او ظاهرا فعلا من الافعال ، او عينا من الاعيان جوهرا او عرضا ، مقدمة او غرضا وكلّ ذلك عائد الى ملايمة ذات النفس ومنافرتها لما عرفت من انّ الحواس والقوى مجاري وآلات لهـا ، وطرق اليهـا ، بل « هي هي » وافعالها متعاكسه ، منها واليها الاّ ان الحكيم الخبير جعل النفس الانسانية ناقصة بحسب الفطره ، مستعدة للكمال في سعيها بحسب القوة والقدره ، سارية في صراط الحركة اماّ الى الرُّقي اوالانحطاط على التوّسط او الافراط فمن ثّمة الهمها فجورها وتقواها ، ليفلح من زكّاها ، ويشقى من دسّاها ، فحقيقةُ تلك الملايمات والمنافرات الراجعة الى النفس انما هي كمالها او فقدانها ، وتمامها او نقصانها ، والشيء لا يطلب ولا يسعى الاّ لكماله وتمامه . ولا يهرب الاّ من نقصهِ واعدامهِ ، فميلُ القوى الى تلك الملايمات ، انّما هو لكونها سعة للنفس وكمالات ألا ترى كيف تحبُّ الثروة في الجاه والمال والاولاد وما الثروة كما علمت في اللغة والاستعمال الاّ الزيادة والتوسعه فاذا كانت

النفس لتوسعتها في علايقها الخارجية بهذا المقام من المحبة فهي لتوسعتها في ذاتها اَحبّ ، واليها ارغب ، وهذا ما وعدناك به من بيان وجه الملايمة والمنافرة نعم حيث ان النفس بحسب فطرتها قاصره قد تحسب ما هو مضرّ لها نافعا وما هو موجب لنقصانها مكملا — الا ذاك من كثرة آفاتها ، وغلبة شهواتها الا ذاك من انحرافها عن الاعتدال الطبيعي والصراط المستقيم المنصوب بين عينيها ، وميلها عن الاستقامة الفطرية التي فطرها المبدع عليها ، الا ذاك من سوء اختيارها ، وسيّء اعتبارها ، وخسّة مقدارها ، وضعة همّتها ، وضعف تربيتها ، فوجب نظراً الى ذلك كله ان يجعل لها ذلك المدبّر الذي انشأها للصلاح لا للفساد ، وللالفة من مباديها لا للحياد . وللرحمة لا للغضب . وللنجاة لا للعطب ، وللرُّقي لا للانحطاط ، وللصحة لا للاغلاط ، مسدّدا عاصما وملكا حاكما ، وميزانا عدلا ، وحَكَما فصلا ، وقيدا لها عن السوء وعقالا ، ومرشدا لها هداية وضلالا ، فوهبها ذلك الصانع المقدّر . والحكيم المدبّر ، تلك القوةَ الكامله التي نسميها بالعاقله ، ذات الآراء الفاضلة ، فانّها هي التي تميز للنفس بين النافع والضار ، والمصلح والمفسد ، والمضِل والمرشد ، والداء والدواء والمرض والشفاء ، والسعادة والشقاء ، لا اريد بالنافع والضار ، ما يرجع الى المآكل والمشارب من البارد والحار ، او العقاقير والادوية ، او الاستلذاذ بالروايح الطيّبه واستكراه الموذيه ، والانس والطرب بترجيع النغمات والوحشة والتنفُّر من انكر الاصوات ، فانّ جميع ذلك قد تكفلت به الحواس ، وتساوت بهِ مع الحيوان عامة الناس وما هو بالذي بهِ التفاوت والتفاضل ، والتعالي والتسافل ، والتأخرّ والتقدّم ، والخسّة والتكرُّم بل اقصدُ واريد ، ما به الفضل والمزيد ، بين عامة افراد الانسان ، وبهِ الامتياز بين نوعه وسائر انواع الحيوان الذي اختصّ به البشر

وانفرد ، واستأثر واستبدّ ، ولم يترك منه لانواع جنسهِ حظاً . لا معنى ولا لفظا ، تدبيرَ حكيم ، وتقديرَ عزيز عليم ، غير جائرٍ في حكمه ، ولا قاصرٍ في علمه ، تلك هي القوّة التي يسعى بها الانسان للرقيّ والسعاده ، والسعة والزيادة ، والعلم والافاده ، هي التي يميز بها الافعال الحسنة من القبيحة والفاسدة من الصحيحه ، والاخلاق الشريفة من الدنيه ، والجيِّدة من الرديه هي التي بها يكتشف ويخترع ، وينفع وينتفع ، ويعلو ويرتفع ولا ينفك بها ولا يزال ، ينتقل ويرتقي من حال الى حال ، اترغب في ان تحسَّها وجدانا وتدركها معرفة وايقانا ، حتى كانك تراها عيانا ، هاكَ فانظر الى عامة الحيوانات على كثرتها واختلافها ، في انواعها واصنافها ، تجدها في حالتها الهمجيه ، وعاداتها الوحشيه ، وعيشها البسيط ، واقواتها الزهيده ، وملابسها الطبيعيه ومساكنها الاصليه ، من مغار او وجار ، او عشٍ او اوكار ، كلُّ ذلك لم يزل طول حياتها على حال واحد ، ووضع قديم بايد ، لاتبرح عنه ولاتزول ولاتنتقل الى غيره ولاتحول ، تجدها لاتكدح ابدا ولاتسعى ، الاّ لتحصيل المورد والمرعى ، ولا ترتقي على مرور الاعوام ، الاّ في ضخامة العظام ، ونُموّ الاجسام ، الذي شاركها فيه النبات والاشجار ، وان امتازت بقليلٍ من القدرة على دفع المهالك والاخطار ، لكن لا علم لا اختراع ، لا رقيّ لا ارتفاع ، لا اكتشاف لا صناعه لا استهلال لابراعه احسن ماذكروا للحيوانات من الصناعات ، ماينسج النحل والعنكبوت ، من مسدّسات البيوت ، لكن هل سمعت او رايت انّ فردا منه اومن غيره من الانواع قد احدث في ذلك الشكل صفة اخرى ، او وضعا وجد انّه اليق به من الوضع القديم واحرى ، وهذا الانسان كما تراه لايبرح كادحا طول عمره في السعي لاصلاح امره ، كل ذلك طلبا للكمال والسعاده ، والسعة والزياده

نعم بعضٌ سعى لسعادة حاله الحاضره ، واعرض عن تحصيل سعادة داره الآخره التي هي دار قراره ومقام بقائه ، ومنزل خلوده في نعيمه او شقائه وبعضٌ (واليك اللّهم نرغبُ في ذلك) قد اخذ من كلا الدارين حظّه ، واجزل من كلتا السعادتين نصيبه ، اولئك عباد الله وصفوته (وقليلٌ ماهم) وصفوة القول انا وجدنا حياة الوحش والطير والبهايم ، وهي في طمانينة وهدوٍ وسكون دايم ، وكانّها في فراغ الآمن ان تتسافح وتتناكح ، وتاكل وتشرب ، وتلهو وتلعب ، امّا الانسان ففي جولان وحركة دايبه ، ومساعٍ واصبه ، واعمال ناصبه ، فلو تاملتَ في طول حياته حالتَه ، وجدته كهايمٍ في الارض يطلب ضالّته او كصادٍ يجول على الماء في القفار ، ليطفي حرّ الاوار ، تجد ذلك غريزة منه وطبعا ، يكدح في السعي ولا يدري لايّ شيء يسعى ، انا انبئك بالخبر اليقين ، واكشف لك عن السرّ المبين ، انما يسعى طلبا لسعادته وكماله ، ورفع مايجده من نقصه وسوء حاله ، (وكلٌّ ميسَّرٌ لما خُلق له) فتلك الاحوال والآثار هي التي اوجبت لنا ان نحكم بان للانسان قوة غير القوى التي يشترك بها مع الحيوان سمَّيناها بالقوه العاقله والنفس الناطقه فمن ميّز بين ما به الشقاء والسعاده ، والنقص والزياده ، فسعى في طلب هذا ورفض ذلك ، وشارك بل فاق على الاملاك ، فهذا هو الانسان لكن لا تجده في افراد من تسمَّى به الاّ قليلا ، كيف واكثر من فيه كما يقول باريه (إِن هم الاّ كالانعام بل هم اضلُّ سبيلا) واراد جل شانه بالاضراب والترقي التلويح والاشاره الى قوله تعالى (قست قلوبهم فهي كالحجارة) فذلك مايستحق به المرء حقيقة الانسانيه لا ما سمعته زمان الصبا في الفنون الرسمية والعلوم الآليّه ، من انّ الانسان هو الذي يدرك الكليات إذ ايُّ شرفٍ بهذا وايّ فايده وايّ دليل ومن ايّ سبيل يصحُّ لنا الحكم بانّ الحيوان غير مُوصل القوى

الحسية بهذه القوّة الزايده ، لنحكم بتمايزهما من ذلك واختلاف نوعيهما وهل هذا الاّ خبطٌ في القول وخطلٌ في الراي تاباه الرصانةُ في العلوم والمتانه وهذه القوّة هي العقل الغريزي المطبوع الذي عرفت جملة من مباحثه في صدر هذه الرساله اماّ لو كمل وتمّ وقويَ واشتدّ بانضمام العقل الكسبي المسموع المستفاد من التجربة والتدرّب والتدبر فذاك مقام التصاعد والتسامي فى معارج الانسانيه. وتحصيل الملكات القدسيه .ولا اعني بالانضمام اجتماع المختلفين . واتّصال المنفصلين .بل المراد تقوّي الضعيف .وكمال الناقص فانّ جميع ما ذكروا للعقل من الاقسام والمعاني مراتب ودرجاتٌ له بل العقل بجميع مراتبه مع النفس بجميع قواها متّصلٌ واحد ممتدٌّ طرفُه الأعلى متعلق بالمجردات والاسفل متعلقٌ بالماديات ولذلك الواحد المتصل شؤونٌ ومراتب وآثار وخواص نعبّرُ عن كل واحدة من تلك المراتب باعتبار اثرٍ من تلك الآثار بعبارة خاصة وباسمٍ غير اسم الآخر فهذا سمع وهذا بصر وهذه هاضمه وهذه دافعه وهذه مخيّله وتلك حافظه وهكذا حتى ينتهي الامر الى العاقله التي هي منتهى المراتب وآخر منازل النفس * وطريق السعادة التى ينبعث الانسان على تحصيلها بقوته العاقلة انّما هو العلم والعمل والاّ كان كالظامي الذي تصوّر الما ولم يشربه – والحاجةُ الى العقل ظاهرة في كلا المقامين اذ هو المميّز لما به السعادة كما انه هو الباعث للنفس وقواها الى تحصيله ألا تراه كيف يسوقها الى ابغض الاشياء اليها واشدّ الامور منافرةً لها وهو الجوع والظما وتحمّل المشقّة والاذى بل القاء النفس في المهالك.واستقبال السيوف وشرب الحتوف تحت السنابك . حيث يحرزها به السعاده . ونيل مقام الشهاده . او دفع العار .وحفظ الذمار. كما كانت تصنعه عرب الجاهليه وغيرهم ممن لم تكن تبعثه على ذلك الديانه . ولا

تسوقه اليه الشريعه . فهل يتأتى ذلك من شيء من هذه القوى الظاهره او الباطنه مع شدة منافرتها له وفرارها عنه وهل هو الا من خواص تلك القوة القدسيه واللطيفة الالهيه ولكن كل ذلك منها حيث لا يكون القلب والعياذ بالله مقلوبا والهوى غالبا والعقل مغلوبا والا كان كملك عادل ظلمته رعاياه وسرت عن مقام طاعته جنوده وسراياه فعاد في ايديها اسيرا وظلمت انفسها حيث اظلمت وهو في زاوية البيت يتوقد نورا فلم تستضيء بمصباحه ولا استشرقت بصباحه بل العبارة التي هي اشد للواقع مطابقه واحسن هنا موافقه هو ان نقول ان ذلك الامر الواحد المتصل ان غلبت وظهرت عليه احكام طرفه الاعلى تعالى وتقدس كله وتكامل وان غلبت عليه احكام طرفه الاسفل وخواصه تناقص وتردى وتسافل ولا يخفى عليك ما في هذا التعبير من اندفاع كثير من الاشكالات والمحاذير فتدبره واغتنمه من فضله تعالى وبعد هذا كله ما اظن انه قد بقيت عندك ريبة او شبهة في ان للانسان قوة بها استحق صدق حقيقة الانسانيه والخروج عن البهيمية والحيوانيه والسبيل الى الحكم بها آثارها وخواصها — ووظيفتها تمييز الحسن من القبيح والخير من الشر والحث عليهما وان العقل اذا لاحظ الافعال بذاتها مع قطع النظر عن كل شيء وجهة سواها سواء كان صدورها من ذيه او من غيره فلابد ان تكون اما ملائمة له فتكون عنده حسنه كالاحسان او منافرة فقبيحة كالظلم والعدوان او خالية من الجهتين فتختلف بالوجوه والاعتبار حسنًا اوقبحًا او تبقى على ما هي عليه لا تقتضي ذمًا ولا مدحا وان ذلك امر ما هو ببدع فيه بل لكل قوة من قوى النفس في مدركاتها ملايم ومنافر وان سر الملايمة والمنافرة امر يعود الى ما يقتضي كمال المدرك ونقصانه من حيث السنخية والمناسبه فالاحسان من الغير ولو على الغير مثلا لما فيه من الجهة

الخيريه الدالة على سعة نطاق الوجود و كماله صار ملايمًا للعقل محبوبًا اليه حسنا عنده لما بينهما من شدّة التناسب والتقارب إذ العقلُ معدن الخيرات ومصبّ البركات ، ومقود السعادات ، العقل احبّ خلق الله اليه ، واكرمهم كما علمت عليه ، العقلُ مقيم قواعد العدل ، وناصب موازين القسط ، العقل والعدل قرينان موءتلفان ، وصاحبان لا يختلفان ، بل اصل وفرعٌ ، وواضع ووضع العقل دليل ، والعدل سبيل ، العقل ضياء والعدل فضاء ، وبه استضاء العقل معانٍ وعيان ، والعدل لسان وترجمان ، العقل ادلّة وبراهين والعدل فصول وقوانين ،

لَعمرُ العقل وعقايله والحقّ وحقايقه والدين وشرايعه انّه منذ برء الله النسم وشرع الاديان للامم مامن امة ولاشريعة بسيطة اوممتزجه حقةاوباطله اعطت العقل ماينبغي له من شوءون شرفه وجليل وظايفه كهذه الشريعة السامية الاسلامية والملة المحمودة المحمدية فانّها هي التى شحذت العقول وفتحت لها ابوابها واطلقت سبيلها وقامت بها على نواميس العلم والمعرفة وبثّت منها في الوجود روح التدبر والبصيره حتى بزغت انوارها وتنوّرت افكارها واعطت الكل واحد من عقول البشر ماهو الحريُّ بها من حرّيتها في التصرّف بالعلوم والمعارف والتصدي لطلب الفوت في الكمال والسبقه وتحصيل العقايد الحقه والنجاة من كل ورطه والنهوض من كل سقطه وحثّت على العبرة والفكره والبصيره والنظر في ملكوت السموات والارض للتوصل الى اسرارها الدقيقه والغور في طلب الحقيقه واذا شئت برهان مانقول فهاك انظر الى سجلّ قوانين هذا الدين (القرآن المبين) تجده مشحونا بامثال قوله تعالى (افلايتدبرون افلايذّكرون افلا يعقلون) وامثال قوله تعالى في التأنيب على ترك التعقل (ان هم الاّ كالانعام بل هم اضلُّ سبيلا) وامثال قوله تعالى (افلم يسيروا في الارض فتكون لهم قلوب يعقلون بها وآذان يسمعون بها فانها لاتعمى الابصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور) وامثال قوله تعالى (ان في خلق السموات والارض واختلاف الليل والنهار لآيات لاولي الالباب الذين يذكرون الله قياما وقعودا ويتفكرون في خلق السموات والارض الخ) الى كثير من نظاير ذلك مما يضيق المقام عن احصائه ويدلُّ بفحواه ومنطوقه على حسن

التفكر والتدبر وإعمال القوة العاقلة في النظر والعبرة بل لزوم ذلك ووجوبه وانحصار نيل السعادة والكمالات به ثم اكدّ ذلك برفض التقليد وقبح التظني والتخمين وذمّ اتباع الآباء والامهات (إن هم الاّ يظنون إن هم الا يخرصون ما لهم به من علم الاّ اتباع الظن بل قالوا انّا وجدنا آباءنا على امة وانا على آثارهم مقتدون قل اولو كان آباؤكم لا يعلمون شيئا ولا يهتدون) وهذه المزيّة مما اختصت به هذه الشريعة المقدسة وانافت بها على ساير الشرايع والملل المنبثّة على هذه البسيطة كالبوذه والبراهمة والزرادشتيه والصابئة بل وحتى على اختيها الكتابيتين اليهودية والنصرانيه امّا الاولى فبما ضغطت به امّتها من) التلمود والكهنوت) وامّا الثانية فقد زادت الطين بله والمريض علة بما صنعته البابوات والقسس منذ عهد غير حديث وذلك فيما لا تزال تعلن به في منشوراتها من الحجر عن الخوض في معرفة سر التثليث — المستحيل بضرورة العقول الممتنع لدى اوايل الاذهان — وحذرا من التفات امّتها الى بداهة فساده وانفلاتها من اشراك هذا الشرك ومضلاّت هذا الضلال شرعوا لهم في كثير من المنشورات لعن كل من يقول بجواز خضوع الكنيسة لسلطة مدنيّه او جواز ان يفسرّ احدٌ شيئاً على خلاف ما ترى الكنيسة او يعتقد بان الشخص حرٌّ فيما يعتقد ويدين به ربّه واذا سُئل المسيحيُّ عن الاقانيم الثلاث وطلب الباحثُ منه تصوير معقوليتها وامكانها فضلاً عن تحققها وثبوتها قال هو سرٌّ لا يُدرك وصار القسس تتهدّد بالهلاك الابديّ واللعنة الخالدة كلّ من يتعرض لادنى بحث او تحرى افهم ذلك وقالوا هو موضوع ايمان وتسليم لا بحث واستقراء ولهذا شئون وتفاصيل وبيانات وتتمات عسى ان نتوفق لايضاح الحق في الاشارة اليها لدى اواخر الجزء الثاني من مباحث النبوات ان شاء الله * ولكن وللاسلام مزيد الشكر والمنّة والسلام فانّه على الرغم من اولئك المشرّعين بل المبتدعين في شرايعهم قد جاءت شريعته وكتابه الكريم وهو لا يبرح عاملا على فكّ العقول من ذلك العقال واطلاقها من تلك الاغلال وسراحها من هاتيك السجون آمراً باعمالها والتدبّر بها وعرض كلّ قضية عليها وثوقاً منه بصحة ما جاءت به هذه الشريعة من مشروعاتها في اصولها وفروعها ومعاملاتها وسياساتها وجميع شؤونها وانه ليس فيها شيء يأباه العقل وقانون ترفضه السياسة وعقيدة تتعقّد على الفهم وادب تمجّه الطباع كما هو في اخواتها التي ضغطت على حرية الافكار وحجرت عن استعمالها سترا على ما فيها من منافيات العقول

ومصادمات البديهه وصداً اعن ذلك الدين القيم "(دينا قيماً ملة ابيكم ابراهيم هو سمّاكم المسلمين) اللهم "فليحي العلم والعقل وليهلك الجور والجهل ولتنحل النِّحل الباطلة العاتيه ولتقوى الملة الاسلامية السامية اللهم فاحمل عبادك عليها واهدهم اليها فانهم تايهون في الضلاله خابطون في الجهاله كبراؤهم اضلّوهم واهل الفتيا فيهم فتنتهم الدنيا ففتنوهم ومنك العون والعناية وانت وليّ التوفيق والهداية حناناً منك يامن عمّت نعمته ووسعت كلّ شيء رحمته يامكوّن الاكوان ومبدء الكيان ياهادي المضلّين

لعمرُ العقل انّه مامن اثر خير وبركه . ونجاة من سوء وهلكه ، الاّ وهي به واليه . وعنه وعليه . واني طالما اخاطبه بالتحيه . واسوق اليه ثنائي عن ابتهاج ومودة قلبيه . قايلا في خطابه لله انت ماشرفك ماامجدك وسلام عليك ماذا فقد من وجدك وماذا وجد من فقدك . وهل انتشر صيت عالِمٍ في العالَم الاّ بك . وهل طار في الآفاق صوت نُبلٍ وشرف الاّ بتعليمك وادبك . فلا حرَمنا الله من خيراتك . ولا أعدمنا جزيل بركاتك . ولا تحسبنّ انّي احيي معدوما . اوانّي قدجرّدت لخطابي امراً موهوما ، كلاّ فانّك ماصرتَ محلاًّ للخطاب الاّبه ومانلت شرف الشعور الاّ بسببه . ولو ساعدنا الوقت والفراغ لأريناك جميل اثره في نواميس حياة العالم . وما صبّه من السعادة على نوع بني آدم ، لا اعني ماافاده من كرم الأخلاق وتهذيب النفس بالعفة والحياء ، والصدق والصفاء ، والكرم والوفاء . والصبر والصيانه والرصانة والمتانه ، وحفظ العهد والامانه ، وترك الكذب والرياء ، والعُجب والكبرياء ، الى غير ذلك مما تكفّل به علم الاخلاق فانّ ذلك كلّه اثرٌ من آثاره . ولمحةٌ من انواره . بل مالم تسمع بطرزه . ولا كشف لك احدٌ عن سرّه ورمزه ، ولكن

شرح اين هجران واين درد جكر اين زمان بكذار تاوقت ديكر

وهل بعد هذا كلّه تحسن المخاطبة والمجادلة الصحيحه مع من انكر

تحسينه وتقبيحه، وقد اتضح اشدّه لديك، وتجلى غايته عليك، انّ من انكر ذلك فقد ابطل آثاره ومن ابطل آثاره فقد ابطل ذاته وحقيقته ومن ابطل ذاته فذاك لانه للعقل والشعور عادم، وهو ملحق بالبهايم، وانّها

منزلة ما خالته يرضى بها * لنفسه ذو ادب ولا حجا

وبحمد الله قد جرى الوادي فطمّ على القري، وبعد ذا فليقل ماشاء الأشعري وقد امتاز الحقّ من الباطل والصواب من الخطا لمن يعقل، وجرى سيل العقل واذا جاء نهر الله فقد بطل نهر معقل، ولعمرُ الحقِّ انّ عنائي كلّه ما كان ردّاً على تلك المقاله وتنبيها على هاتيك الضلاله فانّي والله لا رى الخوض فيها من العبث اذ التشكيكُ في تحسين العقل وتقبيحه تشكيكٌ في البديهيات الاوليه. والشبهة فيه شبهة سفسطائيه، ولكن احببنا تحقيق القول في اصل هذه المسئلة وبيان حقيقة الادراك وما وجه الملايمة والمنافره في القوى الباطنة والظاهره وغير ذلك مما مرّ من التحقيقات التى ارجوان تقع منك موقعا لايقا وتصادف محلاّ فايقا فانّي ماعثرت عليها في تحرير ولاظفرت بها ولا من ماهر او نحرير والفضل والمنة لله وحده فانّه هو الملهم والموفق عبده — وهذا يغنيك في تحقيق الحق عما ذكروه في المباحث الكلاميه، ويكفيك عما سردوه من الحجج الخصاميه فانها توجب كلالة الطبع وملالة الخاطر، وتعب الفكر ثم لاتقع بعد ذلك على غاية محصلة، ولا ثمرة واضحه، وظني انّ الحامل للاشعري على الالتزام بهذا الاصل اعني انكار الحسن والقبح التزامُه باصلين آخرين يبتني عليهما هذا الاصل وكلٌّ من المبتني والمبتني عليه بناءٌ هار، وقد انهدم وانهار، والاصلان اللذان بني عليهما احدهما في افعال الخالق، وهو انّ جميع الموجودات ملكه، وفي قبضته فهو يتصرف بها كيف شاء وكيفما تصرّف بها فهو حسنٌ وعدل بل تقييده في ملكه ومنعهُ عن بعض انحاء التصرّف

فيه هو عين القبح والظلم (لا يُسئل عما يفعل وهم يُسئلون) ونحن نقول نعم هو المالك بالحق والحقيقة والاستحقاق، من غير تجوّز في الاستعمال او الاطلاق فهو يتصرّف على ارادته واختياره كيف شاء وفيم شاء لاضدّ له فيمانعه ولا شريك معه فيحكم عليه او يزاحمه، ولكنّا نقول انّ الافعال باسرها كالاقوال بالنسبة الى عقولنا الثابتة المحققه المخلوقة لهذه الوظيفة فمنها محكمٌ بقسميه نصٌّ وظاهر ومنها متشابه بقسميه مجمل ومُأول فالمحكمُ ما ظهرت وجه المصلحة والحسن فيه على القطع او الرجحان لعامة العقول المتدبرة المتدربه لا يختص به عقل دون عقل ورجل دون آخر كحسن الاحسان وقبح الظلم والتكليف بالمحال مثلا والمتشابه سواء تزاحمت فيه الاحتمالات او انسدّ بابها كلية فهو الذي لا يعلم تاويله ووجه الحسن والمصلحة فيه الا الله والراسخون في العلم واما عامة العقول فتقف دونه وتعتقد فيه الحسن على الجملة لا التفصيل تنزيها لفاعله عن الجهل او العبث لما تعتقده من علمه وحكمته، وكمال قدرته، ومع ذلك فالعقول حاكمة جازمة بانه تعالى عما يقول الظالمون علوًّا كبيرا لو ارادَ ان يفعل القبيح بان يكلِّف بالمحال ويُدخل العاصي الجنه والمطيع النار لم يكن له دافع ولا مانع اذ له القدرة والتصرف وحده ولا رب ولا مالك سواه ولكن كرما منه ولطفا، وغناء محضا وجودا صرفا، وتعظيما لشأنه، وتقديسا لذاته، لا يفعل ذلك بارادة منه واختيار لا بتقييد مقيّدٍ له اوحكمِ حاكمٍ عليه فايُّ منافاة في ذلك لما ذكروه من انه لا يسئل عمّا يفعل ومن انه يتصرف في ملكه كيف شاء وكم من الفرق بين من لا يفعل الشيء لطفًا وكرما وبين من لا يفعله قصورا وعجزا والمقام يا هو لا، من الاول لا الثاني فانا نقول سبحان من تنزّه عن الظلم والفحشاء، ولا يجري في ملكه الاّ ما يشاء، فما الداعي لسدّ باب العقل

الحاكم، والحاق مَن خلقه الله مستعداً للافضلية على الملئكة بالبهايم، اللّهم انا نعوذ بك من الضلال والظلم والظلام، فانك انت العاصم وليس الاّ بك الاعتصام «وثانيهما» في افعال المخلوق وقد زادوا في النغمات، وجاءوا باقبح ما في العالم من الشُبهات ألا وهي شبهة الجبر حيث ذهبوا الى انّ العباد مجبورون على افعالهم وليس لهم اختيار فيها وان كانوا معاقبين عليها ثم انّ بعضهم ضمّ اليها ما هو كضمّ الحجر الى جنب الانسان وبعضهم قال بها على بساطتها ثم قالوا واذا كان العباد مجبورين في افعالهم فلا معنى لتحسينها وتقبيحها وذمّهم او مدحهم عليها فانّ المدح والذم والملامه انما تصحّ في الافعال الاختياريه . لا الاكراهيه . نعم صدقوا فيما قالوا . ولله درُّهم فيما اجازوا واحالوا . ومثلهم فليجرِ في اصول الديانات . وتحقيق الحق بالبراهين والبينات . فلقد بيَّضت مقالتُهم وجه الاسلام والمسلمين . وكشفت عن حقيَّة هذا الدين المبين . حتى صحّ لنا ان نكتفي في الاحتجاج على صحَّته بانّ ما فيه من العقايد والاصول . هي التي تقبلها العقول . وقد تسنّى بهذا لنا الاستظهارُ على ساير الملل من اليهود والنصارى والمجوس في انّ مذهب الاسلام هو الذى لا تمجُّه الطباع السليمه بل تتنافس على اخذه النفوس . اما شبهة الجبر فهي وان ذكروا فيها من الشُبه والتشكيكات مارجعتْ المسألة به على وضوحها من المعضلات . ولكن بحمد الله لم يخفَ علينا موقعُ الخطأ منها . وموضع الجواب عنها . ومحلُّ الصواب فيها . ولو وسع المجال لأريناك من التحقيق عجباً بيّنا . ولخطبنا عليك من البيان خِطَبَاً تعرّفك كيف صعَّبوا الخطب وقد كان هيِّنا . بيدَ انها تنجرُّ الى مسألة القضاء والقدر والسعادة والشقاوه واخبار الطينه وكيفية الثواب والعقاب الى غير ذلك من المسائل المتشعِّبه . والمطالب الغامضة الصعبه .

سيَّما وقدورد المنع عن الخوض في بعضها بما لا يخفى وجهُه والسرُّ فيه فقد سُئل سيّدُ العارفين امامنا امير المؤمنين «ع» عن القدر فقال طريقٌ مظلم فلا تسلكوه وسُئل ثانيًا فقال بحرٌ عميق فلا تلجوه وسُئل ثالثًا فقال سرُّ الله فلا تتكلفوه ومثل ذلك عن ايمة الهدى «ع» كثير . نعم وجوهها لا تخفى على الناقد البصير . ونحن بعون الله سوف نعطيك صفوة تلك المناهل ولُباب تلك المسايل . ولكن الاولى اوّلا ان نحيلك على حسِّك ووجدانك . وبداهتك وفطنتك . ونطوي الدليل والبرهان في طيّ البيان وذاك انّك تجد في نفسك انّ كل فعلٍ يصدر منك فهو بارادتك واختيارك . وعن ميلك وشهوتك . وانت قادرٌ على فعله وتركه . وقديبدو لك وجه فساده ومقتضياتُ تركه ومع ذلك لاترتدع عنه ترجيحًا لشهوتك وغلبةً لهواك على عقلك كما قال امير المؤمنين «ع» كم من عقل اسير . تحت هوى امير . وما تفعل من فعلٍ الاّ وانت تجد القدرة في نفسك على تركه وهل الاختيار الاّ هذا اعني صدور الفعل عن قدرة وعلم وارادة ولا ينافي ذلك كونُ هذه الأمور كلها من الله جلّ شأنه كما انَّ وجودك ايضًا منه بل جميع شؤونك ولكنَّه جعلها لك على نحوٍ انت تُصرّفها كيف تشاء . وتصرفها فيما تشاء . تصرّفَ المالك في مملكته . وذي السلطان في سلطنته وهذا لاينافي الاختيار بل عينه كما لاينافيه ايضًا كونُ الفعل بعد تمام علته يجب وقوعه و(الشيء اذا وجب وُجد) كما انه (اذا وُجد وجب) قاعدتان مسلَّمتان فانّ وجوبه بالاختيار لاينافي الاختيار والقدرةُ عند المحققين هو انّه لو شاء فعل ولو شاء ترك وعند اشائة الفعل ووقوعه يبقى صدقَ هذه القضية اعني انَّه لو شاء ترك ولا تزول صفة القدره حتى ينتفي الاختيار كما هو ظاهر وإقدارُ الله سبحانه للقادرين وتقويته للاقوياء وتيسير الامور ليس

بجابرٍ لاحدٍ منهم على فعل من الافعال ولا على عمل من الاعمال ولا على
ترك شيء منها ضرورة وضوح الفرق بين الاقدار والاجبار وتناقضهما
ومع اتصافنا بالقدرة بديهةً لا جبر ضرورةً كما ان العلم منه تعالى لايوءثر
ذلك بالضرورة ايضاً اذا العلم مرآةٌ تحكي عن المعلوم على واقعه لاعلةٌ
او جزء علة لتحققه والاّ لتقدّم المعلول على علته فتدبّره جيداً ثم انّ كل
قدرة وقوة منحها الله لعباده على عمل وفعل فهم قادرون على الترك بعين
تلك القوّة التي هم قادرون بها على الفعل فقدرةُ اليد على البسط هي
التي بها يقتدر على القبض وكذا ساير القوى ولكن ربّ فعل تركه اسهل
من اخذه ورب فعل بالعكس والعبد قادرٌ على الحالين مختار في الامرين
وانما الدواعي ترّجح له احدهما الأسهل او الاثقل مثال ذلك اللصُّ وسرقته
بالليل فانّ النوم على الفراش الوطيّه على كل حال اسهل من الذهاب في
ظُلم الليالي الى المواضع الشاقة ونقب الدور والجدران وتسوّر الحيطان
والتعرّض للمهالك ولكن الحرص والرغبة وشدّة الحاجة وشهوات
النفوس وترك النظر في العواقب والغرور بالاماني ووساوس الشيطان
وما اشبه ذلك من الاسباب يدعوهم الى فعل ما هو اصعب وعمل ماهو
اشقّ واختيار ما هو اشق . وترك ما هو اسهل وابقى . فهذه الدواعي
هي اسباب اختيار العبد لاحد الامرين من الفعل او الترك وترجيح هذا
على ذاك وليس القصد من اثبات الاختيار كون الفعل يقع جزافاً وبلا
سبب وعله وبغير جهة بل المراد انّ الفعل بعد ان كان ممكناً في ذاته من
ذلك الفاعل جائزاً وقوعه منه وعدمه فالجزء الاخير من العلة التامه لوقوعه
المرَجحة له على تركه وعدمه بعد تساوي الطرفين في حقِه هو ارادته
الحاتمةُ الجازمة المنبعثة عن تلك الدواعي الحسنة او القبيحة المصادفة تلك

الارادة لباقي الاسباب والمعدّات التي يتوقف عليها حصول الفعل ووجوده منه في الخارج وبهذا الميل والارادة بعد الالتفات الى الدواعي المتقابله والجهات المتزاحمه وتبيّنها له القاطع لسبيل حجته وميله الى احد الطرفين صار العبد مختارا . وسمَّينا تلك الحالة والصفة اختيارا . ومخالفُنا إن وافقنا على هذا المعنى فيا حبّذا الوفاق ثم فليسمِّها بما شاء كسبًا او غيره وان انكر ذلك من استناد الفعل الى تلك الاراده فقد انكر عرفانه . وخالف حسَّه ووجدانه . وان شطح وطفح ونقل الكلام الى السوءآل عن علة ميله وترجيحه لدواعي الخير او الشر مع اِطّلاعه عليهما ومعرفته على التفصيل بهما فصار هذا شقيًا وهذا سعيدا مع تساويهما في المقدّمات حسب الفرض قلنا له هذا سرُّ القدر الذي لا قدرةَ لك او لنا على الخوض فيه . ومقام اللوح المحفوظ الذي انت او نحن اقصر باعًا عن الاطّلاع على اسراره ومعانيه . بل هو سرُّ الله المقنَّعُ بالخفاء فلا يجوز إفشاؤه . ومكنون علمه المدّرعُ بالغيب والعماء . الذي تعظم بُين ابناء المعرفة أنباؤه . وقد كنتُ اصلحك الله في عهدة اَن اُثبتَ لك انّ العبد مختار في فعله وما كنت في عهدة أَن اثبت لك انه مختار في اختياره او مجبور عليه والدخولُ في هذه الدقايق يستلزم خروجي عن عهدى . و بُعدَ شقَّتي عن قصدي . فقد وعدتُك اَن اسير بك الى الحق سيرا جميلا . وان لا احمل على جذَع بصيرتك عبأً ثقيلا والامرُ الذي كنّا نحاول حلَّه وتتوخّى بيانه قد حصل لك منه المقنع ان شاء الله فما الوجه في تجشُّم هذه المصاعب . وتكلُّف هذه المتاعب . التي لا اثق لك فيها بالسلامه . واذا طمحت نفسك اليها واسعدتُك على تقحّمها فانا اولى منك بالملامه .

ونحن يكفينا لأبطال ذلك الاصل الفاسد الذي بنوا عليه انكار الحسن

والقبح اثبات اختيار العبد في افعاله وانها مستندة الي ميله وارادته وقد اتضح لك ذلك لو انصفت وتدبرت واستبان لك ان الالطاف الالهية بالبيان والاعذار والانذار والامر والنهي والوعد والوعيد وتهيئة الاسباب للطاعة والمعصية واعطاء القوة والقدرة على الفعل والترك والعلم بما يقع في المستقبل منهما والتمكن من المنع عن احدهما والقسر على الآخر ليس شيء من ذلك بموجب للجبر وعدم اسناد الفعل الى العبد مع علمه وارادته وقدرته ومباشرته كل ذلك بالحس والوجدان والضرورة والعيان واستبان لك ايضاً فساد ما لعلّه هو الحامل لهم على انكار هذا الامر الضروري وذلك تخيلهم ان اثبات القدرة للعبد واسناد الفعل اليه استقلالا او مع الله سبحانه يستلزم ثبوت الشريك له جل شأنه في التصرف وهذا من السخافة بمكان بل مما ينبغي ان يقضي من العجب فيه كل انسان، فان ذلك انما يلزم حيث يكون للعبد وجود وشان وقدرة باستقلاله وعلى حياله اما وهو محتاج اليه في وجوده وقدرته وجميع شؤونه بل قولنا محتاج تسامح في الاطلاق من ضيق الخناق كقوله تعالى (يا ايها الناس انتم الفقراء الى الله والله هو الغني) فانه جرياً على دأب المحاورة، وما تفهمه تلك الامة الحاضرة، والا فالناس بالنظر الدقيق، عند اهل التحقيق، هم كسائر الوجودات الممكنة عين الفقر والحاجة لا شيء مفتقر محتاج واذا كان الامر على هذا فكيف وانى يلزم ما ذكروه والغني الملي، القادر القوي، اذا اعطى الضعيف واغنى الفقير وهو قادر في كل حين على سلبه وانتزاعه، وابقائه وارتجاعه، هل يحسن او يصح عند ذي مسكة ولو تشكيكا، ان يُعدّ احدهما للاخر شريكا، وهذا التمثيل والتنظير دون ما نحن فيه بكثير، وانما الغرض انك قد عرفت ان الايجاد والاقدار لا يوجبان الشركة ولا سلب الاختيار، كيف ولو كان العبد على حالٍ

ليس الاّ ان يفعل او يترك لم يكن قادرا اذ القدرة ما يمكن معها الفعل والترك والقادر الموجود ، هو الذي اعطى القدرة كما اعطى الوجود ، فانه الجواد المطلق وهو بكل كمالٍ احق ، والبخل لا يتطرق اليه ، اذ هو نقص والنقص يستحيل عليه

وكما ان الاقدار لا يوجب الشركة ولا سلب الاختيار فكذلك نسبة الفعل الى العبد حقيقة واسنادها اليه من العقل بالنظر الدقيق واقعاً لا يوجب والعياذ بالله عزل الله عن ملكه او تصرف الغير في سلطانه كيف والعبد وقدرته وجميع شؤونه في قبضته تعالى بل هو وهي عدمٌ الاّ بايجاده وإمداده (ولا موءثر في الوجود الاّ الله) وظني انّ العرقلة التي اصابت الباحثين عن هذه المسألة وحجر العثرة الذي عاقهم عن الوصول الى ملحوب تلك المرحله حتى عُرفت بالاعضال واشتهرت بالاشكال هو تلك القاعدة المسلمة المبرهنه وامثالها من الكتاب الكريم والسنة النبوية كقوله تعالى (قل كلٌّ من عند الله) وقوله «ص» كل شيء بقضاء وقدر وقوله «ص» (جفَّ القلم بما هو كاين) الى كثير من نظايرها ومن هنا جاءت الشبهة واعترضت الشكوك والحيرة وضلّت الالباب والاوهام وزلّت الاقلام والاقدام كلّ ذلك غفلةً عن شرايع الله المقدسة ونواميسه الكونيه في خلقه وابداعه وربطه الاسباب بالمسببات والعلل بالمعلولات وذهولاً عن كون الفعل الصادر من ذوي الادراك والشعور والارادة والقدره والاختيار مستنداً اليه حقيقة ومعلولاً له بحكم العقل واقعا باعتبار السبب القريب والعلة الاخيرة ومستندا الى العلة الاولى ايضا كذلك حقيقة وواقعا باعتبار كونها علة للقدرة والاختيار وبذلك صحّ كونه هو الموءثر في وجود الفعل ايضا فلا إلجاء ولا اجبار لتوسط القدرة والاختيار ولا شركة ولا عزله لكونه تعالى علة العله اعني علة القدرة وكلية الاتصاف بالارادة والاختيار لا لذات الفعل بلا واسطه وان صحّ اسناد ايجاده اليه حقيقة اذ لا موءثر في الوجود سواه واجتماع فاعلين مترتبين غير متزاحمين على فعل واحد هنا مباشرة من احدهما وتسبيبا من الآخر قضاءً وارادةً — ارادةَ قضاء لا ارادة رضاء في بغيض الافعال الاّ من العلة المعلولة لا مانع منه بل لا محيص عنه عقلا وهذا هو السرُّ المرموز اليه في كلمات ايمتنا المعصومين سلام الله عليهم فيما سيأتي عليك من قولهم (لا جبر ولا تفويض بل امرٌ بين الامرين) وهذا التحقيق مما لم نعثر عليه في تحرير ولا استفدناه ولا من مشافهة نحرير بل هو مما افاضه

المولى جلّ شأنه علينا من التدبر في شرايع الكون ونواميس الخلق وتقديس الخالق عن الظلم والعبث مع بقاء تصرفه في ملكه وتوحيده في سلطانه بيد ان ذلك مما كشفه التأمل في حلّ الرموز وفتح الكنوز التي اشارت اليها وسايط الفيض ومعادن الحقايق سلام الله عليهم ولا سيما من تفاريق كلمات سيد العارفين وامام الموحدين من قوله «ع» لمن سأله أكان مسيرنا هذا الى الشام بقضاء وقدر فقال ويحك اظننت قضاء لازما وقدرا حاتما ولو كان كذلك لبطل الثواب والعقاب وسقط الوعد والوعيد الى آخر تلك الفقر التي يفتقر اليها العارفون ويستنير بها السالكون الى كثير من اخواتها في النهج وغيره وانت خبير انه انما لا يكون الفعل قضاء حتم والزام لان القدرة والاختيار قد توسّطا بين الفعل وفاعله في جميع الآثار وهذا هو الوجه الخالص من شوايب الجبر وماجرياته وتفاهة التفويض وشبهاته (فاخمد ضرام اوهامك ايها الجبريّ فالفعل ثابتٌ لك بارادتك واختيارك وقدرتك عليه ومباشرتك له وقيامه بك او صدوره عنك) وسكِّن جاشك ايها القدريُّ فان الفعل مسلوب عنك من حيث انت انت ومع قطع النظر عن فيض علتك) (فاستقيما ولا تتبعانّ سبيل المفسدين) فهذا هو الصراط المستقيم والحدُّ الوسط الذي طلبه الباحثون فما اصابوه وسلكوا اليه فتباعد عنه قوم وقوم قاربوه واذا نظرت ما قدمناه مقيسا الى جملة مما حرّر في هذه الغامضة تجد الفرق وتعرف الحق (ان شاء الله) ولكن على الرغم من عنائي وبغيتي اخشى ان يكون البيان لم يكن وافيا بايضاحه ولا كافيا بتمهيد مقدماته وتتماته نعم وانّ ضيق المجال قضى بذلك وصدّ عما يلزم في مثله فرجائي ايها الناظر في هذه النفثة ملتمسا منك ان تقف فيها ولك الفضل على حدِّك ولا تبادرني بايرادك وردّك فانا ماقٍ في هذا المضمار سلاح النزاع معك والمجادله ناكص في مضيق ميدان هذه الوجيزة عن المطاردة والمجاوله فان وقع ما ذكرناه منك موقع الاستحسان والقبول فالمنة والشكر لله وحده وان عرضت لك المؤاخذات فيه والمناقشات فانا في الساعة الحاضرة تسكينا لفورتك وتبريدا لبادرتك اعترف لك بكل ما تقول بجملته وقبل نشر طيته فانتظر حتى يسمح العمر بمنّ الله لانتهاز فرصة افتح لك بها تلك المقفلات واحل بها مااعتاص من تلك المعضلات (ان شاء الله) ومهما استيقنت بشيء فاستيقن بان عقيدتي (ويشهد الله والملائكة والانبياء عليها) عقيدة ساذجة اسلاميه وطويتي على تعمقها في غور الفلسفة ولكن ديانتي بسيطة سلفيه — رهينةٌ (والله هو الشهيد) بشهادة انلا اله الا الله وان محمدا

عبده ورسوله وان اهل بيته الكرام ايمتنا وسادتنا على مايعتقده العامة من سُذَّج الاذهان وبسطاء العقول وهذا هو جوهر الاسلام واصول كيانه وليس ماوراء ذلك كمسئلتنا هذه وامثالها الأمسايل نظر واستدلال ومراتب فضلٍ في الدين وكمال — المصيبُ والمخطيء فيها معذور (ان شاء الله) بل الكل مأجور بفضل الله الا ان يكون معتقدا خلاف الواقع عن تسامح في النظر وتقصير في الطلب معاذ الله وانا القى بالموادعة والسلام العام عامة الاسلام بل كافة الانام سوى من عادى الحق وعانده وعرفه ثم جحده فانه العدوُّ الذي لا نواليه والحزب الذي لا نصافيه وارغب اليه جل شأنه في ان يخلص له نيَّتي ويُصِحَّ في سبيله قصدي وبغيتي واذا امتن عليَّ بذلك فليقل القايلون بعدها ماشاءوا فلحمي موفّرٌ عليهم وعرضي عرضة لديهم

احبـاي اني في سبيل هواكم * ابحتُ مصون العرض مني لشاتمي

اذا ما عداني منكم اللوم جانبا * فاهونُ ما القـاه لوم اللوائم

دعوني اوّلي من عظيم ثنائكم * وان قذفوني فيكم بالعظـايم

ومن جميع ماقدمناه ظهر لك الوجه (والله العالم في قوله تعالى) (قل كلٌّ من عند الله)وما هو في سياقتها واما امثال قوله «ص» (كل شيء بقضاء وقدر وجفَّ القلم) فهي ممَّا لا نظر فيها الى هذه المسألة البته وانما النظر فيها الى اللوح المحفوظ من التغيير والتبديل في قبـال لوح المحو والاثبات وعالم البدأ الذي يمحو الله فيـه ما يشاء ويثبت وعنده ام الكتاب وهذا هو اللوح الذي جفَّ القلم فيه بما هو كاين لا يغيَّرُ ولا يبدل (سبحان من لاتغيّر حكمته الوسايل)وهذا لج عميق وفج سحيق لايجد الخرّيت الماهر الى سلوكه والخوض فيه من طريق الأخواص يَعرِفون ولا يُعرَفون ويَعلمون ولا يُعلمون وكلٌّ هاتيك المباحث انما هي من شعب مسالة العلم الواجبي تعالى وتقدّس وشؤون مباحثه التي احجمنا عن الخوض فيها في محلها اللايق بها من فصل التوحيد فكيف بها ههنا وان كان لدينا منها شيء فنحن لانرى الرخصة والمساغ في اباحتها واذاعتها في الصحف الموضوعة لعامة الناس لتصحيح سطوح عقايدهم وتنبيههم على المحاسن والمساوي من بسيط اخلاقهم خدمة للاخلاق ونصرة للنصيحة وتفادياً للدين وشيكَ ما كاد ان يصبح اضحية الشهوات والاهواء وذبيحة غوايل الاغيار والاعداء وانت اصلحك الله تعلم أن لو تعرَّضنا لتلك الغوامض كيف كانت تأخذمنا السنةُ الطعن كلَّ مأخذ فلذلك ارجأناها

الى امد بعيد بل ضربنا دونها سورا من حديد ولكن حيث اني قدجعلتُ نفسي وقفاً على الدعوة الاسلاميه ورهينا بنشر العظات والنصايح العلمية والعمليه اودُّ حرصا على استيفاء الحقايق ان انبهك على شيء. فقف معي هنيهه وان طال الموقف عليك وبعدت شُقَّة الفصل بين ما سبق وما بين يديك ولكنَّها

﴿ حكمة ذوقيه وكلمة اخلاقيه ﴾

لا تعدم الروابط بينها وبين ما نحن فيه « ان شاء الله » وهي انّ اكابر العرفاء قد ذكروا انَّ للعبد في منتهى سيره وسلوكه مقاماً شامخاً ومعراجاً باذخا وهو مقام الفناء في الله وذاك على وجهه المعقول ان تفنى جميع ارادات العبد وخواطره واميالة وشهواته في ارادة الله تعالى وتموت كل جارحة منه وعزيمة في اوامره تعالى وعزايمه دون رُخصِه واباحاته الاّ اذا عرضت لهاجهة رجحان من غير ذاتها من تشريع او تعليم او غير ذلك وعلى الخلاصة يصل العبد الى حيث لا يبقى له خاطر من نفسه ولا ارادة من قبل ذاته بل يكون (ولله المثل الاعلى) كالآلة في يد ذيها والسفينة في قبضة مجريها بل متعاليا الى ما هو اجلُّ واعلى فيكون العبد (وتعالى الله عن الادوات والجوارح) عينه الناظره واذنه الواعيه ويده الباسطه بل ينعكس على ما في حديثه القدسي تقدست آلاوءه (فاذا احببته كنت سمعه الذي به يسمع وبصره الذي به يبصر ويده التي بها يبطش) وليس هذا من الجبر بشيء بل من الاستهلاك في الجبروتيه والفناء في التوحيد الأحديه ولكن هو اشبه شيء به وعليه يحمل ما في كلمات بعض اكابر العرفاء الذي قد تكرّر مضمونه منهم نظما ونثرا ولا سيما في منظومات عرفاء الفرس وذاك كقول القايل منهم

در پس آينه طوطي صفتم داشته انـد   انچه استاد ازل كفت بكو ميكويم
من اكر خارم اكر كل چمن ارائي هست   هرچه آن دست كه ميپروردم ميرويم

وعلى العلات فليس الغرض بسط الكلام في حال هذا المقام والخوض في أمكانه ووقوعه او عدم ذلك ولئن كان فهو خاص للخاصة من عباد الله من الملائكة المقربين واكابر الانبياء والمرسلين والصفوة من اوصيائهم وخلفائهم وهوءلاء من نقوله فيهم على الجزم واليقين وامّا في غيرهم ممن يدّعيه او يُدّعى له فهو على التجويز والاحتمال حيث لا يكون من محتاس دجّال والله اعلم بحقيقة الحال (كلما قرع سمعك من غرايب الاكوان فذره في بقعة الامكان حتى يذودك عنه قايم البرهان) وانما الغرض اننا نحن عامة البشر سوى من عرفت ممن عرف الله لنا جميعا مقام على العكس من

ذلك المقام وذاك هو مقام الفناء في النفس والعكوف على اهوائها وشهواتها تجد الاكثر منا منذ ادرك رشده وتمييزه ومنحه المنعم من العقل تلك الغريزه لا يزال عاملا على الجري في سوم طباعه ومشيّة مشتهياته كأن ليس فوقه ملك قاهر ولا ناهٍ عليه ولا آمر يسعى كادحا معتمدا على افكاره ومساعيه متوسلا بالاسباب وحدها الى مقاصده متكلا عليها غافلا عن مسبّبها ومُجريها ومُنشئه ومنشيها وهذا والعياذ بالله مقام فوق مقامات الجبر والتفويض اذ وحتى التفويض يقضي بالالتفات الى مُفوَّض اليه سواه ومقتدر فوقه واما ذاك فلا يرى سوى نفسه ولا يتّكل ويعتمد الا على افكاره وحدسه ومعاناته وسعيه وجرأته وجريه كادحا في هواه آبقا من مولاه على الرغم من الفطرة التي فَطَرنا المبدعُ عليها واضطرّنا بضرورة العقول عليها (أَرايتَ من اتخذ الهه هواه) ولو انصفنا لقلنا جميعا نعم كلّنا كذلك وما الناس الا هالك وابن هالك الا من اعتصم وعصمه المالك وما اقلّ ما نحصي من اعمالنا التي هي على صحة الخلوص وصدق الامتثال والاجابة نعم واذا ارتقينا عن هذا المقام وجدتنا في اعمال الخير نرتقب عوامل التوفيق وجواذب القسر والجبر اليه والا فما شئت من التواني والكسل امّا اذا هبّت ريحُ الشهوات النفسانيه وتحرّكت بدوافع الرغبة بواعث الاغراض الذاتيه فهناك الجدّ والنشاط والسعي والانبساط فنحن بالطاعات والخير امة جبريه وفي الاهواء والشهوات مُفوّضة قدريه ويتفرّع على ذلك مقام آخر غير ذينك المقامين وهو مقام التفضيل مقام تقديس النفس عن الكيل البخس وما هو الا من سقوطها وتعاستها وتسويلها ودسايسها وذاك انه اذا جاءت باقلّ حسنة او وُفِقت لادنى مكرمة اخذت في التبجّح وغالت وتعالت في التفوق والترّجح وحسبت انّ ذلك لها وحدها لم يكن لاحد قبلها ولا يكون لمن بعدها وجرت في ذلك على غلوائها وتكبّرها واستعلائها واخذت في الحماس والزهو به فعل المستبد بالصنع المتفرّد بالايجاد وهي في اشد غشاء من الغفلة عن انّ لها خالقا هو الذي يسّر لها ذلك ومهّد لها السُبل اليه والمسالك واوجد سلسلة الاسباب الموصلة اليه ودلّها بلطايف التنبيهات عليه ذاهلة عن كون ما جاءت به من الفعل الجميل والاحسان القليل قد كان نِتاج ما لا يعدُّ ولا يحصى من المعدّات والاسباب طبيعية وصناعيه حيوية وجماديه بحيث لو افتقدت اضعف سبب منها لعجزت وجميع البشر عن تكوينه وايجاده فهي في بيداء هذه المجهله والمتاهة بمكان من التفويض والقدر وما هو فوقه بكثير نعم وقد تتمادى في الجهل وتمتدّ بالغرور حتى تعدّ السيئة حسنه وترى الهناءة بالهنة فتستسمن ذا ورم وتنفخ في غير ضرم هذا حالها

في محاسنها اوما تعدُّه منها اماّ اذا اصابها القصور وعرفتِ الجهل من ذاتها والغرور والفتور اووقعت وما اكثر ما تقع في البطالة والكسل والعيّ عن السعيَ والعمل والاناة عن الجدّ والطلب وتحمّل النَصب والتعب في سبيل الراحة اللازمة وتحصيل السعادة الدائمة جعلت ذلك كلّه في عهدة القضاء والقدر وتشبثت باذيال الجبر رحضاً لعارها وستراً على نقايصها عَلى ماهو العاديُّ من احوالنا والمالوفُ من اقوالنا حيث نقول ما ساعدنا الحظُّ والنصيب ولاوافقنا التوفيق وما اشبه ذلك من العبارات الدارجة على السنتنا فلو تدّبرنا احوالنا هذه وتمثّلناهـا لوجدنا نفوسنا تارة في الاوج واخرى في الحضيض ء تتخبّط بين مزالّ الجبر ومزالق التفويض ء تدور على محور محو كل تقصير عن ذاتها ومنقصة ء وجعل الكمالات لها خالصةً مخلّصه ء اماّ حديث الحظ والنصيب فقد بطل ولعلّه منذ عهد غير قريب كبطلان مرادفاته من الصدفة والبخت والاتفاق فقد حقق الباحثون في ماجريات الاكوان وطباع عناصر الوجود وحلقات عوالم الغيب والشهاده انّ جميع الامور مقرونة باسبابها منوطة بعللها لايقع شيءٌ منها على سبيل الصدفة والأتفاق وانّ الله جلت حكمته قد جعل لكل شيء سببا لن يستطيع المرء لهبدون ذلك طلبا فالانسان الكامل من عرف الاسباب وتوصّل بها الى مسبباتها (والعمل ضمين النجاح) اماّ حديث التوفيق فهو حقٌّ ولكن لمن سلك الطريق (يقيس ذراعا كلما قست اصبعا) ولو ان الانسان لا يزال عاملا على الالتفات الى انّ كلما يقع منه من صالح وجميل فهو بتوفيق الله وبحسن تيسيره وكلّما فاته من كمال وسعاده فهو من توانيه وتقصيره لَألقى عن عاتقه اصر كثيرٍ من الرذايل كالعجب والكبر وحبّ التفوُّق والتعالي على ابناء جنسه ولجدَّ واجتهد واعدّ واستعد ولاوشك ان يحوز السعادة باطرافها ويقف على اعرافها ولكن ليس الغرض من كل هذه النبذه الاكلمةً فذه وهي نصيحة نفسي ومن بلغته دعوتي في التحذير من البطالة والكسل ومايستتبعان من الخمود والخمول والخور والفشل فالجدّ الجدّ ياعباد الله والعمل العمل اماّ هذه النفوس فمن اوضح سجاياها وذمايمها انها تحبُّ الجاه ونباهة الذكر والتعالي والترفع — ومع ذلـك فهي ايضا تحب البطالة والراحة والقرار والطمانينه فكانها تعمل على التفكيك بين الاسباب ومسبّباتها او العلل ومعلولاتها وقد ابى الله في بديع حكمته لخليقته ذلك فمن اجل ماهنالك تجدها تتزين بالتافه الحقير وتتحلى بالنزر اليسير بل وبالدعاوي الكاذبه والاماني الخايبه التي هي اقل كلفةً من الواقع واخفُّ مونةً من الحقيقه فجدّوا ياعباد الله واعملو وعلى الله بالنجاح فاتكلوا لاعلى هذه الانفس الضعيفه

والقوى النحيفه فانه اذا لم يكن عون من الله للفتى * فاكثر ما يجني عليه اجتهاده
أليس من الاسف والحيف اسفاً والله يميت الغيور ويشق الصدور قبل القبور ان من امامكم من الامم الراقية اوج الحضارة والعمران تقتدي بل ترتقي بحسنات مذهبكم السامي ودينكم الاسلامي وتقتدون انتم بسيئات مذهبهم الاسوء مذهب الكفر والضلالة والشرك والجهالة افليس من هذا ما شاع اليوم في عاصمة القطر العراقي وغيرها من عواصم الاسلام اصلحها الله — من مجالس اللهو ومحافل الطرب ومحاضر القصف وملاعب الراقصات ومساكب المسكرات والناس يتهافتون عليها على تكشف وجهار كتهافت الفراش على النار لا بل (هو هو) والسميع العليم ثم لا زاجر ولا مزدجر ولا ناكر ولا مستنكر

ياناعي الاسلام قم فانعه * قد مات عرف وبدا منكر

فيا لله ولما يلقى الاسلام من بلوى المسلمين وسوء اعمالهم التي زوت مزاياه وحجبت وامحت محاسن محيّاه نعم كانت لاعدائه اعظم عون عليه واسوء مسيء اليه — و اما والعفة والحياء والتكرّم والمجد والعلاء انّ ذلك لمّا يأباه لكم الله والحمية وشرف الآباء والنفوس الابيه والشيم العربيه والاخلاق الأدبيه — يأباه لكم هذا الدين الحنيف والمذهب الشريف يأباه لكم شرف اسلافكم الذين بنوا دعايم الاسلام المشيده واساطينه الوطيده بالجماجم منهم والدماء بدل الحجارة والماء وانتم اليوم تعمدون الى هدمها بالمعاول وتعملون على نقضها بكلّ الاسباب والعوامل

بنوا لكم مجد الحياة فما لكم * اسأتم الى تلك العظام الرمايم
ارى الف بانٍ لايقوم بهادم * فكيف ببانٍ خلفه الف هادم

بيد انّ الله قد اعدّ لكم ما هو اهنى من ذلك واسنى واعدّكم لما هو اشرف من المراتب الرفيعة والمنزلة الحسنى

قد رشّحوك لامرٍ لو فطنتَ له * فأربأ بنفسك ان ترعى مع الهمل

تحسبون انّ بامثال تلك الحفلات والمساجلات تساجلون الامم وتباهونها او تضاهونها في مقاوم العزّ وحلبات الفخر ومدارج السموّ ومعارج الارتقاء وما هي الاّ من اقوى اسباب التقهقر والانحطاط بل ولا شيء اشدّ منها تأثيراً في زهوق روح النواميس الحيويه وتلاشي العناصر الادبية والماديه — فالله الله ياعباد الله نافسوا بانفسكم عن تلك الدنايا والخلاعات وانتبهوا من هذه الرقدة والسبات وانتشلوا انفسكم من حضيض هذه الوهده ياارباب العزايم والنجده — اقول قولي هذا واستغفر الله لي لكم واسأله العفو عني

وعنكم وها كما تتقدُ جمراعن كبدحرّى ما كانت من قصدي ولامن شاني ولا من خطتي وعنواني ولكن لمّا امتلأ القلب بالشجى والا لم نفث قهراً عليّ بها القلم فرحم الله من ابصر خيراً فعمل به ودعى اليه ورأى منكراً فانكره وانكر علية ورعى الله امرأً رأى مقالتي هذه العادلة فرعاها ووعاها وتروّى بها فنشرها ورواها نصرة للنصيحه وخدمةً للدين والله وغيرة على الحقيقه وقد كان في نفسي نصايح مهمة ومقالاتٌ جمَّة قطعت دونها القطي وكظمت عليها غيظي خوفاً مما كدت اووقعت فيه من الخروج عن الخطة كثيرا وانا ارتقب من الله ان يهب لها الفرصة في غير هذه الدعوه ان شاء الله كما ارغب اليه في ان يمنَّ بالعصمه من كلّ وصمه لي ولكافة المسلمين انه خير العاصمين واكرم الاكرمين



القضاء والقدر

والعناية . واللوح المحفوظ . ولوح المحو والاثبات والكتاب المبين . وام الكتاب . واللوح والقلم . والبداء والعقل والامانة والسعادة والشقاوه . والجبر والاختيار . والاسماء الظاهره . والاسماء المخزونة في علم الغيب ونظاير ذلك

نعم انّ شأن العلم والمعرفةِ لغريب وكلُّ شيء له ناموسٌ ابت العناية الاّ ان يجريَ عليه وناموسُ الاشياء اَن تظهر بالعلم وناموسُ العلم اَن يظهر بنفسه ويندفع الى الخارج بذاته مهما حاولت كتمانه واردتَ اخفاءه كالنور بل هو هو في خاصيته - به تستنير الاشياء وهو يستنير بنفسه ويظهر بذاته كما انه يتطلب المخرج لاشعته على رغم الحُجُب الكثيفه والموانع العنيفه حتى يشعّ ويستنير

- كلما حاولتُ ان اتجاوزَ هذا المقام واطوي هذه المباحث دون ان اخوض هذه اللجّه (لجّة القضاء والقدر) وجدتُ كأنّ دافعاً يهزّني ورقيباً عليّ من ضميري يستفزّني الاّ عن مشاطرتها بعضاً من الكلام فيها على ساقة اخواتها من المستعصيات التي مرّ البحث عليها ولكني راغبٌ في ان اجلوَ جوهرتها المخبأة ومنيعتهَا المخدّره بابدع زينه وازهى حُلّه واسهل تقريبٍ وبيان - وبالحريّ ان نقدّم مثلا للتقريب امامَ المقصود ألست اَنت وكل بصير جدّ خبير انّ كل جماعة وامة دخلت تحت جامعة واحده وَجِهة عامه لامحالة تحتاج الى وضع نواميس تجري عليها وتخرج بها عن الفوضى والسَراح الموُدي بها والموءدّي الى هلاكها بدون اقامة تلك الحدود والموازين مهما كان واضعها وشارعها فرداً او جماعه ملكا حكيما او رئيسا مُتَّبعًا او موءتمرا مُنتَخبًا او غير ذلك

ولنفرض انّ ملكاحكيما نظر في صالح رعاياه فرأى ان يضع لهانواميس تتكفل بنظم سعادتها وجعلهافي صفوف الامم الراقيه التي لا نِدحة لها عن تلك النظامات وهـذا هو ما تنهج على منوالهاليوم كل ادارة وجمعية في العالم ولاترى لنفسها حياة ومجداً الاّ به ومهما اختلفت المشروعات والاحكام فانّ ضرورة الامم الى النظآم لا تختلف على حال من الاحوال وبحسب صحَّة قوانين كلّ امة وانطباقها على الوسط التي هي فيه وجريهاعلى تلك النواميس الموافقه الجالبة لخيرها وسعادتها يكون حظُّها من التمدّن والعمران وعلى مثل هذا سير الحكومات المتمدنة اليوم كما انّ من الجليّ اَن ليست تلك النظامات امورًا خصوصيه واحكاما شخصيه وموادًا جزئيه كالحكم على هذا الشخص او تلك الذات او هذا الموجود الخصوصي وانّما هي قضايا كليه واحكام عموميه تجري على جمهور من الناس في دهور من العصور حتى يحدث مايقضي بتغييرها حسب الظروف فتُغيَّر ايضا على ذلك الوجه الكلي

وضع ذلك الملك الحكيم كلّ حكم من الاحكام التي يتوقف عليها النظام والسير الى السعادة النوعيه حسب علمه بصالح امته ولم يدع نقيرا ولا فتيلا الّا وعيَّن كلّيًا مايجري له ومايجري عليه فالجنديُّ ومهنته ومؤنته والزارع وعمله وضريبته وكل صانع ومحترف وجان ومقترف وقاسط وجائر وواقف وساير ومتواني ومجدّ وساعٍ وواهن وامين وخاين وجعل لكلّ ذلك اسبابا ومسبَّبات وعللا وغايات يوجب بعضها بعضا وينجرُّ بعضها الى بعض على نواميس معيَّنة وحدود مبيَّنة سبقت كلمته وقضت حكمته ان تسير على ذلك ولاتقف ، ولا تنخرم ولا تختلف ، ثم امر بعض مهَرة كتَّابه ان يسجِّل تلك القضايا الكليه ، والنواميس العامه ، باسبابها ومسبَّباتها ، وعللها ومعلولاتها ، ومباديها وغاياتها ، واصولها وثمراتها ، أَمره

بعناية منه ملحوظه ، ان يسجلها في الواح محفوظه ، لا حذراً من ان ينسى الملكُ شيئا منها ، او مخافة ان تغيب عنه او يغيب عنها ، كلاّ فانه الحفيظ الذي لا ينسى والحكيم الذي لا يغفل والعليم الذي لا يجهل ولكن اظهاراً لسعة علمه وتعاظم قدرته ونفوذ مشيَّته وسعة سلطانه وملكه ولكي يُوقف عليها الخاصة من حاشيته وملازمي حضرته والمهيمنين على اسراره فيتكاملون معرفةً ويقينا وتعبُّدًا وخضوعا

ثم بعد ان ابرم احكامه واَحكم اِبرامه واجرى في اللوح بما شاء اقلامه ذرأ بريَّته واستبرأ فيهم مشيَّته ومنحهم فأفضل واعطاهم فاجزل فكان اشرف ما منحهم به ووهبهم اياه جوهرين شريفين انتزعهما من وساماته واخترعهما من خزانة ذاته — الا وهما جوهر العقل والثاني جوهر حرية الاختيار واطلاق الاراده وسراح المشيَّه وتلك هي الكلمة التي سبقت من ربّك ولولاها لما تأنّست المدُن ولا تمدّن الانسان ولا اعتمر النظام ولا انتظم العمران — عرض هذين الجوهرين الشريفين امانةً على السموات والارض فأبين عن حملها وحملها الانسان فكان ظلوما لهما باستعبادهما لشهواته واستعمالهما تحت سيطرة امارته جهولا بالغاية التي وُجدا لها والثمرة التي أُودعا فيه من اجلها — اعلن الملك منشورا في رعيته يقرأه كل احد من وجدانه وصحيفة نفسه يحسُّ ويجد قائلا يقول له همساً في ضميره قبل كل شيء (اعملوا ماشئتم اني بما تعملون عليم) لِيعمل كلُّ عاملٍ ماأراد وما اختار لنفسه وليضعها اينما شاء وحيثما اراد فانّ السبل له ميسَّره والاسباب والوسايل حاضره وغاية كل سبيل معلومه والغايات لازمه والعنايات قايمه والمحجَّة واضحه والاعلام لايحه والحجة بالغه والاعمال كلها حسب التمكين والتكوين سايغه والمعونة والمساعدة حسب الارادة والسعي لكل عاملٍ مبذوله

(انا خلقنـا الانسان من نطفةٍ امشاج نبتليه فجعلنـاه سميعـاً بصيرا انا هديناه السبيل امّاشاكراواِمّا كفورا) فهداه (النجدين) نجد الخير والشرّ والسعادة والشقـاء ثم بعد ان استتبَّت هذه المقامات واستحكمت عند الملك وخاصّته تلك النظامات امرَ ذلك الكاتب الذي جعله خزانة اسراره ومستودع مفاتيح غيبه وهو من صقعه وعالمه امره ان يسجِّل في لوحٍ خصوصيّ له جميع المواد الجزئيه والقضايا الشخصيه فجعل يُملي على كاتبه اظهاراً لمزيدِ علمه وشمول قدرته واحاطته بشوءون افراد رعيته ومقتضيات استعداداتهم واهوائهم ورغباتهم وشقاوتهم وسعادتهم جعل يُملي ما يجري على حياة كل فردٍ فرد منهم وما سيختاره بحرّية ارادته وصرف مشيته دون ادني اجبار او اكراه اوتعمية او اشتباه وضمَّنه كلَّ ما يمرّ عليه في صحايف ايامه ولياليه مماً يدخل في قدرته وارادته وما ليس من ذلك من مدّة اجـله وغاية عمله وحظوظه من نِعم الحياة وبسط العيش ونعيم الدنيا بالاولاد والاحفاد والصحة والعافيه والملك والسلطنه وامتداد البقاء ومساعدة الايام بالهدوّ والسكينه والراحة والطمانينه واشباه ذلك مماّ ليس هو على الحقيقة الراهنه من مجهودات المرء وخصوصياته فانّ في وُسع الانسان اَن يسعى فيصير عالما اخلاقياًّ او طبيباً نطاسياًّ او حكيما فلسفيا او مخترعـا صناعيا ولكن ليس في وُسعه ان يسعى فيصير ملكا مطاعا او قهرمانا شجاعـا او ذا نسل متكاثر بعدد مخصوص او ما اشبه هذه المناحي فانّ جميع هذه النعم والغايات مقادير وحدود، واحاظٍ قُسّمت وجدود

والغرض انّه سجلّ في هذا اللوح تفاصيل كلّ ما يجري على كلّ واحد من الرعيَّه مماّ هو خارج عن دايرة اختيـاره وما هو داخل فيها ولكن لا يعزبَنَّ عنك اسلوب ذلك الكَتب في ما هو مفوّض الى العبد وله فيهِ

جرية الاراده والاختيار فانه كُتِبَ في سجل التكوين لا التشريع ان سيفعل كذا وانه يختار كذا لا كُتب عليه ان يفعل كذا وان يختار كذا حتى تبطل الاراده وينقلب الاختيار الى ضدهِ وتتحور المشيةُ عن حقيقتها والفرقُ بين العبارتين كالفرق بين الحقيقتين في غاية الجلاء والوضوح وقد اصبح اليوم من الجليات ان العلم لا اثر له في المعلوم وان المعلوم يوجد باسبابه وسلسلة علله لا بعلم العالم او جهل الجاهل

بيد ان العلم لا يتعلق الا بحقيقة راهنه فلو ان صيرورته حقيقة راهنه بالعلم لَدار واستحال وهذا اللوح كسجل التفصيل كما ان السابق كسجل الجملة

وحيث قضى الملك ما اراد من النظام جملةً وتفصيلا وابرم القضاء فيما شاء انشاءً وتسجيلا وبلغ المقام الى دور العمل ومرحلة العين وفسحة الوجود جعل يُوجد ما في العين على طبق تلك الالواح المسطوره والنواميس المقرره ولكل ايجاد وانشاء تعيّن خاص وطورٌ من اطوار الملك ومظهر قوةٍ له نعبر عنه باسم موعزٍ الى معنىً خصوصي يُشار به الى ذات الملك باعتبار هذا الاثر الصادر منه — ولكثرة الصوادر تكثّرت الاسماء والصفات ولكن امهات الاسماء ومفاتيحها محصورة وهي امهات الانواع ومفاتيح اغلاقها ومقدسات هياكلها فباعتبار الخلق خلاق وبالنظر الى الرزق رزاق ومن حيث ايجاده مُوجد ونظراً لرحمته رحيم وهكذا — سوى ان جلالة الملِك بعد ان كتب ما كتب وسطر ما سطر ودبر ما دبر وربط تلك القضايا المسطوره خاصها وعامها باسمائه الخاصه والعامه (تعالى وتعاظم) فجعل لنفسه حرية الارادة المقدسه وسراح المشيّة المنيعه واطلاق الاختيار الاقدس كما جعل شيئًا منها لرعيته فانه هو احق منهم بذلك واحرى ان تكون له تلك الميزة والخاصه لانه يتصرف في ملكه ويتقلب في حقوقه فأولى ان لا تكون يده مغلوله

وتصرّفاته محجوره بل يداه مبسوطتان وهو كلّ يوم في شأن وان لا تسلبه مستودعات قضائه ومستطرات الواحه شيئاً من حريّة اختياره واطلاق مشيئته بل تكون هي نظراً الى حسب الاقتضاآت والاغلبية فانّه هو رابط الاسباب بالمسبّبات والعلل بالمعلولات فلو شاء في مقامٍ ان لا يجعل النار موءثّرة فى الاحراق ولا الماء مقتضيا للرواء ولا الدواء ناجعًا من الداء كان له ذلك وكثيراً ما يفعله حسب الظروف التي تقتضيه وتخرجه عن نواميسه الأولى وهذه المرتبة اعني السيطرة والحاكميه للارادة والمشيه على تلك المسجّلات هو المقام الذي اختصه الملك لنفسه ولم يُطلع على شيءٍ منه احدا من رعيته لا كاتبَ ولا وزير ولا نديم ولا سمير وهو مقام الغيب وامّ الكتاب الذي لا يُغيرّ ولا يبدّل والذي جفّ فيه القلم وبه ترتبط الاسماء المخزونات المكنونات التي لم يظهر عليها احد من خلقه لا مَلكٌ مقرب ولا نبيٌّ منتجَب ولا عبدٌ مصطفى وهي التي استأثَرَ بها في علم الغيب عنده وجعل مفاتحها لديه (وعنده مفاتحُ الغيب لا يعلمها الاّ هو ويعلم ما في البرّ والبحر وما تسقط من ورقة الاّ يعلمها ولا حبة في ظلمات الارض ولا رطب ولا يابس الاّ في كتاب مبين) وهذا الكتاب المبين الذي هو مجموع لوحي الجملة والتفصيل هو مظهر تنزّلات البداء وتغيرّات ما يتجلى فيه لمطالعيه من المقربين وذوي الكرامه امّا مبادي البدا فهي تنشأ من ذلك الكتاب المخزون المغلق بمفاتيح الغيب و اقفال العلم المصون التي لا سبيل لِأحد الى استطلاع ما ورائها ومن هنا مقام الخوف والفزع والحزن والجزع والرهبة والرغبة التي تلازم المقرّبين وملازمي الحضره فانّهم وان وجدوا في الواح الكتاب المبين انهم من الاولياء الذين لا خوفٌ عليهم ولا هم يحزنون ولكن لا يعلمون ما خبأَلهم الغيب وراء استاره من التّقلّبات والمحو والاثبات المنبعثة من الارادة الحرّه

والمشيَّة المطلقة فهم على ابواب حصونها المنيعة ضارعون خاشعون خايفون فزعون يرصدون ان لا يلمّ بخواطرهم وظواهرهم من الخطأ ما يتخطّى بنظر العناية عنهم فتزلّ بهم مزالق التوفيق الى حيث لا يعلمون —
ثم بعد هذا كله لا اراك الاّ وقد عرفت جهات التطبيق والموازنه في هذا المَثل الجلي فليكن المَلكُ هو مالك الملك وعزيمته على وضع النواميس لِصالح مَن في قبضته هي العناية الأولى والكاتب بين يديه هو القلم الاعلى واللوح الذي رسم فيه الكلّيات وسلسلة الاسباب والمسبَّبات هو لوح القضاء والآخر الذي قدّر وفصَّل فيه الاختصاصيات واعيان الموجودات ومجاري الكاينات هو لوح القدر لوح المحو والاثبات وعلى نحو ذلك فقس ساير خواص التمثيل — ونحن بعونه تعالى نفصّل لك هذه الجمله ونوضح بعض تلك المبهمات على طراز الصناعه ولسان العلم ونضع بيانها في عدة امور (الاول) في العناية الاولى والقضاء والقدر والفرق فيمابينها —
امّا القضاء فهو عبارة عن ثبوت صور جميع الاشياء على وجهٍ كلي في مجرَّدٍ نسمّيه بالعالم العقلي والقدرُ عبارة عن حصول صور الموجودات على وجه جزئي في مجرّد نسميه بالعلم النفسي اعني ما يرتبط بعض الارتباط بالماده ولا يكون مجرَّدا عنها بتاتا كالاول ولكن ذلك الحصول والارتسام مطابق لما في الخارج من الكواين المترتبه مستنداً لاسبابها واجبةً بها لازمةً لأوقاتها — اماّ العناية الاولى فهي عبارة عن احاطة علمه تعالى بالكل احاطة كاية تامه في مقام الكشف التفصيلي فهي محيطة بالقضاء مشتملة عليه وهو مشتمل على القدر محيط به والقدر محيط بالواقع مشتمل عليه سوى ان العناية لا محلّ لها اذ ليس هي سوى علمه تعالى بذاته الذي هو حضوره لذاته على وحدتها الذاتيه ومايلزم لحضرته من التَّعيُّنات اللازمه

لذاته بالمرتبة التفصيليه وتلك الحقيقة الاحديّه اقتضت اوّل ما اقتضت من تعيُّناتها جوهرا روحانياً يُسمىّ بالروح الاول والعقـل الاول والقلم الاعلى وغير ذلك ثم تسلسلت الموجودات مجردة ومادّية طولية وعرضيه على ترتيب الانوار المتعاكسه في المرايا المتقابله على ماذكره حكماء الاشراق مماً لا يتسع المقام لذكره — سوى ان ذلك الجوهر المجرّد هو روح العالم وفيه ينتقش جميع صور الاشياء على ما عليه نظامهاوهيئاتها و كمالاتهاعلى وجه كلي والباري يعلمه بتمامه مع الصور الثـابته فيه باعيانها لا بصور زايدة عليها بل بمجرد حضورهاله كحضور مُنشآت النفس لهاوذلك الحضور هو العناية العامه فاذا تدبّرتَ هذه النظريه واحطتَ علمابصفاياهذه الجمله ظهر لك انّ العناية لامحلّ لها (الثاني) في محل القضـاء حيث ثبت وجود مجرّد قادرٍ قاهر حيٍّ وبه حياة كل موجود وكيانُه امكنك من هنا انتتفطَّن وتحصِّل البرهان على وجود وسـايط في الفيض وهي جواهر مجرّدة عن المواد منزّهة عن الفسادخالية عن القوة والاستعداد اذ هي فعلياتٌ محضه غير واقعة في صراط الحركة والاستكمال مدركة لذواتهـا ولمـا عداها بذواتها فهي انوار قاهره موءثرة فيمادونهامن النفوس والاجرام بتاثيرالله فيها فقاهريتها التي هي تاثيرها في غيرهـا رشحٌ من قاهريّة الله واثر من آثار قدرتة كما انّ ذواتهاونوريّتها سُبحة من سُبحات وجهه وبهذاالاعتبار تسمَّى هذه المجردات بالملائكة المقربـين والروحانيين والكروبيين وهم سادات الملائكة وعالَمها عالم القوة والقـدره وجبر نقصانات امكانهـا وامكانات مادونها بما تُفيضه من فيضان الحق عليها من الكمالات وبهذا الاعتبار من الجبر والقاهرية تسمى بعالم الجبروت وهي صورة صفة جبّاريته تعالى ومعلوم ان تلك الحقايق والكمالات الفايضه منها لو لم تكن ثابتة

فيها حاصلة لها لم يمكن فيضانها عنهافاذاً تلك الحقايق الامكانيه باعيانها وكمالاتها منتقشة فيها وهذا النقش والارتسام هو صورة القضاء الالهي ومحلّه عالم الجبروت وامّ الكتاب واللوح المحفوظ الذي رسم القلم الاعلى والعقل الاول فيه تلك النواميس وعنه يفيض الينا كل ما نصيبه من الحقايق والعلوم الصحيحه (اقرأ وربك الاكرم الذي علّم بالقلم علّم الانسان ما لم يعلم) وتلك الجواهر المجرده هي احدى خزاين غيبه (وإن من شيء الاّ عندنا خزاينه) ولا شكّ انها متعالية عن تعلّق الزمان مقدّسة عن تغيّر الحدثان فالقضاء مثالها (الثالث) في محلّ القدر كما انّ العالم الروحاني بجوهره المجرد محلّ القضاء فالعالَم الجسماني اعني هذه الكرات المتحركة على مداراتها والنظامات المستديره على شموسها ومنهُ نظامُنا الشمسي بسيّاراته واقماره واروضه هو محلّ القدر باعتبار نفوسه المحرّكة له فانّ كل متحركٍ لابدّ له لامحالة من قِوىً محرّكه دافعة او جاذبه ولا شكّ انّ تلك القوى ليست امورا محسوسه ولا هي الماده نفسها فهي من عوالم ماوراء االشهاده ومماً بعدَ الطبيعه وهذه القِوى هي محلّ القدر اِذا الصورُ الكلّيه في عالم القضاء لغاية الصفاء لاتترائى ولا تتمثّل لغيرها لشدة نوريّتها كمرآة مضيئة تردّ البصر عن ادراك ما فيها من الصور بشعاعها فتنتسخ تلك الصور الجزئيه في لوح تلك النفوس كما ينتقش في قوّتنا الخياليه صورٌ شخصيّه من معلوماتنا الجزئيّه وهذا العالَم هو عالم الملكوت وصقع الملائكة العمّالة باذنه تعالى المسخَّرة بامره المدبِّرة لِامور العالم بإعداد المواد وتهيئة الاسباب فمحلّ القدر هو عالم الملكوت كما انّ محلّ القضاء هو عالم الجبروت وفي هذا العالَم اعني عالم الملكوت تتعاقب الحركات وتتلاحق الاوضاع فتتوالى الصور على تلك القوى الجسمانيه المعبّرُ عنها عندهم

بالنفوس الفلكيَّه ويتواتر الفيض على المواد متتاليةً حسب استعدادها للصُور المتعاقبه متشخِّصة مقدَّرة في الاجرام الشخصيه وارتسام تلك الصور هو طبق عالم القدر وفيه يتحقَّق المحوُ والاثبات ويتبعها الكون والفساد في الجسمانيَّات والطبيعيات من خلع ولبس اولبس صورة بعد اخرى كما تجده في عالم الكون فيما لا يزال وهذا معنىً آخر للمحو والاثبات فتدبره

وعلى اي فالقصارى انَّ من الاوضاع اوضاعًا كلية يتبعها كونُ الاعيان الخارجيه وفسادها ومنها جزئيات يتبعها احوالها المترادفه و كمالاتها المتعاقبه وهذه الجزئيات متخلِّلة بين تلك الكليات متداخلة فيها فيكون كل طايفة في الاوضاع المترتبه الموجبه لكمال كاين مًّا او حدوث حال من احواله وتغيرّها منحصرة بين وضعين منها احدها يقتضي حدوث ذلك الكاين والآخر زواله اوتبدّله بصورة اخرى والامتدادُ الواقع بين هذين الوضعين المستِمرّ مع تلك الاوضاع المتخلِّله الذي هو مجموع مقادير تلك الحركات الموجبه لتلك الاوضاع هو مدّة بقاء ذلك الحادث ومنتهى اجله والنقشُ الحادث عند وضعه الاخير هو كتابُه واليه الاشارة بقوله تعالى (لِكل اجلٍ كتاب) وهذه التقادير كلها تفاصيل قضائه والله بكل شيء محيط (الرابع) قد ذكروا لتوضيح هـذه المشكلات مثلاً مَناسبًا لاستنزال تلك الشامخات مِن اوج مِنعتها الى فُسحة الاذهان بحسن البيان ويحسن هنا ايراده بتوضيح واختصار وهو انَّ صورة العالم بعينها كصورة انسان فكما انّ لِأفعال الانسان عند صدورها منه وبروزها من مكامن غيبها الى مظاهر شهادتها اربع مراتب فهي اوّلاً في مكمن روحه الذي هو غيب غيوبه على غاية الخفاء كانها غير مشعور بها لغاية الصفاء والقرب من التجرّد ثم تتنزل الى مخزن قلبه عند استحضارها واخطارها بالبال كلِّية

ثم تتنزّل الى مخزن خياله مشخَّصة جزئيه ثم ينبعث شوقه وارادته اليها فتتحرك الاعضاء عند ارادة ايجادها فتظهر منه في الخارج فكذلك لما يحدث في الخارج من الحوادث بحسب مادته واسبابه اذا الأولى بمنزلة العنايه والثانيه بمنزلة القضاء والثالثه بمقام القدر والرابعه بمثابة الصور الحادثه في المواد العنصريه ولعلّك اذا نظرت الى حالك في محفوظاتك من قرآن او حديث او شعر اوغير ذلك عند ارادة تلاوتها و ابرازها الى خارج الوجود وجدتها مطابقة لذلك ولعلّ الى بعض هذه المراتب الاشارة بقوله تعالى (والطُّورِ وكتابٍ مسطورٍ في رقّ منشور والبيت المعمور والسقف المرفوع والبحر المسجور) ومن الجائز (والعلم لله) ان يكون الطور اشارة الى العرش والعناية المحيطه والكتاب المسطور هو نقش القضاء الاول والرّق المنشور هو مافصَّله القدر ونشره من عالم القضاء والبيت المعمور هو النفس الناطقه الكليه التي بها حياة عالم الاجسام والسقف المرفوع هو عالم الفلكيات والاجرام السمويه وقرنت بالبيت المعمور لنزول الصور منها ونفخ الروح منه فيتمّ خلق الحيوان بهما والبحر المسجور هو العمق الاكبر المذكور في دعاء السمات وهو بحر الهيولى السيّاله المملوء بالصور والحقايقُ لله جلّت عظمته وهو بها اعلم

(الخامس) في البداء بحسب عامّة المسلمين (جمع الله كلمتهم) انّ هذه الكلمة مما انفردت بها الاماميه واعتدّوها شناعة كبرى عليهم ولو تمحّصت الحقايق واستوضحت المقاصد وزالت اغشيةُ الاوهام التي تحول بين الحقيقه والافهام لانكسرت السوره وانكبحت الشرّه ولعرف الجميع انهم متفقون على مقالة واحده وان النزاع بينهم لم يكن الاّ لفظيًّا وهكذا اكثر الخلافيات التي تضاربت فيها المسلمون التضاربَ الذي جرّ عليهم الويلات وآل بجمعهم الى الشتات وصيَّرهم بالحالة التي تراها وتسمع بها

اليوم – كلّ تلك المنازعات الا الطفيف قد عملت فيها عوامل الشدّه ونظر الشنآن والحدّه وعدم التروي والأناة في تبلّغ المقاصد وتفهّم المرامي والغايات حتى بلغ الامر الى اوخم عاقبه واسوء مغبّه واوبيء مبائه والى الله المشتكي والرغبةُ في إدالة هذه الحال والنزوع عن تلك الضرايب فانّه الحريّ بالاجابة ان شاء الله – اما مسألة البداء فهي من اوايل الامور المعقوله واجلى الحقايق الراهنه وابين النواميس الاسلاميه واشرف النعوت الألهيه واعزّ الصفات القدسيه – هل البداء الاّ ثمر حرية الاراده ونتاج اطلاق الاختيار والمشيَّه الذي هو حقّ خصوصي لذات العزّه ومالك الملك على الحقيقه هل البداء الاّ ان لاتكون يد الله مغلوله وان يكون كل يوم في شان وان يتصرّف في ملكه كيف ما شاء وحيث ما اراد وان يكون الفيض منه دايما والتصرف متتاليًا فلا يكون فارغًا معطّلا ولا منبوذًا مهملا تعالى الله عماً يقولون علوًّا كبيرا – يريد الأنسان انَ تسلمَ له حرّيةُ ارادته وطلاقة اختياره وتمشية مشيّته ولا يكون ذلك للمالك الذي وهبه هذه الروح الحيويّه التي هي احدى مُقوِّمات الحقيقة الانسانيه يريد الانسان ان يجعل نفسه حقيقًا بالتصرّف حريًا بحرّية الاختيار مطلقَ الاراده ويجعل باريه مقيّدا محدودا لا فسحة له في التصرّف ولا حصّة له في التكوين والتدبير ولا سبيل له الى الاحداث والتجديد والتغيير والتبديل ذاهلاً عن صراحة قوله ملأ كتابه الكريم (يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده امّ الكتاب) (اَلا له الخلق والامر) ومالا يحصى من نظاير ذلك ولكن حسب المنكرون للبداء المألّبون بالشناعة على من يقول به انّ هذه المزعمه تستلزم الجهلَ في حقه تعالى وتقضي بمشاركته لخالقه في ظهور الشيء لهم بعد خفائه وبروزه بعد استتاره حيث يتعاور

عليهم العلم والجهل ويتمشّى فيهم الحدوث والتجدّد وتلك خاصة الممكنات وصفة المحدثات يتقدّس ويتعالى عنها الواجب بالذات

يا هل ترى انّ البدائيين ارادوا (معاذ الله) ان يثبتوا الجهل لحضرته وينسبوا النقص الى كماله ويبخسوا اقدس صفاته ام انّهم جهلوا هذا الاستلزام الجليّ ومفسدة التالي ومضلّة هذه الغايه كلاّ فانّ الامر اوضح واجلى وسنجهز لك من البيان ما ستقطع جهيزته قول كل خطيب وتريك انّ من لم يعرف البداء ويعترف به فليس له من كامل المعرفة حظّ ولا نصيب بل تعرف انّ جميع المسلمين قايلون به على الجمله دون التفصيل وليس لهم الى انكاره ودفعه من سبيل

عرفت مما مرّ عليك انّ الباري جلّت قدرته اوّل ما انشأ من مكنون غيبه جوهرا قدسيًّا في غاية النور والسناء والعلم والاحاطه ثم انشأ بتوسطه (لا استعانةً) جواهرَ اخرى قدسيه مترتبة في الشرف والكمال وشدة النوريّه على حسب ترتّبها في القرب منه تعالى ثم حصل منها بواسطة جهات فقرها وامكانها موجودات نفسانيه يتعلّق طرفها الاعلى بتلك العقول القادسة الفعّاله ويرتبط الادنى بالاجرام الطبيعيه التي نشأت هي وما معها من العناصر والمركبات بواسطة تلك المجرّدات في مراتب نقصها وضعف وجودها عن علّتها ويُعبَّر عن تلك الموجودات العُليا بعبارات حسب اختلاف الاعتبارات فتارة (بالعقل) لتعقّلها وعلمها و(بالقلم) لنقشها وتصويرها المعلومات في ما دونها من قوابل الالواح المستمدّه على وجه الدوام والتجدّد و(بعالم الامر) باعتبار تاثيرها الوسطي فيما هو اسفل منها من العوالم و(مفاتح غيبه) و(بكلمات الله التامات) باعتبار دلالتها على عظمة باريها وما استودعه من الكمالات فيها دلالة الكلمات على معانيها فهي قلم تاره وكلمة اخرى ومفتاح من جهة وخزانة من جهة اخرى فهذه صفات القلم

الالهي وشوءونه واعتباراته ثم اندفع هـذا القلم يكتب في لوح النفس الناطقة الكليه كلّما جرى او سيجري من الكاينات ولكن على وجـه كلي بصور مضبوطه معلومه بعللها واسبابها وهي اللوح المحفوظ باعتبار حفظها للصور الفايضه عليها بصفة دايمه من تلك المبادي العـاليه على وجه بسيط ثم ينتقش في القوى الجزئيَّة المعبَّر عنها بالنفوس الفلكيه والقوى المحرِّكه الفعّاله في تلك الاجرام العظيمه صوَرٌ جزئيه متشخصه باشكال وهيئات مقدره مقارنة لاوقات معيّنه مطابقة لما يظهر في المادة الخارجيه وهذه الصور على حسب وجودها الخارجي كما لا تزال في صـراط الحركه وتجدّد الصور لا جرم تكون متبدّلة متجدّده في تلك المبـادي التي هي الواح قدريّه وفيها المحو والاثبات وعالَمها عالَم الخيـال والمثال كالصور التي ترتسم في لوح خيالنا ثم تزول وتتبدّل وهذا بخلاف اللوح المحفوظ فانّ نقوشـه محفوظه مستمرّه كالكليات في عقولنا وكلا الكتابين كتاب مبين (ولا رطب ولا يابس الاّ في كتاب مبين) (وكل شيء احصيناه في كتاب مبين) الاّ انّ اللوح المحفوظ هو امُّ الكتاب والثاني كتـاب المحو والاثبات فهذه المبادي العاليه هي اصول الكتب الالهيه واماً فروعها فكلُّ ما في الوجود من مواضع الادراك والشعور كالقوى الحيوانيه والنفوس الانسانيه بمراتبها المتصاعده حتى تنتهي الى الانسان والجميع كلمات الله الاّ ان بعضها كلماته التامه وبعضها كلماته الناقصه وكما انّ الفيض لا يتناهى ولا ينقطع فتلك الكلمات لا تنفذ ولا تقف (قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربّي لنفد البحر قبل اَن تنفدَ كلمات ربّي ولو جئنا بمثله مددا) ولإِن كان شيء اقربَ الى الحقيقه فهو تلك الأساسيات والرموز التي كشفنا نقابها اِذ لا اخالك تفهم مِن قلم الله جلَّت عظمته مايفهمه الجـامدون من المعطِّلة والمشبِّهه فتحسب انّ القلمَ هنا

آلةً جماديّه من حديد اوقصب واللوح صفحة ملساءمن عاج اوخشب او ان
الكتابه تحريك اليد بتلك الادوات وتصوير اشكال الحروف والكلمات
وقد قال بعض الأكـابر انّ ذات الله وصفاتهِ كما لا يشبهُ ذات الخلق
وصفاتهم كذلك لا يشبهُ قلمهُ ولوحهُ وكتابهُ اقلامهم والواحهم وكتابتهم
على انّك لو نظرت في مدلولات هذه الالفاظ وجردتّهـا عن الزوايد
الغير الداخله في اصل مفهومها وروح معناها وجدت انّ هذه الخصوصيات
ككونها قصبا اوخشبا او مدادا خارجة عن اصل ماهيتهاوجوهر حقيقتهاوما
الكتابة سوى تصوير الحقايق على ايّة صورت كانت ولا اللوح سوى الجوهر
القابل لذلك التصوير سواءً كان جسما محسوسا اوغير محسوس واذا تدبّرت ذلك
فحمل هذه الامور على ما يناسب الألهيه اولى من حملها على ما يناسب الخلق
ثم ان قلوب الملائكة العمّاله ونفوس المدبرات العلويه المشار اليها
بقولهِ تعالى (فالمدبّرات امرا) كلّهـا من تلك الصحف الالهيه والالواح
القدريه وهي من كتاب المحو والاثبـات ولا تزال تستمد الفيض من
مباديها العاليه وبحسب مراتبها ومراكزها لا تستطيع ان تنطبق في قواها
كافة العلوم وترتسم فيها جميع الحوادث دفعـة واحده فانّها وان تكن
روحانية القوى ولكنها جسمانيَّة التعلق وكلّ جسم او جسماني فهو محدود
قابل للتغيير والتجدّد والسير في صراط التكميل والاستزاده والـذي
يستحيل عليهِ ذلك انّما هو ذات الواجب وصفـاته الحقيقيه لا الاضافيه
وعالم امره وقضائه السابق وعلمُه الازليّ امّا مصنوعـاته ومخترعاته وهم
ضرب من ملائكته فمن السايغ لهم بل الواقع — التجدّدُ في العلوم والاحوال
واولئك الملائك هم الكرام الكاتبون الذين يفعلون ما يؤمرون
ولِنفوس الانبياء والرسل تعلق وارتباط في بعض مراتبهم واحوالهم بهذا

الصنف من الملائكة كتعلقهم حسب مقاماتهم بما هو اعلى وارفع مما مرّ ذكره عليك من تلك المبادي العالية وعليه فتقدير تسم في احدى تلك القوى المدبّرة العمّاله حادثة مخصوصه كموت زيد غدا مثلا فتتّصل بتلك القوة نفسُ النبي او الوليّ ويطّلع على ذلك الرسم فيخبر بما رآه بعين لُبِّهِ وما سمعه باذن قلبِهِ ويكون اخباره حقا وصدقا لا كقول الكاهن والمنجِّم واضرابهما القايلين لا عن كشف يقيني وشهود عيني بل على امارات الظن والتخمين ثم يُفاض على تلك القوة من ينبوعها لحوق شرط او حصول مانع بذلك الحادث كأن يكون موته غدا مشروطا بعدم تصدّقه او عمله العمل الخاص المانع من وقوع الموت عليه ويكون رسم موته اولاً على حسب الاقتضاء الأوليّ والاستعداد الذاتي لا بحسب ظرف الوقوع فيطّلع عليه النبي تارة اخرى ويخبر بخلاف خبره الاولّ معلِّلا بذلك الوجه ويقول عند ذلك (بدا لِله) في شأن زيد ببقاوءه وارجاء اجله كما وقع لعيسى بن مريم ويونس بن متى وكثير من الانبياء سلام الله عليهم مثل ذلك في اقاصيص مشهوره والبِدا وان كان جوهر معناه هو ظهور الشيء بعد خفائهِ ولكن ليس المراد بهِ هنا ظهور الشيء لله جلّ شأنهُ بعد خفائهِ عنهُ معاذ الله واي ذي حريجة ومسكة يقول بهذه المظلّه بل المراد ظهور الشيء من الله لمن يشاء من خلقهِ بعد اخفائهِ عنهم وقولنا (بدا لله) اي بدا حكمٌ لله او شأن لله فانّهُ كلّ آن في شان وهذا معنىً كما تراه ليس شيءٌ اجلى منهُ حقيقه واوسع دايره واعرق بالصدق والانقياد اليهِ من كلّ ذي شعور — والمواخذةُ في التعبير بعد صراحة المراد وايضاح القصد عازبةٌ عن الصواب وليست من العلم في شيءٍ وايُّ شناعة في هذا وبشاعه بل ايّ مسلمٍ يسعهُ انكار شيء مما سبق اكتابَ المحو والاثبات ام القوى المدبره (المدبرات امرا) ام اتّصال النفس النبوية بتلك القوى

وبما هو اعلى منها (علَّمهُ شديد القوى ذو مرّة فاستوى) ثم اشار جلّ شانهُ الى تعاليهِ عن ذلك المقام واستغنائهِ عن الاستمداد منهُ بقولهِ تعالى (ثم دنا فتدلّى فكان قاب قوسين او ادنى) وحيث قد حصل لك بعض الالِمام بالبداء وعرفت ماذا يعنون منهُ القايلون بهِ فاستمع لما نتلو عليك من بعض احاديث اهل البيت فيهِ فانهم ادرى وبالاتّباع احرى

روى في الكافي بسنده الصحيح عن الصادق جعفر بن محمد الباقر سلام الله عليهما قال انّ لله علمين علم مكنون مخزون لا يعلمهُ الاّ هو من ذلك يكون البدا وعلم علَّمهُ ملائكتهُ وانبياوءه ورسله فنحن نعلمهُ — اشار بالعلم المخزون الى علم الغيب الذي استأثر بهِ ولم يطلع عليهِ احدا من خلقهِ ابدا ولكنهُ جلّ شانهُ يفيض منهُ حسب حكمتهِ على تلك النفوس شيئًا فشيئًا تدريجا بمقتضى علمهِ بالصالح ومن هذه الوجهه يكون منهُ البدا فقد يعرف بعض انبيائهِ او اوليائهِ عدّةً من الحوادث التي تجري عليهم اوعلى غيرهم ولكنهم يلبثون واقفين عندها لجواز ظهور البداء فيها من علمه المخزون فامّا ان يظهره بواسطة تلك المبادي اوبغير وساطتها نعم قد يعلمون ببعض الحوادث المستقبله ويعرفون انه من المبرم المحتوم الذي لا يُغيّر ولا يُبدّل وهذا من الذي علَّمهُ ملائكتَه ورسله وانبيائه

والجميعُ مماّ فيهِ البدا ومماَّ ليس فيهِ معلومٌ لله على حقيقتهِ وواقعهِ روى في الكتاب المتقدّم عن الصادق (ع) قال مابدا لله في شيءٍ الاّ كان في علمهِ قبل ان يبدو له . وفيهِ عنهُ (ع) قال ان الله لم يبدُ له من جهل . وعنهُ (ع) قال ان الله اخبر محمدًا صلى الله عليهِ وآلهِ بما كان منذ كانت الدنيا وبما يكون الى انقضائها واخبره بالمحتوم واستثنى عليهِ فيما سواه . يعني جعل لهُ المشية فيهِ فبقي موقوفا ، ثم هل بعد هذه الاحاديث الشريفه من مساغ للقول بانّ القول

بالبدا يستلزم الجهل على الله معاذ الله او وصفهِ بصفة المخلوقين ولكن بعض الباحثين اخذوا على انفسهم ان يتضاربوا بمبرمات من الجدل قبل ان يعرف كلٌّ حقيقة مزعمة الآخر ولعله يقول بها قبل كل شيء روى في الكافي ايضا عن منصور بن حازم قال سألت ابا عبد الله الصادق (ع) هل يكون اليوم شيء لم يكن في علم الله بالامس قال لا. من قال هـذا اخزاه الله قلت أرايت ما كان وما هو كاين الى يوم القيامه اليس في علم الله قال بلى قبل ان يخلق الخلق ثم العجب من منكري البدا ايما نهم بالنسخ والتخصيص وهل النسخ في التشريع الاّ اخو البدا في التكوين والجميعُ ممّا يدخل في لوح المحو والاثبات الذي عرفت اشتمالهُ على معنيين المحو والاثبات في الصور المرتسمه على الالواح طبق الموجودات الخارجيه الواقعه في سنّة التَّغير والتَّبديل وناموس الارتقاء والتَّكميل فهي الى بلوغ غايتها الميسَّرة لها في خلع ولبس اولبس بعد لبس والثاني المحو والاثبات بالنظر الى مايرتسم فيها ثم يبدَّل قبل وقوعه الخارجي وتحققهِ العيني والبدا شاملٌ لكلا المعنيينِ ثم لايعزبّن عنك انَّ روح الغرض من تاسيس القول بالبدا هو الردّ على من يقول من اليهود اوغيرهم ان الله قد قدَّر كلّ شيء على وفق علمه وانه فرغ من الامر ولا يحدث بعد ذلك شيئا (وقالوا يد الله مغلوله) وحاصل الردّ عليهم بالبدا انّ لِله تعالى ذكره تقديرات وارادات متجدده يُظهرها حسب المصالح التي يريدهـا في ايّ وقت يشاءِ ولا يزال الفيض منه متصلا متتاليًا (انّ الله يمسك السموات والارض ان تزولا) ومن هنا تجد للبدا فضل عناية في اخبـار اهل البيت حتى ورد في كثير من اخبـارهم ان الله ما بعث نبيًا قط الاّ بتحريم الخمر وان يقرّ لله بالبدا ولو علم الناس ما في القول به من الاجر ما فتروا عنهُ ثم لنختم هذه المباحث المقدّسه بحديث شريف مشتمل

على اسرار الحكمة اللاهوتيه ولُباب التقادير الالهيه من علمه تعالى وتفاصيل مناحي القضاء والقدر وشؤونهما وسلسلة مباديهما وغاياتهما ويكون هو السند والحجّه لجميع ما قدمناه سوى ما اشتمل عليه ممّا لم نتعرض لبيانهِ

روى في الكافي ايضا بسنده عن معلّى بن محمد قال سُئلَ العالم يعني الامام موسى بن جعفر سلام الله عليهما كيف علمَ الله قال علم وشاء واراد وقدّر وقضى وامضى فامضى ماقضى وقضى ماقدّر وقدّر ماااراد فبعلمه كانت المشيَّه وبمشيَّتهِ كانت الاراده وبارادتهِ كان التقدير وبتقديره كان القضاء وبقضائهِ كان الامضاء والعلمُ متقدّم على المشيَّه والمشيَّه ثانية والارادة ثالثه والتقدير واقع على القضاء بالامضاء فللهِ تبارك وتعالى البداء فيما علم متى شاء وفيما اراد لتقدير الاشياء فاذا وقع القضاء بالامضاء فلا بداء فالعلم في المعلوم قبل كونه والمشيَّة في المنشأ قبل عينه والارادة في المراد قبل قيامه والتقدير لهذه المعلومات قبل تفصيلها وتوصيلها عيانا ووقتا والقضاء بالامضاء هو المبرم من المفعولات وذات الاجسام المدركات بالحواس من ذي لون وريح ووزن وكيل وما دبّ ودرج من انس وجنّ وطير وسباع وغير ذلك ممّا يُدرك بالحواس فللّه تبارك وتعالى فيه البداء ممّا لا عين له فاذا وقع العين المفهوم المدرك فلا بداء والله يفعل ما يشاء فبالعلم علم الاشياء قبل كونها وبالمشيَّة عرّف صفاتها وحدودها وانشائها قبل اظهارها وبالارادة ميّز انفسها في الوانها وصفاتها وبالتقدير قدّر اقواتها وعرّف اوّلها وآخرها وبالقضاء ابان للناس اماكنها ودلّهم عليها وبالامضاء شرح عللها وابان امرها وذلك تقدير العزيز العليم

حقّ للاسلام ان يبتهج ويفتخر على سواه بمثل هذه الآثار والانوار والعلوم الساطعه والمعارف الدقيقه والوصول الى تخوم الحقيقه حقّ للاسلام ان يَعدّها من اكبر حسناته ومن محاسن آياته وبيناته ولولا الصروف والصوارف

لشرحنا هذا الخبر النيّر شرحا وافيا يُطلعك على ماحوى من اسرار المعارف وكنوز العلم ولكنه يستلزم توسيع الموضوع كثيرا ولا سيما في المسألتين المهمتين مسألة العلم والاراده اللتين هما من بعض محتوياته وعلى ايٍّ فهو الغاية فيما اوردناه لاجله واردناه من تحقيق مسألة البدا وحلّ عقدتها وقد حصل القصد فيما احسب ولله الفضل والمنه

(السادس) من الامور في الافعال الاختياريه ومباديها ومقدماتها ومزلّة اقدام اعلام في هذا المقام لايشكُّ احد انَّ جميع الاميال والارادات انما هي اوّلا فرع العلم والادراك والاحساس والشعور وكلها متقاربة المعنى والادراك اعمُّها والافعال الصادره من الانسان انّما هي نَشَأ تلك الارادة التي هي وِلادة الادراك والشعور ولكن مع شيء آخر وهو القدرة والاستطاعه فهذه ثلاث اساسيَّات ومقدّمات للافعال هي (العلم والارادة والقدره) امّا العلم فقد بلغك اقوالهم فيهِ من انه حصول صورة الشيء في النفس وما اشبه ذلك من العبارات و كلٌّ نَظَرَ الى جهة من العلم فقال قولاً فيهِ وقد عرفت ماتراه سالفا عند بحثنا عن الادراك وانهُ نوع اتحادٍ وسِعةٍ في النفس وخلاّقيةٍ لها والعلم هو الادراك بوجهٍ نعم وهذه الحيويّات الثلاث كلها من الكيفيَّات النفسانيه فانّ القدرة ايضا كالعلم هيئة نفسانيه يتمكن بها الانسان من الفعل والترك متى شاء واماّ الاراده فهي توُّجه النفس بالعزيمة والطلب الجازم الى حصول الفعل اوالترك ولكلٍّ من هذه الثلاث مبادي لا تتحقق بدونها اما مبدأ الاراده فقد علمت انّه العلم والادراك فاذا ادركنا شيئا علمناه واذا علمناه فامّا ان نجده ملايما للنفس او منافرا والحاكم بالمنافرة او الملايمه اماّ الوهم اوبديهة العقل السليم فاذا احسسنا بالملايمه او المنافره انبعث منّا شوق اكيد الى جذبه او دفعه وذلك الشوق

هو العزم الجازم الذي نسمّيه بالاراده واذا انضمت اليها القدرة التي هي القوّة الفاعله انبعثت هذه القوه بدافع الارادة والشوق الاكيد الى تحريك الاعضاء اماّ العلم والقدرة فمبدوءهما الحياة وهي بحسب ما اراه تختلف باختلاف ملابساتها ومواضع الاتصاف بها فهي في المفارقات للماده نفس وجوداتها الخاصه التي هي جواهر مجرّده مصحِّحةٌ لانتزاع العلم والقدرة من ذواتها اماّ الحياة في الماديات فهي ارتباط الجسم المادي بتلك الروح المجرّده واتحادهما بضرب من الاتحاد وعلى كلٍّ فهي كما ذكروا مصحِّحةُ الاتصاف بالعلم والقدره وبدونها لا يتحقق شيءٌ منهما وجميع هذه النعوت مراتب للنفس وشوءون واطوارٌ لها من اعلى مقامها الشامخ مقام التعقل الى ادنى مراتبها وبرزاتها وهو مقام اللمس الموجود حتى في ديدان الارض وحشراتها وليس لها من الاحساس سواه ثم حيث تجتمع تلك المبادي الاربعه الحياة والعلم والقدره والاراده في متعلَّقٍ خصوصيّ انبعثت لتحريك الاعضاء اليهِ عند الشعور بملايمتهِ فتحصل الحركة الواجبة لحصول علتها التامه ولكنها تحصل بالاختيار وهو انضمام الاراده الى العلم والقدره وعلى الحقيقه انّ جوهر الاختيار هو الاراده وان كانت لا تكفي في وقوع الفعل الاّ مع القدره ولكن القدره بمعزل عنهُ نعم بانضمامها يقع الفعل واجبا بالاختيار اذ ليس الفعل الاختياري كما سبق الاّ ما صدر عن علم واراده اماّ اذا لم نجد الملايمه او المنافره في الشيء المُدرك ابتداءً استعمل العقلُ لا محاله قوّة التفكر والوهمُ قوة التَّخيُّل في طلب الترجيح بوجهٍ وهمي او عقلي فيتحركان حركة اختياريه اراديه في الطلب فربما كان ملايما ببعض الوجوه غير ملايم ببعضها لملايمة بعض الحواس دون بعض او بعض الاعضاء دون الآخر او للحسّ لا للعقل او في العاجل دون الآجل او العكس او بالنظر

الى بعض المصالح دون بعض ويحدث بحسب كل مصلحة وترجيح داعٍ وبحسب كلّ منافرة صارف فان ترجحت الدواعي حدث العزم الجازم على الفعل فيجب وان ترجحت الصوارف حدث العزم على الترك فيجب كذلك وكلاهما بالاختيار وهناك تتَّجه اللايمة او الثناء والمدح او المذمّه بحسب حسن الاختيار وقبحه وعليهِ يترتب الثواب والعقاب ويظهر الفرق بين المُكره والمختار وقد لا يظهر وجه الرجحان فتبقى النفس في الحيرة والترديد وقد نظر بعضٌ الى انّ وجود بعض تلك المبادي من قوة الادراك والعلم والقدرة كنفس وجودنا ليس باختيارنا والاّ لتسلسلت القدرة والعلوم والارادات الى غير النهاية او دارت فطمح بنظره الحديد الى ابعد اسبابها فرأى ان الوسايط والاسباب القريبة كلها مستندة على الترتيب المعلوم في سلسلة العلل والمعلولات الى العلة الاولى استنادا واجبا فقال بالجبر وخلق الافعال مطلقا له تعالى ولم يفرّق بين افعال ذوي الشعور وافعال الجمادات بغير ان الله سبحانه جرت عادته ان يخلق الارادة للانسان مع خلق الفعل منه من دون تاثير لها فيه او ادنى استنادٍ به اليها وسمَّي ذلك بالكسب — وبعضٌ نظَرَ الى انّ تلك المبادي مستندة الى النفس معلولة لها فاستوقف نظره القاصر على الاسباب القريبة ورآها موءثِّرة بالاستقلال فقال بالقدرة والتفويض فبعض اطّرد هذه المعضلة في كافة الافعال وبعضٌ فصَّل بين افعال الخير والشر فجعل مبدء الاولى الباري ومبدء الثانية الانسان فاثبت مبدأين ولعلّ اليهم الاشارة بقوله صلوات الله عليه (القدرية مجوس هذه الامة) وافرط بعض هوءلاء حتى قال ان الشرور تقع منّا لا بارادة الله تعالى ولا بمشيته فجعلوا لله شريكا في ملكه وسلطانه وكما افرط هوءلاء وتطرّفوا وزلّت باقدامهم خُطى اوهامهم الى اتمس هوّة فكذلك قد فرّط

اولئك وخبطوا خبطا مدهشا واجترأوا على الله (تقدست عظمته) وجاءوا شيئا إدا تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الارض وتخر الجبال هدا فنسبوا الى خالقهم مالا ينسبونه الى اشقى الخلايق وجاهروا بذلك على رؤوس الاشهاد من غير مواربة ولا حجاب فقال احد المشاهير المعروف بابن غانم المقدسي المتوفي في حدود القرن العاشر (ان لله امر بالكلام وارادة للفعل فقط ثم هو قبل ان يخلق الخلق قسمهم هذا للجنة والسعادة والعمل الصالح وذاك للنار والشقاء وعمل الفساد فاذا وجدوا في هذه الحياة وابتدء الشقي ان يقتل مثلا اويزني او يسرق فيأمره الله بالكلام فقط (لا تقتل) (لا تزن) (لاتسرق) ولكنه في آن واحد يجره بقوته الخفية الى ان يقتل او يزني أويسرق لعلة انه يستحيل ان يفعل غير ذلك لانه مكتوب قبل وجود العالم (شقي للنار) والامر الذي يقوله الله تعالى له في الدين لاتقتل لاتزن لا تسرق ليس الا صورة بصفة حجة ظاهرية فقط لا تاثير منها ولا فائدة في منعه حتى قد يجوز اذا كان قد عمل اعمالا طيبة صالحة الى النهاية وكان مكتوبا من الاشقياء كابليس فهي لاتنفعه مطلقا وكانها في هباء وبالعكس الى آخر ما ذكره وضرب على هذا الوتر الشنيع والنأمة الغرابية جملة ممن سبقه ولحقه ممن يعدون في طليعة العلماء وساقة الكبراء يقول هو واحزابه (الآمر يهب والارادة تنهب الآمر يقول لاتفعل والارادة تقول افعل ولله ان يعذب بلا سبب وان يسعد بلا نسب ولا مكتسب ثم يصلون حجتهم الداحضة بقوله تعالى (لا يسئل عما يفعل وهم يسئلون) اما انا فاقول حنانك اللهم ورحماك بعبادك المسلمين فاني لا اظن احدا منهم اليوم يرضى بنسبة هذه المضلة والظلامة لقدسي ذاتك وسبحات وجهك الكريم عن كل خسيسة ومنقصة وحيف وظلامة تكرمت عن ظلم عبادك الذين عدلت فيهم وامرتهم

بالعدل وتفضّلت عليهم وحببّت اليهم التفضّل حاشا وجهك الكريم ان تكلّفهم المحال اوتقودهم بالجبر الى مدانس الافعال التي تنهاهم عنها وتولا وتجبرهم عليها بزعمهم فعلا حاشاك من العيث والعبث والحيف والجنف وانت الغنيّ الكريم انشأتهم لِترحمهم لا لِتظلمهم واوجدتهم لِتسعدهم لا لِتنكدهم ولكن عبادك بدل لطفك فيهم اتّهموك وعوض رحمتك لهم ظلموك — لا بل ظلموا انفسهم واتعسوا جدودهم فانك العزيز شأنا المنيع جانبا فلا حول ولا قوة الا بك ونحن اذا قايسنا بين ذينك المقالتين بل المضلتين وجدنا الأُولى على شناعتها وزيغها اهون الشرّين واقل الضررين نجدها اهون على الامة شرّاً واقلّ في المجتمع البشري خطرا نجدها اخفّ رزية واضعف بلية اِذ ايّ بلية اعظم من الا ِتكال على القضاء والقدر والافساح للنفوس في السباق الى كل شرٍّ وشره والتقاعد عن كل كمال وكرامه وجعل ذلك في عهدة القضاء والتعلل بانه مما لا محيص للانسان عنه وانّه مجبور عليه وتهمة ذات العزة بوصمته واحالته على عهدة الحق جلّ شأنه دون عهدته فينزّه نفسه ويتّهم ربّه ايّ انسان يراجع وجدانه ومحكمة عقله وضميره فيفسح لها العذر بحجة القضاء والقدر فى ارتكاب كبيرة او اجتراح جريرة من قتل نفس بريئة او اغتصاب مال محترم او هتك حرمة مقدسة

الانسانُ اذا اطلّ واشرف على واحدة من تلك الجراير أيجد وجدانه وضميره يقول له دونك فارتكبها فانّها مقدّرة لك مكتوبة في لوح القضاء عليك ولا محيص لك عنها وهو في الحال نفسه يحسّ ببداهة حسه انّ فعلها وتركها شَرَع لديه سيّان بالنسبة اليه كلاهما في قبضة اقتداره وتحت سلطان اختياره — دع عنك ياهذا هذه الخزعبلات والمخرفات والاباطيل والتعللات فانّ الله جلّ شانه ما جعل القضاء والقدر لِتتّخذه سِتارا لسيئاتك وتمشية

لشهواتك وعصىً تتوصّل بها الي معاصيك واهوائك وانما جعلهما اظهارا لعظمته وبيانًا لسعة علمه واحاطته ونفوذ سلطانه وبلاغ قدرته — الا تعجب سائلا من اولئك المسلمين القايلين (انّ لله ان يعذّب بلاسبب) كيف غابت عنهم آياتِ كتابهم الكريم ونصوصه الصُّراح ومحكماته الجليَّة مثل قوله تعالى (و ان ليس للانسان الاّ ما سعى) (انماّ تجزون ما كنتم تعملون) (لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت) (اِن احسنتم احسنتم لانفسكم واِن اسأتم فلها) (من يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرّة شرا يره) (اوَلمَّا اصابتكم مصيبةٌ قد اصبتم مثليها قلتم انّى هذا قل هو من عند انفسكم) الى كثيرٍ من نظايرها وهي من الصراحة بمكانٍ لايمكن ان تمسَّها يد التأويل والتصرُّف فيهِ وهب ورد امثال قوله عزت عظمته (وماتشاؤون الا ان يشاء الله) (قل كلٌّ من عند الله) (قل لن يصيبنا الا ما كتب الله لنا) (يعذب من يشاء ويغفر لمن يشاء) (ما اصاب من مصيبة الا في كتاب من قبل ان نبرأَها) (يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده ام الكتاب) وامثال ذلك ممَّا يوهم المخالفة لذلك الفريق من الآيات ولكن هل يلبث هذا الوهم اكثر من لحظه واطول من ومضه حتى ينقشع غشاؤه وتتجلّى سماء الحقيقة ناصعةً من ورائه هل يجد اوايل المتدربين والمتدبرين ادنى تدافع بين ان تكون افعال الانسان بسعيه واختياره وبقدرته وارادته وله خيرها وثمراتها وعليه شرورها وتبعاتها كما هو مؤدى الطايفة الاولى من الآيات وبين ان يكون كلية اتصافه بالقدرة والاختيار والارادة كوجوده وحياته ومشاعره كلُّها من الله كما هو مؤدى الطايفة الثانية وهل في هذا استلزامُ ان يقول الله لعبده افعل ويجبره على ان لايفعل وبالعكس كما يزعم اولئك الزاعمون ام هل في حديث اظهار الله لبعض الصور في مراتب العلم ثم محوها واثبات

غيرها لمصالح جلية او خفية اولعدم تحمُّل تلك المراتب لتلقّي تلك المعلومات دفعةً دلالةٌ اواشعار بالجبر وسلب الاختيار وهل كتابة ما يجرّه الانسان الى نفسه من المصايب بسوء اختياره وتفريطاته واهماله يقضي ببرائته منها وتهمة باريه بها ام هل يسوغ والحال هذه ان يقول وهو الحكيم العادل (ذلك بما كسبت ايديكم وما ربُّك بظلاّم للعبيد) الى كثير من نظايرها ام هل بعد كريمة قوله تعالى (اعملوا ماشئتم انّي بما تعملون عليم) وقوله عزّ سلطانهُ (يوم تُجزى كل نفسٍ ماكسبت لا ظلمَ اليومَ) من سبيل لتالك المزعمة الاثيمة والمضلة الداحضة — ولعلّ من تستَّر عن الجبر بالقول بالكسب اخذه من هذه الآية وامثالها ولكن هل نزل القرآن على اصطلاحهِ الاخير الذى لم يفهم المراد منهُ حتى الآن ام نزلت الالفاظ على معانيها اللغويه حتى يثبت البرهان القاطع على خلافها — امّا آية العذاب والمغفرة فليس موضوعها سوى اهل الجرائم كما هو جليٌّ منها ومن سياقها فهو سبحانه يعذّب من شاء من العاصين ويغفر لمن شاء منهم الالمعيُّ يعرف انّ الله سبحانه يُوجد للانسان ما يريده ويختاره الانسان لنفسه من خير او شر لا انّه يوجد ما يريده هو ثم يوجد له الارادة والاختيار بما اراد واوجد

نعم عبثا نحاول الاحتجاج واقامة البراهين على امرٍ ضروري يشهد بهِ الضمير والوجدان لكلّ انسان بيد انّ تلك البراهين مهما سطعت واستنارت سوف لا تكون الاّ هباءً عند من يرى انّ الله عزّت عظمة جلاله يناقض معاذ الله بين اقواله وافعاله — الذي يذهب في متاهة هذه الضلاله فايّ آيةٍ تنجع فيهِ ام ايُّ دلاله وهل سبيل الجميع عنده الاّ واحد ولعلّ بعض السبب او كلَّه في تأخر المسلمين وسقوطهم في اعمق مهابط الخمول — كما احسّ بهِ اليوم كل واحد منهم هو سريان هذه الروح

الوبيئة في نفوسهم فلطأوا بارض الهوان واخلدوا اليها ينتظرون
ان تأخذ بايديهم يد القضاء والقدر فتعيدهم الى مراكزهم الاُولى من
التقدُّم على ساير الامم وهيهات مالم ينهضوا تلك النهضة التي تؤخذ بها ايديهم
على يد القضاء والقدر فلا يُقضى ولا يُقدّر لهم الاّ بالحسنى فانهُ لا يجري القضاء
والقدر على امَّة اوفردٍ الاّ على حسب مساعيها وقدر جدّها واتفاق كلمتها
وليست العناية الساعة مصروفةً الى هذه الغايه وان كنت ارى
لزوم الدعوة اليها قبل كل شيء ومع كل شيء ولكن لعل من اكبر
المساعدات عليها فكُّ اغلال القضاء والقدر من الاعناق وتبليغ كل ذي
شعور معانيها التي تحوّرت عنها وانسلخت منها الى غيرها بل الى ضدها
ودَحر ذلك الوهم الرجيم وتطهير اديم الشريعة الاسلامية من هذه اللوثة
الشاينة لها على حين انّ تلك الشريعة المطَّهره تصرخ الى الله بالبرائة من
تلك الاوهام المختلقه التي اُلصقت بها واستُدخلت فيها وما هي منها بشيء
كما انَّني بلسان جميع الامة الاسلامية اليوم ابرء اشدّ البراءة من ذينك
المقالتين واختار حدّ الوسط الذي هو الخير كلُّه ونرى انّ العلم مع الدين
ينادیان انَّه لا جبر ولا تفويض بل امرٌ بين الامرين على الوجه الذي
اوضحنا لك فيما سبق سبيله ووفيناك دليله واعطيناك جوهر القول فيهِ
وخلاصة البيان الذي لا احسبك تجده في غير دعوتنا هذه ولا تعثر على
مثله في غير هذه الشريعة المقدّسه الاسلاميه ونحن بعد كتاب الله الكريم
وآياتهِ المقدّسة التي تلونا بعضها عليك لا نزيدك هنا في الاستظهار على ذلك
الرأي الوثيق الذي هو مصاصة الدين وخلاصة الفلسفة الحقه الاّ باخبار
النبيّ والمعصومين من اهل بيته الامناء على حفظ نواميس شريعته نذكر
عدّة من اخبارهم المتظافره بل المتوافره حتى يتجلّى لساير الشعوب والامم

انّ الدين منزّه عن تلك الخزعبلات والمخرفات التي تصادم ضرورة العقول وتُعدّ من اعظم الهنات على الشريعة الاسلاميه (وحاشاها) فمن قول رسول الله صلوات الله عليه برواية ولده الصادق عنه انّهُ قال مَن زعم بانّ الله يأمر بالسوء والفحشاء فقد كذب على الله ومن زعم انّ الخير والشرّ بغير مشيّة الله فقد اخرج الله عن سلطانه الحديث والقول الشارح المفسّر لهذا وغيره من الآيات التي ربّما ذهب الواهمون الى انها من المجملات كلامُ امير المؤمنين عليهِ السلام وهو الغاية في الباب روى السيد في النهج وثقة الاسلام في الكافي قال كان امير المؤمنين (ع) جالسا في الكوفه بعد منصرفه من صفين اذ اقبل شيخ فجثا بين يديهِ ثم قال له يا امير المؤمنين اخبرنا عن مسيرنا الى اهل الشام بقضاء من الله وقدر فقال له امير المؤمنين اجل ياشيخ ماعلوتم تلعه ولا هبطتم بطن واد الاّ بقضاء من الله وقدر فقال الشيخ عند الله احتسب عنائي ياامير المومنين فقال له مه ياشيخ فوالله لقد عظّم الله لكم الاجر في مسيركم وانتم سايرون وفي مقامكم وانتم مقيمون ولم تكونوا في شيء من حالاتكم مكرهين ولا اليهِ مضطرّين فقال الشيخ كيف لم نكن مكرهين مضطرّين وكان بالقضاء والقدر مسيرنا ومنقلبنا ومنصرفنا فقال له اتظنُّ انه كان قضاءً حتما وقدراً لازما انّهُ لو كان كذلك لَبطل الثواب والعقاب والامر والنهي والزجر من الله وسقط معنى الوعد والوعيد فلم تكن لايمة للمذنب ولا محمدةٌ للمحسن ولكان المذنب اولى بالاحسان من المحسن ولكان المحسن اولى بالعقوبة من المذنب تلك مقالة اخوان عبدة الاوثان وخصماء الرحمن وحزب الشيطان وقدرية هذه الامة ومجوسها انّ الله تبارك وتعالى كلّف تخييرا ونهى تحذيرا واعطى على القليل كثيرا ولم يُعصَ مغلوبا ولم يُطع مكرِها

ولا يُملّك مُفوّضا ولم يخلق السموات والارض وما بينهما باطلا ولم يبعث النبيين مبشرين ومنذرين عبثا ذلك ظنّ الذين كفروا فويل للذين كفروا من النار

ولمولانا الامام علىّ الهادي بن الجواد بن الرضا بن الكاظم بن الصادق سلام الله عليهم وعلى جدِّهم رسالة ليس عليها لطالب الحقيقة من مزيد جمعت فأوعت وتجلَّت نيِّرات الحقيقه بها فشعَّت وهي تكاد ان تكون مفرد كتاب في هذا الباب سلك بها مسلك الحجة والبرهان واستدلّ فيها على الاختيار بالعقل بعد السنة والقرآن وضمَّنها جملة شافيه من حديث آبائه اهل البيت سلام الله عليهم وكان كتبَها لشيعته من اهل الاهواز حينما سألوه عن تلك المسأله التي اخذت دوراً مهمّاً في تلك العصور (اوّلها)(١)

من عليّ بن محمد سلام على من اتّبع الهدى ورحمة الله وبركاته فانّه ورد عليّ كتابكم وفهمت ما ذكرتم من اختلافكم في دينكم وخوضكم في القدر ومقالة من يقول منكم بالجبر ومن يقول بالتفويض وتفرّقكم في ذلك وتقاطعكم وما ظهر من العداوة بينكم ثم سألتموني بيانه لكم اعلموا رحمكم الله انّا اذا نظرنا في الآثار وكثرة ماجاءت به الاخبار وجدناها عند جميع من ينتحل الاسلام ممن يعقل عن الله عزّ وجل لاتخلو عن معنيين امّا حقّ فيتبع وامّا باطل فيجتنب وقد اجتمعت الامة قاطبه انّ القرآن حقّ لا ريب فيه عند جميع الفِرق ثم ذكر سلام الله عليه مقدّمة شريفه اِستوسع فيها البحث الى ذكر القرآن وذكر اهل البيت وحديث الثقلين ثم تخلَّص بالطف اسلوب الى القصد — والتوفيقُ والظروفُ لاتسعف دعوتنا هذه بامكان نشر تلك الرساله بتمامها ولكنّا نلتقط منها بعض

(١) الرساله رواها الحسن بن علي بن شعبه في كتاب تحف العقول وهو من قدماء مُحدّثي الاماميه وثقاتهم

ما رواه عن آبائه الطاهرين سلام الله عليهم جميعا قال (ع) في اُخرياتها
وهذا القول بين القولين ليس بجبرٍ ولا تفويض وبذلك اخبر امير المؤمنين
عباية بن ربعي الاسدي حين سأله عن الاستطاعه التي يقوم بها ويقعد ويفعل
ويترك فقال له امير المؤمنين اسألك عن الاستطاعه تملكها من دون الله او
مع الله فسكت عبايه فقال له امير المؤمنين قل ياعبايه قال وما اقول قال
ان قلت انّك تملكها من دون الله قتلتك وان قلت تملكها مع الله قتلتك
قال فما اقول قال تقول انّك تملكها بالله الذي يملكها من دونك فان يملّكها
ايّاك كان ذلك من عطائه وان يسلبكها كان ذلك من بلائه هو المالك لِما
ملّكك والقادر على ما اقدرك اما سمعت الناس يسألون الحول والقوة
حين يقولون لا حول ولا قوّة الاّ بالله قال عبايه وماتأويلها ياامير المؤمنين
قال لاحول عن معاصي الله الاّ بعصمة الله ولا قوة على طاعة الله الاّ بعون
الله وروي عن امير المؤمنين حين اتاه (نجدة) يسأله عن معرفة الله قال
ياامير المؤمنين بماذا عرفت ربّك قال بالتمييز الذي خوّلني والعقل الذي
دلّني قال فمجبولٌ انت عليه قال لو كنت مجبولا ماكنت محموداً على
احسان ولا مذموما على اسائه وكان المحسن اولى بالّلائمة من المسيء فقلت
انّ الله قديم باقي وما دونه حدِث حايل وليس القديم الباقي كالحدث الزايل
قال نجدة اجدك اصبحت حكيما ياامير المؤمنين قال اصبحت مخيّرا فان
اتيت السيئه بمكان الحسنه فانا المعاقب عليها

اقول اماّ صادق اهل البيت (ع) فقد برخ به الخفا فكفى وشفى ولم يدع
على هذه الحقيقه من ستارٍ ولا غبار وقد طفحت كلماته الشريفه في هذا
الموضوع وفاضت وقد روى عنه حفيده الامام الهادي في تلك الرسالة
فاكثر وقال (ع) فانّا نبدء من ذلك بقول الصادق لا جبر ولا تفويض

ولكن منزلة بين المنزلتين وهي صحة الخلقه وتخلية السرب والمهلة في الوقت ومثل الزاد والراحله والسبب المهيّج للفاعل على الفعل فهذه خمسة اشياء جمع بها الصادق جوامع الفضل وسُئل هل اجبر الله العباد على المعاصي فقال (ع) هو اعدل من ذلك فقيل فهل فوّض اليهم فقال هو اعزّ واقهر لهم من ذلك وقال الناس في القدر على ثلاثة اوجه رجل يزعم انّ الامر مفوّض اليه فقد وَهن الله في سلطانه فهو هالك ورجل يزعم انّ الله عزّ وجل اجبر العباد على المعاصي وكلّفهم ما لا يطيقون فقد ظلم الله في حكمه فهو هالك ورجل يزعم انّ الله كلّف العباد ما يطيقون ولم يكلفهم مالايطيقون فاذا احسن حمد الله واذا اساء استغفر الله فهذا مسلم بالغ ثم اخذ الهادي سلام الله عليه في شرح تلك الجمله وتوضيحها والاحتجاج عليها حتى صيّرها اجلى في الافق من شمسه واقرب الى الانسان من نفسه على انّ لكل واحد من الأيمة الاثنى عشر (ع) مقالات ضافيه وكلمات شافيه في هذا الموضوع ابينُها واجلاها واوفرها واجلُّها ما اورد (كما عرفت) عن صادقهم صلوات الله عليهم فمن شرايف كلماته التي رواها في الكافي ولم تتضمنها تلك الرساله قوله (ع) في جواب من سأله عن الاستطاعه في حديث طويل يقول فيه

ان الله لم يجبر احدا على معصيه ولا ارادَ (اِرادة حتم) الكفرَ من احد ولكن حين كفر كان في ارادة الله ان يكفر وهم في ارادة الله وعلمه ان لايصيروا الى شيء من الخير قلت اراد منهم ان يكفروا قال ليس هكذا اقول ولكني اقول علم انّهم سيكفرون فاراد الكفر لعلمه فيهم وليست هي ارادة حتم انما هي ارادة اختيار ه والارادة في لسان حديث اهل البيت (ع) تطلق على معنيين الخلق والايجاد ثم العلم حسبما استقصيناه من احاديثهم فقوله (ولكن حين كفر كان في ارادة الله ان يكفر) من الثاني

لا الأوّل وقوله اخيراً (فاراد الكفر لعلمه فيهم) من الاول لا الثاني ثم اكَّده سلام الله عليه بقوله (وليست هي ارادة حتم) اي ليس هو خلق حتم عليه بل خلق اختيار يعني خلق للعبد ما اختاره العبد لنفسه فتدبر — نعم ولقد اوجز الامام عليّ بن موسى الرضا سلام الله عليهما فانبأ عن شاكلة الغرض ونفى الطرفين من الافراط والتفريط بكلمة واحده وهي قوله (هو المالكُ لِما ملَّكهم) فبقوله هو المالك نفى التفويض والعزله وبقوله (ملَّكهم) نفى الجبر في الجمله اعني ماهو محلّ النزاع لا من قبيل الموت والحياة والعمر وامثالها ممّا هو خارج عن قدرة العبد فقوله (ع) ملَّكهم اشارة الى تعيين محلّ النزاع والدلالة على الحق فيه وهذه الكلمه من حديثٍ رواه الشيخ الصدوق ابن بابويه في كتابي التوحيد والعيون بسنده الصحيح عن سليمان بن جعفر الجعفري عن ابي الحسن الرضا (ع) قال ذُكر عنده الجبر والتفويض فقال الا اعطيكم في هذا اصلاً لا تختلفون فيه ولا يخاصمكم عليه احد الاّ كسرتموه قلنا ان رأيت ذلك فقال (ع) ان الله عزّ وجل لم يُطع باكراه ولم يُعص بغلبه ولم يهل العباد في ملكه هو المالك لما ملَّكهم والقادر على ما اقدرهم فان ائتمر العباد بطاعه لم يكن الله عنها صاداً ولا منها مانعا وان ائتمروا بمعصيه فشاء ان يحول بينهم وبين ذلك فعل وان لم يحل وفعلوا فليس هو الذي ادخلهم فيه ثم قال (ع) من ضبط حدود هذا الكلام فقد خصم من خالفه وقد عرفت كيف ينبغي ان تضبط حدود هذا الكلام وكيف تكون الحجة به والخصام وظهر لك ان جميع ما ذكرناه مأخوذ منهم ووارد عنهم (ع) وانّهم ماتركوا شيئا من الحقّ الاّ وقد اوضحوا منهاجه وقوّموا اعوجاجه فالِى اخبارهم وآثارهم يا مُريد معرفة الحقايق وشهودها على اوساطها

وحدودها والى كلماتهم ونيّرات تعليماتهم ياطالب شُعَبِ العلم وفنون المعارف فوالذي جعلهم وجدّهم معادن حكمته وحُكمه وخزّان آياته وعلمه انّك لا تجدما يزيح العلّه ويبرد الغلّه الاّ في كلماتهم ورموز اشاراتهم فارجع اليها عساك تنتصف لهم وتنصفهم وتعترف بحقهم وتعرفهم فوالله ما اسوقك الاّ الى سعادتك ولا ادلّك الاّ على منفعتك والله واولياوءه اغنياء عني وعنك ولكنّه بعباده روءوف رحيم ﴿السابع﴾ ﴿في بيان فائدة التكاليف والدعوه والوعد والوعيد والترغيب والتهديد وتاثير السعي والجهد والطلب والجد﴾

لم يبرح عنك ماقدّمناه من انّ الاشياء الداخله في وجود الانسان كالعلم والقدره والاراده من جملة اسباب الفعل ومباديه التي يستحيل حصوله بدونها

وليس بعزيز عليك التّنبّه الى انّ تلك الامور ايضا اسباب ومبادي خارجيه كما ان هذه مبادٍ داخليه فالدعوةُ والتكليف والارشاد والتهذيب والتربية والوعد والوعيد امورٌ جعلها الله مهيّجةً للاشواق ودواعٍ الى الخيرات واكتساب الفضايل محرّضة على الاعمال الحسنه والعادات الحميده والاخلاق الجميله والملكات الفاضله تمهّد السبيل لصالح المعاش والمعاد وتُعِدّ الضمانة لسعادة الدنيا والآخره فان الدعوة والارشاد والتربيه تبعث الشوق وتحرّك العاطفه وتلبّد الاراده والشوقُ والارادةُ يبعثان على السعي والجدّ والتدبير والحذر وقد جعل الله في مُحكم قضائه وسابق علمه ان يكون الجد والسعي والحركة والعزيمة مهيّئةً لمطالبنا موصلة الى مقاصدنا مخرجة من القوة الى الفعل كامن كمالاتنا كما جعلها الله اسبابا مقترنا بها ما يصل الينا من ارزاقنا وما قُدّر لنا من معايشنا او لما يصرفه الله عنّا من المكاره ويدفعه عنّا من المضار وكلّ هذه الغايات لا تحصل لنا الاّ باجتماع كل هاتيك المبادي والوسايط نظرًا الى نواميس الكون الاوليه

لا الى النوادر وخوارق العادات فانّ لتلك ايضاسلسلة اسباب ومجارٍ
أُخر اذ من الجليّ انه لايحدث ممكن في الكون الاّ باسبابه وسلسلة علله
ثم انّ تلك الاسباب والوسايط من السعي والجدّ والنشاط واضدادها
ايضا واجبة لنا مقدّرة علينا ولكن سنخ وجوبها كما عرفت ليس تقدير
اجبارٍ وحتم بل على انها تقع باختيارنا وتنشأ من ضعف اوقوّة عزايمنا
التي يكون ضعفها وقوّتها في امكاننا واقتدارنا ولعلّ الى هذه المناحي
والمقاصد وقع الايماء ببعض الاحاديث الشريفه مثل قوله (ص) لمن سأله
هل يغني الدواء والرقية من قدر الله قال الدواء والرقية ايضا من قدر الله
ولماّ قال صلوات الله عليه جفّ القلم بما هو كاين الى يوم القيامه قيل ففيم
العمل قال اعملوا فكلٌّ ميسَّرٌ لما خُلق له ولماّ سُئلَ انحن في امرٍ فُرغ
منه او امر مستأنف قال في امر فُرغ منه وامر مستأنف[1] وبهذا يُعلم انّ
كل ما يصدر مناّ من الحركات والسكنات والسيئات والحسنات مقدّرة
لنا واجبة علينا لكن لا كما يظنه القاصرون ويزعمه الزاعمون من انّه لو
اراد ان يفعل غير ماصدر منه لم يكن له ذلك ولا كان قادرا عليه بل بمعنى
انّ وجوبها يكون باختيارنا وارادتنا ولو اردنا خلافها كان لنا ذلك كما
هو المحسوس وصدور هذا الفعل مثلا على هذه الكيفيّه هو المقدّر المعلوم
المكتوب كما قال جلّ شانه (و كلّ شيء فعلوه في الزبر و كل صغير
و كبير مستطر) وهذا النَّسخ والسطر الواقع في الذكر الاول قبل العمل
موافقٌ ومطابقٌ للنَّسخ الذي يقع مقارنا له وهي صحف الحشر والنشر

(١) لعل المراد بالامر الذي فُرغ منه ما اُحكم واُبرم في القضاء مماّ لا يُغيَّر
ولا يُبدَّل كالاجل المحتوم ونظايره والمراد بالمستأنف ما عدا ذلك مماّ فيه البدا
وعليه فلا شاهد لنا فيه بهذا المقام فتدبَّر

(و كل انسان الزمناه طايره في عنقه ونخرج له يوم القيمة كتابا يلقاه منشورا) (ونكتب ما قدّموا وآثارهم و كل شيء احصيناه في امام مبين (هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق انا كنّا نستنسخ ما كنتم تعملون) فصَفّ وهمك و لَطِّف فهمك واعرف ان كلّ تلك الكتب والكتابات مُعرّفات لسعادتنا اوشقاوتنا لا مُوجِبات هذا مِصاص القول وخلاصة الحقيقه وعليه فاحمل كلّ ماورد في كلمات صاحب الشريعه مثل قوله صلوات الله عليه (اعلم انّ الامـة لو اجتمعت على ان ينفعوك لم ينفعوك الاّ بشيء قدكتبه الله لك ولو اجتمعت عـلى ان يضـرّوك لم يضرّوك الاّ بشي كتبه عليك رُفعت الاقلام وجفّت الصحف) الى كثير من امثاله في الكتاب والسنة المقدّسين امّا الابتلاء والامتحان والتمحيص فهو اظهار ما كُتب علينـا في القدر وابراز ما أُودع فينـا وغرز في طباعنـا بالقـوّه وتلك الوقايع والحوادث والآلام والمصايب والتّكاليف الشاقه تنمية غروسنا وتربية بذورنا وتكميل استمدادنا وتحصيل ثمراتنا ولو لم نُبتلَ ونُمحَّص لما ظهرت تلك الغرايز والركايز التي في بذرة وجودنا ونُطفِ حياتنا مِمّا هو معلوم لله جلّ شانه بالفعل ومستودع فينا بالقوّه وكيف تحصل ثمراتهـا وتبعاتها مالم تنضجها الفواعل وتعمل فيها العوامل قال جلّ شانه (ولنبلونّكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين) وامثالها اي نعلمهم موصوفين بهذه الصفه بحيث يترتّب عليها الجزاء وامّا قبل ذلك الابتلاء فانّه جلّ شانه عَلمهم مستعدين للمجاهده والصبر صايرين اليها بعد حين والعلم لا يتبدّل ولا يتغيَّر وانّمـا التغيُّر في المِعلوم فتدبّر نعم واذا ضربت الفكر في اعمـاق قوله تعـالى شانه (ايطمع كلِ امرءٍ منهم اَن يدخل جنة نعيم كلاّ انّاخلقناهم ممّا يعلمون) يظهر لك في التكاليف سرٌّ عظيم وفلسفة جليله

والقصارى انّ التكاليف والعبوديه رياضات سريّه و معالجات قسريّه ومطرقة تمرّن عليها صلابةُ النفوس البشريه لا بل هي تربية إلهيه مهيّئة لانتقالها الى اسمى المقامات واسنى الكرامات — تلك النطفة المنويّه التي هي كأخسّ فضلات الانسان كيف ترتقي الى ان تصير عقلا قادسا وجوهرا مجرّدا وروحا مكرّما وخلقا شريفا كيف تعرج من الدرك الاخسّ الى مقامها الاقدس وتنتقل من تلك الخسّة والقذاره الى عالم القدس والطهاره كيف تخرج من طور الجماديه الى نشأةٍ ملكوتيه بدون التصفية والتهذيب والتربية والتشذيب وبعد التقلّبات الطويله والتنقلات العديده (ايحسب الانسانُ ان يُتركَ سُدى الم يك نطفة من منيٍّ يمنى) ولا تجد فرضا من فرايض الشريعة الاسلامية الاّ وهو لغاية اخلاقية ساميه وليست العناية والحكمة من كلّ تلك النواميس سوى الاخذ بالنفوس الى حدود الاعتدال وايقافها على اوساط الكمالات ومراكز محاسن الاخلاق غضّاً من جماحها وكسراً من سورتها واِستلانةً لشدّتها واستنزالاً لها من عروش كبريائها ونخوتها وتعويداً لها على كرم المساواة وحسن الصنيعه واِسداء البرّ وصنايع المعروف مما يكون داعية التعاطف والتآلف واِحكام روابط الوحدة الجنسية وابرام اسباب الاخوّة البشريّه واخذاً باتقن اصول الاشتراكية العامه والتسوية الصحيحة المؤسّسة على اشرف الاصول واقوى القواعد والقايمة على اقوم الدعايم وادعم القوائم التي لايجد العقل فيها بالوزن الدقيق انحرافا ولا حيفا ولا جنفا ولا فجورا ولا عهرا — لا الاشتراكية التي يحاولها اليوم بعض الامم التي هي (على الاغلب) على العكس من ذلك ولو صحّت المقاصد واخلصت النيّات وتجرّدت الاغراض لاجراءها هو الصالح للنوع البشريّ لتحزّبَ اولئك النفر للاخذ بالاشتراكية القرآنيه ونشر نواميسها

في المجتمع نظراً لتلك الغايات الشريفه طالما تساهل المسلمون فيها واستناموا عزايمهم عن القيام بها حتى كان ما ترى من امرهم وبلغوا الى ما تجده من تفرُّق جامعتهم والى الله الضراعةُ وعلى انفسنا اللايمه حتى نعود الى التمسُّك بتلك الاسباب المحكمة العُرى التي حفظتنا ردحا من الدهر وما حفظناها وانغمسنا في حمأة الضعة والخمول ضايعين حينما وضعناها واضعناها — هذا وكما انّ تشريع التكاليف والتعبدّيات انّما هو لتلك الغايات الشريفه والحِكم العاليه التي اَلمعنا الى اقل مراتبها وادنى مقاماتها فكذلك السعي والنشاط والجدّ والجهد والعزيمة والثبات والمداومة على الطلب قد جعلها الله جلَّ شأنه اسبابا للنَّجاح وقرن بها حصول الغايات المطلوبه في ساير الاعمال وصيَّرَها مجاريَ لرزقه وتوفيقه ومفاتيح لابواب رحمته فانّ العناية جلَّت حكمتها قضت وابت الاّ ان تكون الامور منوطة بالاسباب المتكانفه والوسايط المتراميه وان لا تحصل للانسان غايةٌ الاّ بالسعي اليها من ابوابها وجرِّها بسلسلة اسبابها فتراه جلّ شانه تكفَّل بالرزق وضمن لخليقته اقواتها باوقاتها ولكنَّه امر بالسعي وحثَّ على العمل للدنيا كما حثّ على العمل للآخره سواءً بسواء حتى ذكر جلّ شانه البطالة في معرض التعاسه والتنديد وضربها مثلا للتحقير والتنكيد فقال تعالى (وضرب الله مثلا رجلين احدهما ابكم لا يقدر على شيء وهو كَلٌّ على مولاه) ولمّا قال (رِزقكم في السماء وما توعدون) عقَّبهُ رفعًا لوهم انّه مسوق الى الانسان على رغم توانيه ونشاطه سعى اليه ام تقاعد عنه فقال في مقام آخر من تعداد مننه والطافه (هو الذي جعل لكم الارض ذلولا فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه) فقرن الرزق بالسعي في الارض التي ذلّلها للسعي والطلب واذا تصفحت الكتاب

والسنّة المقدّستين وجدت فيهما شواهد صدقٍ على ذلك لا تُحدّ ولا تُجحد وسيمرّ عليك كثير منها في غضون دعوتنا هـذه قصداً او استطراداً — ولا يصادم شيئاً من ذلك ما ورد من الحثّ على الزهد في الدنيا والرغبة عنها وهو الاكثر والاظهر على لهجة الكتاب الكريم ولسان السنة النبوية بل وكأنّ اليه القصد والعنايه وهو الاصيل بالبيان والغايه من البعثة والرساله ولكن الافهام والاوهام وبالأسف كأنّها قد حوّرته عن وجهته وحارت به عن قصده وخِطَّته واضاعت جوهر ما توعز اليه تلك العلاجات الناجعه والالطاف النافعه وبالعزيز على شرف الاسلام وشريعته وعلى رغم مُوحياتها المقدّسه ان يُفهم منها خلاف مناحيهـا الحيَّه ومقاصدهـا الجليَّه فانّ المراد بتلك العظات والآيات ان لا تركن النفوس الى الدنيا وتخلد اليها وتشتدّ علاقتها بزينتها وزخرفها حتى لا تحسب شيئاً من النعيم سواها ولا ترى منزلة من السعادة وراءهـا وليس المراد ان تركن الى البطاله وتخلد الى الكسل وتتقاعد ضاربةً بكفِّها على وجه السعي والعمل كلاّ ثم كلاّ وانما جوهر الغرض وغاية القصـد هو ما ذكرناه من انّ الغاية الفذّه من نواميس هذه الشريعة التي امتازت عن كلّ شريعة سواهـا هو تعديل النفوس ووضعها في حدّ الوسط من الكمالات (والوسطُ هو الكمال كله) يُراد من النفوس ان لا تتَّكل على القضاء والقدر وتتوانى عن العمل فيختلّ نظام العالم المبتني على دعايمَ — مِن احكمها الحرصُ وحبّ الاستكثار الباعثان على الجدّ والجهد ويتفرّع عليهما توسعة العمران وتمهيد الحضاره ثمّ تعديلاً لهذه الغريزه اَن تذهب بالانسان كلّ مذهب من الشرّ والجشع فتفوته السعادة الجوهريه والحيـاة الدايمه وهي الخير كله وما سواه مقدّمةٌ له استُصلحت تلك الغريزه بالتَّوكل على مسبِّب تلك الاسباب والاستعانة بهِ

والنظر في كلّ حركة ومسعاة الى انهُ هو الميسّر والمدبّر الذي اوجد كل سلسلة الاسباب والمسببات بل والسعاة اليها ثم هي بعد لم تخرج عن حيطة ملكوتهِ وسلطان مشيئته فلا يعتمد الانسان على سعيه كليّةً ويحسب انه الموءثر والموجد فيعزل الله عن سلطانه ويخرجهُ عن ملكوته ويبخسهُ حقّهُ ويسدّ على نفسهِ ابواب الطافه التي لا تتناهى فيسيء الى نفسهِ ويحجر عليها اقصى ما هي مستعدّة له من الكمالات ونيل الكرامات وفي ازاء ذلك ايضا لا يعتمد ويتّكل على القضاء والقدر وعلى ما في السماء من الرزق فيخالف سنة الله وكلمته الحسنى التي سبقت لعباده نظراً لهم ورحمة بهم من ربط الامور باسبابها ودخول البيوت من ابوابها فمن ابتغى شيئا وراء ذلك فاولئك هم العادون — هم الذين يخالفون حكمة الله في سابق علمه وازليّ تدبيره فالانسان حتمٌ عليهِ ان يسعى لكن متّكلا على الله لا على سعيه ناظراً الى انهُ تعالى هو الذي يسّره للسعي واوجد له الاسباب ومهّد له السُّبل واعطاه غريزة العقل والاهتداء اليها بتعليم خارجي او تنبُّه داخلي كما انّ من الحريّ بهِ ان يسعى للدنيا ولا ينسَ نصيبهُ من الآخره ولا يركن الى المتاع الفاني عاشقًا له هايمًا بهِ وايّ عناية وشفقة على الانسان ابرُّ وارحم بهِ من هذه التربية الحنون وهذه العظة البالغة — عظة الزهد في الدنيا وعدم الاعتداد والشغف بها — طالما انّ الله جلّ شانه والخلق جميعًا عالمون علما يقينيا لا يشوبهُ ريب انهم لا محالة مفارقون لهذا المتاع الزايل والحطام البايد والزخرف الغرور أفليس من عظيم الشفقة والرحمة بالانسان تعليمهُ وتقويتهُ على ان لا يعشقها حتى لا تشتدّ الحسرة والرزيّة عليه عند فراقها طالما هو مفارقها لا محاله فانظر هنا الى شرف شريعة الاسلام وانظر كيف جمعت من السعادة فاوعت واخذت باطراف الحكمة ونواميس

الاعتدال والصحة وحقٌ لها ان تكون خاتمة الشرايع بما انّها اكمل الاديان واتمّ المقوّمات والمسنونات الإلهية لصالح البشر — واذا احطتَ ببعض اسرارها علماً ووقفتَ على لمعةٍ من رموزها مستيقنا فاسجد صعقًا لانوارها شاكراً لالطافها مستسلما لحقيقتها ولا تذكر عندها يهوديّةً ولا نصرانيه ولا برهمية ولا مجوسيَّةٍ والله الموفق للسعي والوصول الى الحقايق لي ولك ان شاء الله وحينما عرفت ان الجدّ والسعي والطلب له مقامٌ من الاهمية في الشريعة الاسلاميه وانّهُ من نواميس عمارة العالم ولولاه لاختلّ النظام وبطل الأتقان والإحكام وانّ شيئًا من حديث القضاء والقدر والتّوكُل على الله والزهد في الدنيا لا يثّلُ شيئا من ذلك العرش ولا يصدم حاشيةً من ذلك الحصن المنيع فسوف يتجلّى لك خطلُ بعض الاقوال وخطأُ الخطوات عن مدرجة الصواب ومحجة الحقيقه وتودُّ ان لا يكون جرى قلم القايل بقوله

(جرى قلم القضاء بما يكون فسيّان التحرُّك والسكون)

بل و تَعدُّ ضربًا من الجنون قوله بعد ذلك

(جنونٌ منك ان تسعى لرزقٍ ويُرزقُ في غشاوتهِ الجنين)

وهو وان احسن شعراً ولكني احسبهُ اساء شعورا — افلستَ ترى ما افيلَ الحجَّه وافسد القياس واضعف البرهان — الستَ تعلم انّ الله جلّت حكمتهُ انّما رزق الجنين وهو في غشاوتهِ بلا سعي وطلب انما هو لانّهُ لم يملّكهُ بعدُ ادوات الطلب ولم يمكّنهُ من آلات الكسب وحاشا لعنايتهِ ان تضيع صنعا او تهمل خلقا او تكلّف محالا او شططا امّا الانسان فقد مكّنهُ وملّكهُ وقوّاه واقدره وسهّل السبيل له ويسّره ودلّه بغريزة العقل الداخلي والتعليم الخارجي على كلّ ما بهِ صلاحه وفسادُه وما يكمل ويهنا بهِ معاشه ومعادُه فكيف يصحّ القياس ويتمّ التمثيل ولكنّه شعرٌ والشعرُ الى تمثيل الصور

والاوهام اقرب منه الى تمثيل الحقايق على الاغلب وفي هذا مقنع و كفايه ان شاء الله
﴿الثامن﴾ في الاستعدادات واختلافها وتنوّعاتها — عساك في وهلة النظر
وبادي الامر تبادر في السوءآل انه اذا كانت الفضايل والرذايل والمحاسن والمقابح
والخيرات والشرور كلها مقدَّرةٌ علينا قبل صدورها معجونة فينا قبل وقوعها
تصدر عنا باوقاتها باختيارنا ودواعينا والمبادي المتيسِّرة لنا فما بالنا لا نتساوى فيها
ولا نتماثل ولا نتشابه ولا نتشاكل واذا كانت مختلفة باختلاف الطبايع
والغرايز والاصول والمعادن كما ورد (الناس معادن كمعادن الذهب والفضه)
عادت المحاذير ولم يكن فعل الحسن ولا ترك القبيح ولم يفضَّلِ السعيدُ
على الشقيّ لانّ كل امرءٍ حينئذ يجري على مقتضيات طباعه ونواميس كيانه
وضروريات ذاته التي لا يمكنه المحيص عنها ولا التَّفصي منها وقد قالوا (الذاتي
لا يتخلَّف ولا يختلف) وكيف العدل وقد جعل هذا شقيًّا وهذا سعيدا
وقبض قبضة وقال للنار ولا ابالي وقبض اخرى وقال للجنة ولا ابالي فاين
عدم الظلم الذي ذكره جلّ شانه لذاته المقدّسه في قوله (وما انا بظلاّم
للعبيد) (وما ظلمناهم ولكن كانوا هم الظالمين) فنقول هوّن ما شقّ
عليك واستمع لما نُلقيه اليك فانّ سرّ القدر وان كان لا ينبغي بل لا يجوز
الخوض فيه ولكنا نرى انّ ذلك مصروف الى الضَّعَفة والعُجَّز من الناس فانّ
خوض هؤلاء فيه نظراً الى قصورهم ينجرُّ الى ضلالهم وارتباكهم وتردّيهم
وهلاكهم والشريعة المقدّسة الاسلاميه ما حجرت كحجر غيرها على العقول
ولا سدّت كسواها على الافكار في ايّ مسئلة كانت وايّ نظريةٍ فُرضت
نعم هناك عويصات وملتويات لا يجد العقل لنفسه سبيلا اليها ويعترف
هو نفسه بالعجز عنها لا انَّ احداً صدّه او منعه دونها فالعقل في هذه
الشريعة المحمديّه له تمام الاختيار واحرى مبالغ الحريّه امّا هذه النظرية

الدقيقه فنتكلم فيهـا يسيرا على حسب مايتّسع له هذا الظرف وتحتمله البيئه ولا نُحمّل الظروف فوق وُسعها ولا انفسنا فوق طاقتها وعليه فقبل كل شيء يجدر بك ان تعلم انّ استعدادات البشر وان اختلفت اشدّ الاختلاف وتباينت ابعد التباين حتى لا تكاد تجدامرأين متساويين من كل جهه ولكن ما أُنيطت التكاليف به من الاستعداد لابدّ وان يكون متساوياً حيث تتساوى التكاليف بمعنى انّ الله سبحانه لا يعقد من اطواق التكاليف على اعناق البشر الاّ على قدر طاقتهم ومبالغ قوّتهم ويزيد تكليف كلٍّ وينقص على حسب زيادة استعداده ونقصه وقد تقدّم بعض هذا في اوائل هذا الجزء والذي نريد ذكره هنا من ذلك انّ في مرحلة التكاليف لا يتصوّر ولا يقع الاّ العدل والموازنة الصحيحه وليس فيها من مجال لذلك السوءآل كما هو بعد التنبيه عليه جليّ ظاهر

امّا في غير ذلك فالاستعدادات متنوّعه والحقايق مختلفه والارواح البشريه في فطرتها الأولى متغايره في الصفاء والكدر والضعف والقوّه مترتبة في درجات القرب والبعد ترتّب ضوء الشمس منها ومركّباتُ المواد الطبيعيه بحسب طباعها متباعدةٌ في اللطافة والكثافه ومزاجاتها متباينةٌ في القرب والبعد من الاعتدال الحقيقي فقابليّتُها لما يتعلّق بها من الارواح متفاوته وقد قُدّر بازاء كلٍ ما يناسبهُ فحصل من مجموع ذلك استعدادات خصوصيه مناسبة لبعض العلوم والادراكات والطباع والاحوال والمِهن والاشغال وذلك الاختلاف حصل من انحاء التركيبات الطبيعيه التي اقتضت صفات خصوصيه من الحدّة واللين والشراسة والدِعة والقوة والضعف والذكاء والبلاده والانحراف والاستقامه في ساير الغرائز والخلال ومن تلك الاختلافات التي في تراكيبها — حصل الاختلاف في الاميال والاشواق والعقول والارادات

الى انواع الاعمال والصناعات وانحاء العلوم والحرف والمهن والاشغال فنزع كلٌّ بطبعه الى عمل او علم ينفر او لا يميل اليه الآخر ويستحسن كلٌّ ما يستقبحهُ غيره وهذا من اعظم مظاهر العنايات الآلهيه واسرار الحكمة الازليه اِذا العناية اقتضت نظام الكون على احسن ما يمكن ولو تساوت الاستعدادات والاهواء والاميال والرغبات لاختل النظام وارتفع الصلاح العام ولفسد العالم وتلاشى من فيه فان بقاءهم طبقة واحدة على حالة واحده في مرتبة واحده يخلّ بصالحهم ويذهب براحتهم بل يأتي على وجودهم ويمحق روح كيانهم كما هو جليّ واضح غنيٌّ عن الشرح مع ما يلزمه من بقاء ساير المراتب في كتم العدم مع امكانها فكان حيفا عليهم وجورا لا قسطا وعدلا وبقي الاحتياج في العالم اليها وافتقاره عند عدمها اترى انَّ السوءآل بانه لماذا لم يكن السوقيّ ملكا والجاهل عالما والاميُّ كاتبا والبدويّ حاضرا والجندي اميرا والامير وزيرا والكاسب كاتبا والزارع حاطبا وهكذا الى غير نهايه هل هذه الاسئله الّا كالسوءآل بانهُ لماذا لم يكن البصل زعفرانا والشوك وردا والفحم عسجدا والكلب اسدا والحمار جملا وهلم جرّا كالسوءآل عن باقل لماذا لم يكن سحبانا والفقير كيف لم يصر سلطانا والشقيّ كيف لا كان سعيدا والشرير لِمْ لا خُلق خيِّرا والانسان هلاّ كان ملكا الى اضراب هذه المناحي المترامية الى غير امد — وهل الجواب عن كلّ ذلك الاّ واحد — وهو انَّ العناية لو صنعت ذلك لاضطرَّ السلطان الى مباشرة الكنس والحكيم المتألّه الى كل عمل نجس وعند ذلك لا يبقى التناسب على وِزان التماثل ولم يكن السلطان سلطانًا ولا الملك ملكا ولا الانسان انسانا وهل من اختلال في النظام اضرُّ واسوء من هذا ام هل يُعدُّ هذا في شيء من العدل كلاّ فانّ هذا هو الظلم بعينه والجهل بتمام حقيقته وما العدل الاّ

تعديل المواد والاشباح بحسب الصور والارواح ما العدل الاّ الموازنة والتناسب ووضع كل شيء في محلّه اللايق به ومقامه الذي ينزع اليه ما العدل الاّ تسوية الامزجة بحسب الانواع وتوزيعها على الاصناف والاشخاص وتكميل الحاجيات وتقويم اود الكلّ وصلاح حال الجميع على انّ كل تلك المعارضات مجازفات جليّه لدى اول نظرة فانّ السوءآل مثلا عن الانسان لماذا لم يكن ملكا والجنّ كيف لم تصر بشرا وهمٌ حايل وافتراض باطل لانه تسويل وتبديل في الحقايق ولو جاز التبدّل في الحقايق انقلب العالم كله الى الوهم ولم يبق في الوجود حقيقة راهنه ولا ذوات متعيّنه على انّ هناك نظرة اخرى في فساد تلك المراجعات حيث ان العناية قد اوجدت الملائك والبشر مثلا فالسوءآل عن كون البشر لماذا لم يكن ملكا يعود الى السوءآل عن انه لماذا اوجد الانسان لا انه لماذا لم يجعل الانسان ملكا والجواب انّ الملائكه قد اوجدتهم العناية على آخر ما في الامكان و الانسان ايضا حقيقة من الحقايق مستعدّة بحسب الامكان للوجود فعدم افاضته ايضا عليها بخلٌ وحرمان و المبدء الاول لا بخل فيه بل (اعطى كلّ شيء خلقه ثم هدى) هداه الى مقوّمات اوده ومتممات حياته ومكمّلات وجوده حسب استعداده اترى لو انّ مهندسا ماهرا بنى قصرا او دارا واعمل في صنعها كلّ حذاقته و لباقته حتى استكمل مرافقها ولم يدع جهة نقص فيها لوضعه كلّاً مرفق في موضعه المناسب له من تلك الدار حتى المطبخ والمستراح فهل يحسن مراجعته بانّه لماذا لم تجعل المطبخ حجره والاسطبل غرفه وهكذا وهل هو الاّ عين السوءآل عن انّه لماذا جعلتَ في الدار مطبخا واسطبلا ومستراحا على حين انّه لو لم يضع هذه المرافق في تلك الدار لما امكن الارتفاق بها والانتفاع فيها و لذهب عناوءه باطلا وسعيه هدرا فالمطبخ بالنظر الى نفسه وان كان حقيرا ولكنه بالنظر الى توقّف

الانتفاع بالدار عليه ومسيس حاجتها اليه يعدّ لازما كبيرا واذا نظرت الى مجموع هيئة تلك الدار وجدت كلاًّ بموقعه حسنا ولا يخطر على خالدك انّ الغرفة اولى من الصُفّه ولا الايوان اولى من غير مكان بل لكلٍ في مقامه وموقعه مقامٌ من الاهمية واللزوم والحاجة والاقتضاء يجعله في صفّ غيره وبازاء ماسواه نعم تفاوتُ الافراد انّما هو بالنظر الى مقايسة بعضها الى بعض واما بالنظر الى المجموع فالورد كالشوك والجامد كالمسجد والماء كالنار والنضار كالأحجار

واذا نظرت الكاينات باسرها كلاًّ بموقعه تراه جميلا

وكما لانعترض على المشوّهين في الخلقة انهم هلاّ كانوا بحسن يوسف وصورة بلقيس ونعذر البشر في اختلاف الاشكال والصور بحيث لايتشابه اثنان منهم شبها تاما فكذا يجدر بنا ان نعذرهم في اختلاف الغرايز والشمايل كاختلاف الاشكال والطبايع وساير الاميال والاهواء ونعرف انّ ذلك لامر ذاتي في اصل فِطرِهم وبدو تكوينهم ومزيج اسناخهم واصولهم وانّ هذا الاختلاف لابدّ منه في حفظ النظام الاتم والوجود الاكمل ولو تنازلنا الى تسليم كونه جورا في حق الفرد الخصوصي السافل (ولا نسلم) فهو عدل في حق النوع المتكامل ولا مندوحة للحكيم عن ارتكابه بمقتضى حكمته ولو كان من الممكن احسن من هذا الصنع وابدع من ذا الاختراع لَأوجده القادر الحكيم والجواد الغنيّ والفيّاض المطلق ومن هنا قالت اساطين الحكمه وكبراء الفلسفة (ليس في الامكان ابدع ممّا كان) اماّ سبيل الاحتراز عن المساوي والشرور والاهتداء الى سلوك سُبل الخيرات والمحاسن فتمام الحقيقة في ذلك انّ شريف النفس نجيب الاصل طيّب الجوهر اعني من كانت نفسهُ اشدّ صفاءً واقوى تجرّداً واقرب الى مباديها شرفا وفضلا فمثل هذا قلّما يهمّ بشيء ممّا ليس في فطرته ولا في

طباعه من الفواحش والرذايل لعدم المناسبة ولو هم بشيء من ذلك نادرا لاستيلاء داعية من دواعي وهمه وهواه او هيجان من شهوته او غضبه زَجرَه في الحال زاجرٌ من عقله وهداه وملكوت ضميره ووجدانه واذا كان دون ذلك من صفاء الاستعداد ونقاء الجوهر فاذاهمَّ بوهمٍ لم ينزجر الاّ بزاجر خارجي من شرع او سياسه اوناصح او مربّي اماّ اذاهمَّ بشيء من المحاسن مما هو في فطرته وجد باعثا من عقله ودرايته وناصرا من توفيقه وهدايته فيميل اليهِ شوقا وشغفا لمناسبته اياه وهكذا حسب الحظّ من سلامة النفس وصفائها اماّ خسيس النفس خبيث الجوهر رديّ الاصل من مزيج عناصره ومختلطات طبايعه فبالعكس يندفع الى الشرّ والسوء بطبعه ويميل الى الخبيث من تلقاء ذاته لمناسبته ذلك ولا يندفع الى الخير الاّ تكلُّفا وتطبُّعا مع كثير من الدوافع الخارجيه من داعٍ ومرشد وواعظ ومسعد وكل تلك الافعال المستنده الى الشهوات والاميال المنبعثة عن الاستعدادات الخصوصيه لم تصدر الاّ عن اختيار وقدرة على الطرفين وانّما الاستعدادات ترِجح احد الطرفين في تعلُّق الاراده لا انها توجبه ومن اجلى الضرورات بداهةً انّ تعلق الارادة بشيء من فعل اوترك لا تصير ضدّه ممتنعا عليه غير مقدور له وكما انه لا يصدر الاّ عن اختيار فكذلك لا يُواخذ به الاّ بعد اتمام الحجّة والاعذار والانذار ولكن كلٌّ يفعل ما يشتاق اليه بطبعه ويميل اليه من جرّاء مناسبته وان كان قد يعلم انّ خلاف فعله هذا اجود واحسن ولكن طبعه يمجّ الحسن ويجد انّه يضرّه (كما تضرّ رياح الورد بالُجعل) هذا خلاصة النظر في الاستعدادات التي عرفت اختلافها بالنظر الى ساير الاشياء سوى التكاليف فانّ عامة المكلفين يتساوى استعدادهم بالنظر الى التكاليف العامة والنواميس الأولى وشعاير

الدين الضروريه فاذا اختلفوا اختلفت ايضا كتساويهم في مناط التكاليف
وهو العقل وتلك المرتبة التي يلزم تساويهم بها لصحة التكليف نسميها
بالعقل المشترك ثم التزايد فيما عدا ذلك اما حديث القبضة فلا بدّ من
تأويله ككل دليل خالف بداهة العقل وهو محمول على مراتب العلم وانّه
جلّ شانه علم باختيار هوءلاء طريق الضلال الموءدي بهم الى النار
فخذلهم وتركهم للنار ولم يُبال وعلم باختيار اوائك لطرق الرشاد الموءدي
بهم الى الجنة فابقاهم لها ولم يبال اماّ حديث السعادة والشقاوه فقد كُشف
لك عن بعض القول فيه وسيكشف لك عن باقيه الامر

﴿ التاسع ﴾ ﴿ في السعادة رزقنا الله ﴾ ﴿ والشقاء اعاذنا الله ﴾

اطنب الباحثون من الحكماء وجهابذة الفلسفة وغيرهم من الاسلاميين وغيرهم
عن هاتين الكلمتين وما ينطويان عليه ويوعزان اليه وكلٌّ ابدى وجها
واستصوب نظرا وسَرَد بيانا وهم على اختلاف العبارات يترامون الى معنى
واحد ويحومون حول حقيقة واحده ونحن في مشيَّة الله عسى ان ندلّك على النقطة
المركزية التي يستديرون عليها وبيت الكعبة التي يطوفون حولها

انَّ من يتدبّر في سبر صحيفة الكون وسير عوالم الشهود ويمعن النظر في
الكواين من حقايق الوجود يجدها لا محالة بين ثابتات قارة في ظاهر العيان
وسيَّالات نامية ٍ متحرِّكة طبق حركة الزمان ويجد هذا الفريق منها لا يزال تحت
عوامل التجدّد والحدوث والنشو والنموّ والانتقال من حال الى حال
فهو على صِفة كمِّيَّة غير مجتمعة الاجزاء في الوجود مركبة القوام من قويً
وفعليَّات متتاليه كلّ قوّة هي فعليَّةٌ لما قبلها وقوّة لما بعدها وهكذا يترامى
الكاين في معارج تلك الصور والنشآت حتى يصل الى فعلية اخيرة ليس وراءها
اصورتهِ النوعية من فعليه اذا القيتَ حبة قمح في ارض صالحة مستعدّه

اخذت تتطوّر في اشكال مختلفه وفعليات متنوعه بعـد خروجها اولّ يومها من الجمادية الى النباتيه وذهبت في نشوها ونموّها الى غاية من الارتقاء تقف عندها بل تأخذضدّها معرِجةً على التنازل في درك الانحلال والتلاشي والاضمحلال وتتفرّق موادّها وتنحلُّ اصولها وترجع الى جماديّتها الأولى وتعود هشيما تذروه الرياح فذاك صعودها وهذا هبوطها — وتلك الفعلية التي ابتدأت بالانحلال منها — هي غايتها التي كانت تسير اليها وثمرتها التى تُرتجى منها وازهى أُويقات زهوها وانتعاشها وابلغها قوّة واشعلها غريزة واتمُّها دفعا لثمرة وهذا يختلف في الافراد والاصناف على تقاربها ووحدة حقيقتها اشدّ الاختلاف الذي يتحصل بين متباينـات الحقيقه ولكلٍّ من التربة والماء والهواء والجوّ والاقليم والزارع والحرث والبذرة وساير شؤون الظروف اعظمُ دخل وتاثير في حسن نمائها ووفور ريعها وضخـامة سنبلها وجودة حبِّها وطيب طعمها وساير الكمالات الممكنة الوقوع في نوع هذا النبات اعني مطلق نوع القمح مثلا والفردُ الذي سـاعدته العناية وساقت له كل ما هو دخيل في تحسين حاله وبلوغه كل صفـات كماله ومنتهى ما يُراد منه وما يمكن ان يتحصل في نوعـه من دواعي الطلب وبواعث الرغبه ومواد النفع ومخايل الخير مع افتقاد كل صفة رديّه ومنقصة عرضية او طبيعيه من العيوب الممكنة في ذلك النوع ايضا فذاك الفرد هو السعيد في نوعه الكامل في حقيقته البالغ غاية ما يستعدُّ له نوعهُ من الكمال وخلال الخير ومآثر الوجود ثم تتناقص مراتب الافراد وحظُّها من السعادة بحسب تباعدها وتقاربها من تلك المرتبه وبازاء كلّ مرتبة من السعـاده مرتبةٌ من الشقاء تقابلها حتى تنتهي الى مرتبة الشقاء المحض (والعياذ بالله) وهي التي توازي وتقابل تلك المرتبة العليا من السعاده — تلك السعادة الصُّراح

التي لايشوبها شية شرّ ولا يدخلها شقّة شقاء فكل مرتبة على حكم التقابل – تناظرها مرتبة بقدرها من ضدّها – فلكلّ آدم ابليس ولكلّ موسى فرعون ولكلّ عيسى قيصر ولكلّ محمدٍ ابو جهل اذاً فلو اردنا ان نعبّر عن السعادة باقرب قولٍ يشفُّ عن روحها ويكشفُ عن جوهر معناها لقلنا ان سعادة كل كاين هي بلوغه منتهى كماله وغاية فعليته واتمّ انحاء وجوده بحسب نوعه فهي غايته المطلوبه و كماله الاخير وفعليته التامة من مجموع ما لنوعه من الاستعداد وهذا سارٍ في جميع الكواين ولكنّها على عزّتها وندورها في كافة الموجودات هي في الانسان اندر واعزّ وكما انّ لساير الشؤون والظروف دخلا كبيرا وتأثيرا عظيما في حصولها لكل كائن متحرّك او ساكن والانسان على الأخص فانّ للعنايات والمساعدات الالهيه في طيب الجوهر ودماثة التربه وصحة المنبت وسلامة البذر كذلك اعظم تاثير واكبر مدخليه وكما ان الانسان اشرف الموجودات وسعادته اكبر السعادات فكذلك هي اصعب واعز واشذّ واندر من كل سعاده اذ لا تكاد تجد تحت الاثير موجودا اشدّ منه تركيبا واكثر امتزاجا واعند عناصرا وابعد طبايعا وانفر خلايقا مع ما يعتوره من عوامل الكون وفواعل الحدثان وتأثير النشأة والتربية والمجاورة والصحبة الى مالا يحيط به الفكر ويستحضره الذهن ومن جراّء ذلك كلّه تعسر بل تعذّر على الدهر ان يسخو في البرهة بعد البرهه والاحقاب بعد الاحقاب بانسان كامل بحقيقة الانسانيه بالغًا من هذا النوع الغاية من مراتب الفعليه – عزّ على الاحقاب والدهور ان يتسنّى لها الظفر بهذا الخطر الشاسع والعِلق النفيس والجوهر اليتيم والاكسير الخطِير وبعد ان عزّت على الدهر وابنائه وامتنعت تلك المرتبه الاّ لمن شاء الله من رجالٍ

قلّوا نفرا وعظموا في الكون اثرا — صارت العنايات والظروف والمساعي والهمم وكلّ المؤثّرات تهب لكلّ انسان حظّاً من السعادة وتخوّله نصيبا منها قليلا او كثيرا جليلا او حقيرا فسعادة كل انسان اذاً لا محالة ممزوجةٌ بشقاء محفوفة بعناء وبمقدار نقص حظّ الانسان من السعادة يكون حظه من الشقوه وبين اقصى الطرفين من محوضة السعادة وصرافة الشقاوه عرضٌ عريض وفسحةٌ شاسعة ومراتبُ بحسب الوجودات غير متناهية ويعسر بل يمتنع الاحاطةُ بها على تفاصيلها واطباقها لغير موجدها وخلاّقها نعم بمعونته تعالى واستمداده قد يتسنى لنا ان نشير الى امّهات مراتب السعاده واصولها وانواعها على ضابطة اجماليه وتقاسيم كليه ومنها تُعلم مراتب الشقاء (اذ بضدّها تتبيّن الاشياء) ونحن لا ندّعي الحصر والاحاطة كلاّ ولا بكلياتها ولكننا نملي ونسطر ما يحضر على الفكر في بادهته ويجرى به اليراع على ترسّله ولعلّ وراء ذلك شيء كثير امّا السعادات فهي اولاً بعد ان عرفت انها الوجود الكامل في ايّ نوع اعني اكمل وجوداته وهي السعادة المطلقة او كمالٌ وجوديّ في ذلك النوع حيث تكون ناقصة مقيّده قسمان سعادة «دنيويه» وهي الفعليّة من الكمال النسبيّ الذي يكون الغاية فيه موقّته والمنفعة فيهِ محدوده «واخرويه» وهي الكمال الذي لاتحدّ منفعته ولا تقيّد بامدٍ غايتُه والدنيوية ايضا قسمان «بدنيّة» كالصحة والاستقامه واستدامة العافية والسلامه ووفور القوّة والايد ومباعدة العجز والوهن «وخارجية» كنعمة المال والاولاد والازواج والعزّ والجاه وشرف الآباء والعشيره وكلّ ما ينتظم بهِ المعاش وتحسن بهِ الرياش ومـا ينعطف على ذلك النسق من حكومات وامارات ومناصب ووِسامات وغيرها من الاعتبارات الموهومه والخيالات المتصورة انّها هي الوجود — وما هي الاّ اوهامٌ معدومه

والاخروية ايضا قسمان «علميه» كاصابة الحقايق وتعرّف المعارف والتحقق وجودا بالجوهريّات والتعلق والملابسة بالمبادي العاليه «وعمليه» كالسير على سنن الشرايع المقدّسه وتطبيق الاعمال والحركات والتقلبات والتصرفات على النواميس الآلهيه والاخذ باحسن ما يسمع قولا وفعلا وكفّ الأذى والشر عن كل خليقة الله وحبّ الخير لهم واسدائه اليهم حسب الجهد والاستطاعه وكما انّ الحسن والجمال من عوارض القسم الأول من الدنيويه اعني السعادة البدنيه فكذلك الاخلاق الجميله والفضايل الكامله والنعوت العادله والملكات الفاضله كلّها من عوارض القسم الاول من الاخرويّه اذ لا نعني بالاخرويّه كما عرفت الّا ما ينفع ويدوم من مكتسبات الانسان في دنياه او موهوباته اريد بالاخرويّ ما لا تحدّ منفعته ولا تتلاشى غايته وان تلاشى الهيكل وزالت البُنية وانهدم المسكن وتجرّد الساكن محلّقا في طيرانه الى حيث يعلم الله

فهذه امهات انواع السعاده ودعايم اصولها على وجه كليّ ولكلّ واحدٍ منها عرضٌ عريض ومراتبُ لا تتناهى وفي ازاء كل مرتبة من السعاده من الامهات والفروع مرتبةٌ تقابلها من الشقاء كما عرفت فالشقاء ينقسم بانقسام السعاده في جميع المراتب — قيل لامير المؤمنين (ع) صف لنا العالم فوصفه فقيل له صف الجاهل فقال قد فعلت — والتقابل بين السعادة والشقاء تقابل العدم بالملكه فان السعادة سِعةٌ في الوجود والوجود كما قالوا (خيرٌ محض) والشقاء عدم كمالٍ عن موضوع قابل له والعدم هو الشقاء وهو (شرٌ محض) ثم انّ هذين الجوهرين كسبيّان وذاتيان اعني انّ كل واحد من السعاده ونقيضها يتحصل من امور ذاتيه غير اختياريه وامور كسبية اراديه وهما ثابتان للموجود ازلا وابدا مخلّدان معه

دائماً وسرمداً بل هو نحو وجوده وجوهر كيـانه فهو ثابت بثبوته معلوم مع علمه حتى قبل وجوده ولعـل الى ذلك الاشاره في الحديث المستفيض (السعيد سعيد في بطن امّه والشقي شقيّ في بطن امه)[١] ثم لو اردنا ان نقول بقول كلي انّ اصول السعادة والشقاء تنبعث من اصلين آخرين وهما العلم والجهل وتختلف شدة وضعفا وتنقسم فروعا واصولا بحسب اختلاف العلم والجهل وانقسامهما وتتفاوت مراتب ذينك باختلاف مراتبهما لما كنّا مباعدين عن الحقيقه ولا منحرفين عن جادة الصواب كما انّ اكثر السيئات واكبرها يتبع الجهل واتمّ الحسنـات واعظمها يتبع العلم بل هو الحسنة الكبرى والنعمة العظمى رزقنا الله العلم من فضله وجعلنا من اهله وهو الذي يحصل به الاختلاف في معارج الفضـل ومدارج القرب والبعد وتتفاوت به منازل المقرّبين وحظاير الروحانيين امّا العقل الذي هو مدار التكليف في الكل فهو واحد على تباعد درجاتهم في السعاده وتباينهم في الذكاء والبلاده وهو القدر المشترك في العقلاء اي ما يسمّى به الانسـان عاقلا ولهذا كُلِّفوا بتكليف واحـد وما عِلمهم بعلم واحد ولا هم في الفضل والعلوم برتبة واحده فانّ الترقي في العلوم امرٌ وراء التكاليف واختلافهم هذا في العلوم

(١) وبهذا ورد حديث اهل البيت في كتاب التوحيد للصدوق بسنده الى ابن ابي عمير قال سألت اباالحسن الكاظم موسى بن جعفر عن معنى قول رسول الله صلوات الله عليه (الشقي من شقي في بطن امّه والسعيد من سعد في بطن امّه) فقال الشقيّ من علم الله وهو في بطن امه انه سيعمل عمل الاشقياء والسعيد من علم وهو في بطن امه انه سيعمل عمل السعداء قلت له فما معنى قوله اعملوا فكلٌّ ميسر لما خلق له فقال ان الله عزّ وجلّ خلق الانس والجن ليعبدوه ولم يخلقهم ليعصوه وذلك قوله تعالى ماخلقت الجن والانس الا ليعبدون فيسّر كلاّ لما خلق له فالويل لمن استحب العمى على الهدى ه انظر ما اشرف هذا البيان واعلاه فتدبّره تجد فيه كنزا من المعارف وكذلك ساير احاديثهم سلام الله عليهم

كاختلافهم في الاعمال (ولِكلٍّ درجاتٌ ممّاعملوا) فمن حُجب عن بلوغ الغاية التي يقتضيها استعداده الخصوصي وهي سعادته الخصوصية لا سعادتهُ بحسب نوعه[1] وكان تأخره عنها لتقصير وتوانٍ منهُ كما هو الاغلب او ارتكاب اعمال تنافي حصولها كما هو الغالب ايضا فلا محالة يعذّب تعذيبا يناسبه بحسب حرمانه عن بلوغ مرتبة امكانه او تدركه عناية خاصه تخفِّف عنه وطأة هذا العذاب واماّ الواصل الى ما امكن له وهُيّأ في استعداده من السعادة فهو الناجي والمنعَّم وان كانت سعادته ادنى وادون من كثيرٍ من السعداء واسفل مرتبة منهم فانّ ذلك لا يكون موجبا لحسرته وعذابه اذ هو لا يدرك كنه سعادة مَن هو اعلى منه وحيث لا ادراك فلا ذوق وحيث لا ذوق فلا شوق وحيث لا شوق فلا عذاب ولا حسره وإن هو الاّ كفاقد حاسة الشم المدفوع عن التمتع بنعمة كبرى من نعم الوجود وهي التلذُّذ بشمّ اريج الازهار ونفحات الورود وما يوازيها او يفوقها من ساير الروايح العَطِره والنوافح المسكيَّه ولكن ذاك الذي ما احسّ بها ولا ادركها مدة عمره لا يجد شيئا من العذاب بفقدانها ولا يرى النعيم الاّ التمتُّع بما عداها من الحواس نعم وكلّ ما ذكرناه من مراتب السعادات واضدادها انّما هو بقدرٍ وَجبَ باعتبار وامكن باعتبارٍ آخر فلا ينافي

(١) من هنا يبدو لك نحو تقسيمٍ للسعاده امام تقسيمنا السابق حيث نقول السعادةُ امّا نوعية او فرديه والاُولى هي مجتمع اقصى ما يمكن من الكمالات لذلك النوع في فرد منه وهذه المرتبة خاصه تحت امتياز اشرف الموجودات واكمل الممكنات وافضل الكاينات وهو روح القطب الحقيقي المطلق والمرتبة الختميه والنفس المحمديه صلوات الله عليها لا القطب الاضافي بحسب كل وقت كساير الانبياء (تلك الرسل فضَّلنا بعضهم على بعض) والسعادة الفرديه هي بلوغ الفرد الى ما هو مستعدٌّ له بحسب ذاته وبيئته من الكمال ثم الفرديه امّا دنيويه او اخرويه الى آخر ما ذكرنا

كونه بالاختيار — ثم لا يذهبن عنك انّ السعادتين الدنيويه والاخرويه متلازمتان اشد التلازم مرتبطتان باقوى عرى الربط وقد ذكروا انّ الانسان ما دام انسانا فلا تتمّ له السعادة الا بتحصيل الحالين جميعا وهما الفضايل الجسمانيه والفضايل الروحانيه نعم فانّ العناية الأُولى حيث جعلت الكمال في الانسان تدريجيّ الحصول وانشأت النفس الناطقه على نعت انّها جسمانية الحدوث روحانية البقاء لا جرم كان البلوغ الى سعادتها الروحيَّه موقوفًا على مبادٍ كثيره وطيّ بواد فسيحه لا يتيسَّر للانسان وصلها وقطعُها ونشرها وطيُّها الاّ باستكمال ادواته وصحة آلاته وسلامة مركبه وساير مقدّماته ولا ينافي ذلك انّ الساير بعد الوصول الى الغايه والنزول في المنزل ينبذ تلك الادوات ويستغني عنها ولا تكون من سعادته هناك في شيء فانّ تَيَسُّرَ الطريق الى السعادة من اعظم السعاده وهي ضرورية في حصولها وان لم تكن من الحقيقيه بصفة دايميَّه وقد ذكروا انّ اوّل مراتب السعادة ان يصرف الانسان اراداته ومحاولاته الى مصالحه في العالم المحسوس من امور النفس والبدن وما يتصل بهما ويشترك فيهما من الكيوف النفسيه والنعوت الجسديه وهو في هذه المرتبه لا يخلو من التلبُّس بالمحسوس من الماديات وعلايق الاهواء والشهوات ولكن يلزم ان يكون ذلك على قدرٍ معتدل وعلى مثل هذا أطردوا الكلام في باقي المراتب فعرّفوا الغايات بالمبادي وعبَّروا عن السعادات بمقدّماتها واسبابها وعلى مثله جروا في ذكر الاخيرة من مراتب السعاده حيث قالوا هي ان تكون افعال الانسان كلها افعالاً الهيه وهذه الافعال هي خير محض والفعل اذا كان خيرا محضًا فليس يفعله فاعله من اجل شيء آخر غير الفعل نفسه وعند ذلك تموت وتنهدر ساير دواعي طباعه البدني بساير عوارض

النفسين البهيميّين والتخيّل المتولد عنهما الى آخر ما ذكروا في هذه المنزلة العصماء والمرتبة القصاء — والذي اراه انّ كون افعال الانسان على تلك الخاصة والصفه انما هو من آثار السعادة وثمراتها ولوازمها ونتاجاتها لا هي نفسها وما هي الاّ وصول الموجود الى اقصى مرتبة من الكمال ميسّرة له او مستعدٌ هو لها بعموم نوعه او بخصوص ذاته فاذا بلغ هذه المرتبة ترتّب عليها ذلك الاثر الذي ذكروا ولكن الذين نهجوا ذلك السبيل في هذه المباحث هم جهابذةُ علم الاخلاق وتلك الطريقة من المعاني والتعاريف هي بفنّهم اشبه والى موضوع علمهم اقرب فتلك اخلاقيه وطريقتنا فلسفيه (ولكلٍّ وجهةٌ) «والغاية» انّ منتهى مراتب السعادة للانسان ان يحي حياة لا موت بعدها ويصحّ صحة لا سقم معها ويقدر قدرة لاعجز فيها ويغنى غنىً لا فقر معه ويبتهج بهجة لا حزن معها ويلذُّ لذّة لا انقطاع لها ولا فتور فيها ويقوى قوّةً لاضعف بها ولا آخر لاوّلها — وباوجز لفظ — ان يصير الانسان خيراً لا شرّ فيه ووجودا لاعدم معه وليس هذه الحياة والنشأةُ من خصايص دار الحَيوان كما قد يقال بل هو من الممكن الجايز حتى في دار الموات وذلك فيما لو تحقّق التخلّق لاحد باخلاق الروحانيين ومات حيًا بالاختيار واختار ان يحي ميّتًا بالطبيعه — ودون ذلك عقباتٌ ومراتب — حظُّ الانسان منها حظُّه من الاعتدال والاستقامة ولعلك وقفت على ما قدمناه في اوّل هذا الفصل من تقاسيم العدالة ومراتبها ولا ريب انّ تطبيق العمل والاخلاق وحركة الافكار والمعتقدات على نواميس العدالة هو اكبر مادة واغزر منبع واوفر استعداد للسعاده بل لعلّه السبب الوحيد لها ويعبّر عن جماع ذلك كله في لسان الشريعة بالتقوى ولعلّ الشاعر انتشق شميما من تلك النفحه فاصاب ثغرة الحقيقة الراهنه في قوله

(واست ُارى السعادةَ جمع مالٍ ولكنَّ التقيّ هو السعيد)

وحيث بلغنا الى هذه الغايه فبالحريّ ان نقف عليها ونجعلها خاتمة ما اردنا بيانه من تلك الامور راغبين الى وليّ السعادة ان يختم لي ولك بها ايها الناظر الكريم وان يعمّنا واياك ذلك الفوز والنعيم ان شاء الله

وعليه فنعود الى تكملة ما دخلنا فيه ولم نستوفه وابتدأنا بهِ ولم نبلغ غاية ما نتوخّى منه وقد جرّنا الكلام الى سلوك اودية سحيقه والخوض في تيّار لججٍ عميقه ليس المعوّل بالخروج منها على صحةوسلامة الاّ على الله جلّ شانه والطافه الخفيه — وكان الاصيل بالغرض الذي خرجنا منه الى كلّ تلك المباحث هو انّ العقل كساير القوى يدرك حسن الافعال وقبحها مع قطع النظر عن ساير الجهات من شرع وعرف اوعاده سوى ما عرفت من الملايمه والسنخيةوالاشتراك في جهة الخيريه ، وسعة الوجود ولذا كلّما اتّسع وجوده واشتدّت خيريّتهو كماله اشتدّ ادراكه لحسن الافعال وقبحها حتى ينتهي الى اكمل العقول واشرفها وهو العقل المحمديّ ومرآةُ العلم الاحدي ثم تتنازل في قوّتها و كمالها على حسب ماشاءت لها العنايهوقضت لها به الحكمه واسعفتها به الظروف والمراكز وكلٌّ يدرك من حسن الاشياء ومنافعها في نظم الكون ومسيس الحاجه اليها في نسق العالم على قدر ما عنده من الصحه ، وما اُوتي من تلك الموهبة والمنحه ، فعدمُ وصول اكثر العقول الى مصالح اكثر الافعال ومحاسن عامة الاعمال ككثير من الموظّفات الدينيه ، واحكام الشرايع والنواميس الالهيه ، بل كاكثر الحوادث الكونيه ، ليس لخلوّها عن جهات المصالح ، والمحاسن او المقابح ، بل لقصور عامة العقول عن ادراكها ، وتحصيل ملاكها ، امّا العقول الشريفه فهي عليها مُشرِفه ، ولهابتلك الجهات تمام العلم و كمال

المعرفه ، نعم ساير العقول المتعارفه تشترك في معرفتها على الجملة لا التفصيل مذعنة بانّ جميع ما احكم ذلك المدبّر الحكيم في الاكوان ، وما حكم به في نواميس الشرايع والاديان ، كله لا يخلو من حكمه ، ولم يقع حيف في القسمه ، لتنزهه عن الجهل والجزاف والتهمه ، (التوحيد ان لا تتوهّمهُ والعدل ان لا تتّهمهُ) ومن هنا صارتِ المدركات العقليه ، بحسب القسمة الحاصره رباعية ، إذ مطاق العقل بالنسبة الى مطاق الافعال امّا ان يدرك على التفصيل حسنها اوقبحها او خلوّها من الجهتين او لايدرك شيئا من ذلك والُمدّعى هو الايجاب الجزئي دفعًا لدعوى الساب الكليّ لا الايجاب كليًا وعلى هـذا الاصل الاصيـل والمبحث الجليل ، اعني مبحث الحسن والقبح العقلين قد بنت الامامية ُ جملةً من قواعدها في الاصولَين كقاعدة اللطف التى هي من امّهات المسايل العقليه ، المتفرع عليها جملة من الاصول الأعتقاديه ، وستمرّ الاشارة والتنبيه على كثير منها ان شاء الله وكقاعدة الملازمه المبحوث عنها في اصول الفقه وكقاعدة امكان الأشرف الموروثة عن اساطين الحكمه وكقاعدة عموم الفيض المرموز اليه بقول بعض الأساتذة من قدماء الفاسفه (انّ ترك الخير الكثير لاستلزامه الشرّ القليل شرٌ كثير .) وبهذا تنحلّ الشكوك والشبهات في وجه وقوع الشرور في العالم وصدورها من الخير المحض . وبالجمله فالتعداد يطول . والتطويل فضول . وسدّ باب الحسن والقبح سدّ لجميع الامور العقليه . وإيقاف عن كافة الاصول الاعتقاديه . كما ظهر لك ذلك وسيتضح لك قريبا بما لا مزيد عليه بحيث تسمح لنا بالعذر في اشباع الكلام في هذه المسأ ويحسن عندك خروجنا فيها عن خطة هذه الرساله . من الالتزام بالايجا وعدم الأطاله . على ان كل واحدة ممّا استطردناه فيها من المسايل ه

بذاتها مسألة مُهمَّة . ذات فوايد جمَّه . كانت حريّةً بالبيان . جديرة بان نفردها بالعنوان فالتعرّض لها بذاك القدَر وان كان قايلا . لم يكن بفضل الله الاّ جميلا . وحيث بلّغنا الله بمنّه اقصى الغرض من اثبات هذا الاصل الذي عرفت مزيد الأهتمام به وعظيم ما يتفرّع عليه فلنرجع الى اشرف فروعه التي تبتني وترجع اليه الذي عُقد هذا الفصل له بالاصالة وهو العدل الذي تقول بثبوته وتحققه فيه جلّ شانه عامة الأماميه بل قاطبة الأمة الاسلامية عدا من عرفت فنقول انّ خلاصة القول هنا على طرز آخر من البيان انّ كل فعل عرضتهُ على العقل فامّا أن يتنفَّر منه ويستكرهه اولا والاوّل هو القبيح والثاني الحسن بالمعنى الاعمّ اعني ما خلا عن النقص والمفسده لا ما اشتمل على المصلحه ثمّ انّ القبيح محال فعله على الله جلت عظمته لانّ ارتكابه لا يخلو امّا لحاجة اليه او لجهل به وكلاهما محال عليه تعالى فالقبيح عليه محال ثمّ ايُّ قبيح اعظم من الظلم واشد منافرةً للعقل منه فالظلمُ اذًا محالٌ عليه ثمّ اذا كان مثل التكليف بالمحال وبغير المقدور وجواز العقاب والعتاب على تركه من المولى بانه لماذا لم تفعل وصحة ادخال المطيع مبلغ وُسعه واقصى جُهده الى النار والعاصي كذلك الى الجنة على سبيل المجازاة والاستحقاق لا العفو والتكرُّم كلُّ ذلك ليس بظلم ولا قبيح لانه تصرّفٌ من المالك في ملكه

فقل لنفوس اهل الشرّ بشراً ‏ ‏ ‏ ‏ فبعد اليوم انتِ وماتشائي

واذا لم يكن مثل هذا ظلماً ولا قبيحا . فايّ شيء يكون عدُّه من ذلك صحيحا . اترى لو انّ رجلاً عذّب بعض دوابه او عبيده بانواع العذاب من التنكيل والتمثيل . وباءت منه بالعيش الوبيل . مع طاعتها له وانقيادها اليه وكان الرجل بين امة وحشيه . وجماعة جاهليه . لاتميل الى

ملّه . ولا تنحو لِنحله . اكانت تبسط له العذر في ذلك . وتقول لا يملك
اللوم عليه احد فانه مالك — انتَ واختيارك فالحكم انصافك واعتبارك
وبعد ان ثبت ادراك العقل للحسن والقبح فكل ما يدرك العقل قبحه
لا محالة يستحيل عليه تعالى فثبت كونه عادلا اذ لا نعني من العدل فيه
جلَّت آلاؤه الاّ كون ما يصدر عنه من الافعال غير منافر للعقل ولا يعدّه
قبيحا غاية ما هناك ان العقل لقصوره وضعفه يعجز عن ادراك مصالح افعاله
تعالى لا انّه يقبّحها ويجدها منافرةً له والحقّ المحض . وزبدة المخض . انّ كون
الظلم قبيحًا وكون القبيح محالاً عليه تعالى امر ضروريّ مع ما عرفت من اقامة
البرهان عليه على انّي لا اظنك ترضي ان تنسب لربك . ما لا ترضى به
لنفسك . اِن كنت من اهل التكرّم والكمال . وسداد الافعال والاقوال
فادنى من له مسكة ولو قاصره . يجزم في شعوره ببطلان مقالة الاشاعره
ومن ذلك كله ظهر جليًّا انّ الشريعة المقدسة الاسلاميه تقول انّه جلّ
شانه وعزّ سلطانه لا يحيف في قضائه . ولا يجور في بلائه . ولابدّ ان
يثيب المطيعين . وينتقم بقدر الذنب من العاصين . ويكلِّف الخلق بمقدورهم
ويعاقبهم على تقصيرهم دون قصورهم . ولا يكافي المطيع بالعقاب .
والعاصي بالثواب . ولا يأمر العباد الاّ بالصلاح . ولا يكلِّف الاّ بما به الفوز
لهم والنجاح . والخير بتوفيقه وارشاده ومنشأه منه . والشرّ بخذلانه
بعد اتمام الحجة ببيانه . فهو صادر عنهم لا عنه . فانّ من تمحَّضت ذاته
بالخيرية والكمال والنور . يستحيل عليه بالاصالة فعل الشرور . ومن ذلك
ذهبوا الى انّ العباد في افعالهم غير مجبورين . بل باختيار وارادة منهم
لا يزالون طايعين او عاصين . كل ذلك لكونه جلَّت عظمته منزّها عن
القبيح . كما يشهد به العقل الصريح . والبرهان الصحيح . كيف وقد امر

بالعدل والاحسان . ونهى عن الظلم والعـدوان . ولعن الظلم في صريح القرآن . ونزّه ذاته المقدّسة عن ذلك في كتابه المبين . واخرج الظلم عن اهلية الخـلافة عنه في الارضين حيث قال (لا ينال عهدي الظالمين) وبعد هذا كلِّه فلا اظنّ عـدمَ حصول الجزم لاحد بهذا المذهب الواضح . والسبيل اللاحب . مع ما يترتب على انكاره ممّا اطلعت وستطلع عليه من الفضايح . ولكن من سدّ باب حكم العقل بنفي التحسين والتقبيح حسُنت عنده تلك القبايح . حتى انه لاسبيل له الى اثبات النبوّة ووجوب البعثة بالدليل العقلى لانحصاره بوجوبها من باب اللطف الذي ما تلطف له ذهنه ولا ادركه يقينه ولا ظنّه . وشنايع هـذا القول لاتحتاج الى بيـان فلا يستزلنك الشيطان (والله وليّ التوفيق لي ولك وهو ارحم الراحـمين)

ثم بعد ان تجلّى لك وجوب اتصافه تعـالى شأنه بالعدل على الوجه الـذي ذكرناه واوضحناه فاعلم ان عدّ هـذا الاصل من اصول الدين ليس على نحو الاصول السابقه ولا هو في عرضها وعدادها بل هو من احد صفاته الكماليه تقدّست ذاته . وجلّت اسماوءه وصفاته . فهو من شعب مسألةِ التوحيد . وفروع ذلك الاصل السديد . على ما مرّ من انّ وجوب وجوده . مستلزم بل اقوى دليل على توحيده . وعلى جميع صفاتهِ الكماليه . الجماليه والجلاليه . وهي وان رجعت مع وحدتها الى القِدم والعلم والقدرة والحياة ولكن صفاته جلّ شانه كما لا تُضاهى لا تتناهى . وكما انّ ذاته المنزهه عن الاكتناه لا تُحدّ . فصفاته المقدّسه لا تُحصى ولا تُعدّ

وعلى افتنان الواصفين بوصفه ... يفنى الزمان وفيه مالم يُوصفِ

هركس صفتي دارد ورنكي وثنائي ... تو ترك صفت كن كه از اين به صفتي نيست

عجز الواصفون عن صفتك ... فاعتصـامُ الورى بمغفرتك

تُب علينا فانّنا بشرٌ ماعرفناكَ حقّ معرفتك

وذاك انّ جميع العقول والنفوس . بل كلّ معقول ومحسوس . بل كلّ معنى مشهود . ومبيّن موجود . وممكن محدود . من الافلاك والملائك . والمجرّدات السوامك . والجماد والحيوان . والانس والجان . الى غير ذلك من مخلوقاته . وما لا يتناهى من مصنوعاته . كلّ واحد من اشخاصها وافرادها آيةٌ من آياته . تنبئ عن اسمٍ من اسمائه . وصفة من صفاته . فما من موجود الاّ وهو حرف من حروف كتابه التكويني او كلمة من كلماته وفيضه لاينقطع ابدا . ووجوده لاينتهي امدا . (ولو انّ مافي الارض من شجرة اقلام والبحرُ يمدُّه من بعده سبعة ابحر مانفدت كلمات الله ان الله عزيز حكيم)

اشرقتْ منك لمحةٌ نشأ الـ عالَمُ منها وكُوِّن التكوين
فجميعُ الاكوان ما هنّ مهما كُنّ الاّ كتابُك المستبين

وحيث ان جميع الاكوان والكاينات كلها كلمات الله وكتبه فما المسيح بن مريم (ع) الا كلمة من تلك الكلمات وآية من هاتيك الآيات غير ان الآيات والعلامات تختلف قوة وضعفاً في الدلالة على معلومها عند المستعلمين لا في الحقيقة فالمسيح نظرا الى خلقه الفجائي ووجوده الخارق للناموس الطبيعي هو احرى ان يوسم بوسام (انّما المسيح عيسى بن مريم رسول الله وكلمته القاها الى مريم) والاّ فالمسيح وساير المخلوقات كلهم عبيد الله وخلقه و(لن يستنكف المسيح ان يكون عبدا لله ولا الملائكة المقربون) وكل مصنوعاته سواء في جهة العبودية و النسبة اليه جل شانه وانّما التفاوت فيما بين انفسها لا فيما بينها بالنظر الى صانعها نعم — والعوالم كلها نسخةٌ كتبها الله بيد قدرته . وما قرأ احد شيئًا منها على وجهه الاّ وتوصّل به الى سرّ احديّته . بل هذه هي حقيقة الكتابه . لو وُفّقتَ للاصابه والى ذاك ما يشير العارفون بمضمون قولهم انك لو قسمت الحدّ من الشفره . وفلقت بجدّ تدبّرك الهبا والذرّه . لوجدت فيها كنزا خطيرا . وملكًا كبيرا . وظهرت لك كنوز اللطايف . وشموس المعارف

دل هر ذره را که بشکافی　　افتا بیش درمیانه بینی

ولنأخذ على جامح القلم هنا بعنان الامساك . فانا نخشى ان يبثّ من الاسرار مالا تتحمله الاملاك ولا الافلاك .

يقولون حدّثنا فانت امينها　　وما انا ان حدّثتهم بامين

والغرض انّ عدد صفاته المتعاليه . لاتنحصر في تلك الثمانيه . وانّما هي كما عرفت اصطلاح من المتكلمين على عادتهم في اغلب مباحثهم من قصور النظر ومحدوديته

واما ماشاع من انّ اسماءه تعالى توقيفيه فذاك شيءٌ ذُكر في مبادي العلوم استطرادا واشتهر ولم نعرف له مأخذا ولا استنادا وقد تصفحتُ ما عليه الاعتماد من الاخبار في مظانّ هذه الوظيفه فلم اجد فيها ما يدلّ على ذلك ولا ادنى دلاله بل الذي يظهر منها الاباحة والرخصة وعدم التحديد والتقييد وجواز ان تسمّى ذاته المقدّسه بكلّ اسم دلّ على معنى كمالي وصفة مقدّسه وان تُنعت حضرته المتعاليه بكل نعت مجرّدٍ عن لوثة النقص والامكان ووصمة الخلق والتركيب وكلّ ما هو من صفات المخلوقين التي يجمعها جهة المحدودية وتنتهي الى العدم والفقدان والحاجة والنقصان واما فيما عدا ذلك فالاباحة العامه والرخصة المطلقه — وقانون الشريعة في ذلك مطابقٌ لقانون العقل مطابقةً تامه وهو سواءٌ له في كل جهه — واسماء الله الحسنى وان كانت محدودةً بتسعين او اقل او اكثر ولكن ليست هي كلّ اسمائه المباركه فقد ورد في الحديث الذي تقدّمت الاشارة اليه في باب التوحيد المشتمل على اسرار المعارف وغوامض العلوم في اصول اسمائه القدسيه الذي يقول الصادق (ع) في اوّله خلق الله اسماً (١)

---

(١) قد سبق ذكر هذا الحديث الشريف واحلنا بعض الكلام فيه الى غير دعوتنا هذه من تحاريرنا — ونحن نذكر هنا لطيفا من الاشارة الى ما لعله هو مراد الامام منه وهذه الاشاره وان كانت غير مجدية البيان للاغلب ولا ينتفع بها العامه بل ولا يليق القاؤها اليهم

ولكن عسى ان تصادف لها اهلا يرتاحون اليها ويصلون الى لباب معانيها واسرار مطاويها فنقول حيث ان حقيقة الاسم وجوهر معناه هو ما دل على المسمى فلعل الاسم الذي نعته الامام (ع) هو الوجود المطلق المنبسط على هياكل الموجودات وقوابل الممكنات وهو النفس الرحماني والفيض المنبسط والحق المخلوق به وهذا من اقوى الدوال على ذاته المقدسه ووجوده الحق فهو اسم دال على مسماه كاشف عن مقوم ومحقق معناه والاسم الذي هو من قبيل الحروف والاصوات هو الدال على هذا الاسم وهو اسم الاسم وباجلى عباره واوضح اشاره انّ الاسم الآلهي هو مادل

بالحروف غير مصوَّت وباللفظ غير مُنطق وبالشخص غير مجسَّد الى ان قال بعد عدّ وفيرٍ من اوصاف هذا الاسم الاقدس فجعله كلمة تامة على اربعة اجزاء معاً ليس واحد منها قبل الآخر فاظهر منها ثلاثة لِفاقة الخلق اليها وحجب واحدا منها وهو الاسم المكنون المخزون وسخَّر سبحانه لكل اسم اربعة اركان فذلك اثنى عشر ركنا ثم خلق لكلّ ركن منها ثلاثين اسما فعلا منسوبا اليها فهو الرحمن الرحيم وبعد عدّ جملة من الاسماء قال فهذه الاسماء وما كان من الاسماء الحسنى حتى يتم ثلاثمائه وستين فهي نسبة لهذه الاسماء الثلاثه ثم ختم حديثه الشريف بقوله وذلك قوله تعالى (قل ادعوا الله

على الذات مع تعين خاص من التعينات الآلهيه او الكونيه واول التعينات الكونيه هو فيضه الأطلاقي في ذراري الممكنات المترفع عن افق الزمان والابعاد والجهات الموصوف بتلك النعوت التي وصفها الامام في حديثه السامي وهو اعظم الاسماء الكونيه الالهيه لا الآلهية المتمحضه ومن هذا الاسم خلق الاسماء الاخر الكونيه التي هي من تعينات هذا الاسم الاطلاقي ولا فرق بين هذا الاسم وبين مسماه الا انه عبده وهو ربه (انا اصغر من ربي بسنتين) الحدوث والامكان اشارة الى حقيقته المصطفويه المتحققه بتلك المرتبه التي تقاعس الروح الامين عنها في المعراج وقال (لو دنوت انملة لاحترقت) ولا تنقص حقيقة هذا الاسم عن الذات في الكمالات الاّ بالنقص الامكاني والتأخر المعلولي اللازم لذات المتعين بالله الى المتعين وليس هذا الاسم المخلوق من الاسماء الالهيه الثابته في مرتبة الربوبيه كالعلم والحياة وامثالها بل هذه الاسماء لها السلطنه والربوبية المطلقة على الاسم المخلوق وان كان الاسم المخلوق هو حق مخلوق به الاسماء الخلقية الاخر فالاسم الالهي سواء كان في مرتبة الخلق او في مرتبة الربوبية المطلقه ليس ما هو في الاوهام العامه من الحروف والكلمات بل هي اسماء الاسماء وان كانت تلك الحروف المركبه والاصوات المؤلفة ايضا اسماء بملاحظة انها موجودات كونيه كساير الكونيات ومن هنا ظهر ان الاسماء الالهيه التي هي عبارة عن الذات المتعينه بتعينات كونيه خلقيه حادثة بالحدوث الاسمي بمعنى تاخر التعين عن الذات المطلقه بل هذا جاري في مطلق الاسماء اماّ الاركان الثلاثة فلعل المراد بها في مرتبة الربوبيه الحياة والعلم والقدره وفي الكونيات العرش واللوح والكرسي او القلم والعرش والكرسي ان جعلنا اللوح والعرش بمعنى واحد - ارخي الستر فقد اوشك ان ينكشف السر والسلام

— وآسفني عدم وقوفي على شرح كتاب اصول الكافي في مقامي هذا (لصدر المتألهين) فانه لم يحضرني في ساعتي لانظر الى نظرياته العاليه وفلسفته الوثيقه في شرح هذا الحديث لكي افيد قرّآء الدعوة بخلاصته فمن اراد الاستبحار والتوسع فعليه بمراجعة ذلك السفر الجليل لذلك العارف المتألّه فهو في امثال هذه الغوامض ابن بجدتها وعرابة رايتها وما دفعنا الى نفث هذه الكلمه الاّ الاعتراف بفضل اهل الفضل وعدم بخس حقوقهم ثم ارشاد طالبي المعارف الالهيه الى مواضعها والله سبحانه هو وليّ الارشاد والهدايه

اوادعوا الرحمن اياما تدعوفله الاسماء الحسنى) وربما يستظهر من هذه الكريمة الموحاة نحوى او منطوقا الاشارة الى ما ارتأيناه من عدم التحديد والتضييق كما انه جلي من ملاحظة الاوراد والاذكار والادعية والخطب والمناجاة وساير ما ورد عن اساطين الدين وسدنة الله نعم والقول الفصل في هذا المقام والضابطة الكلية فيه ما اجاب به ابو جعفر محمد الجواد (ع) لمن سأله ايجوز ان يقال لله شيء قال نعم تخرجه من الحدين حد التشبيه وحد التعطيل وتأكيداً لدفع تلك الاوهام — وَرَدَ انه شيء لا كالاشياء وبخلاف الاشياء وانه شيء بحقيقة الشيئيه وان كل ما وقع عليه اسم الشيء فهو مخلوق والله خالق كل شيء وكثير من نظايرها اما ذلك الحَجر والتوقيف وما شاع من المنع عن التسمية والتوصيف فلعله كان استصوابا من علماء الدين وكبراء الله وسديد ملاحظةٍ منهم ان لا يبقى الامر فوضى فتقتحم العامه والقاصرون على استعمال كل ما يقع على السنتهم ويجري على خواطرهم من الاسماء التي لا تليق بقداسة تلك الحضرة المنيعه لما في تلك الاسماء من دلالات النقص التي تخفى عليهم ولا تصلها عقولهم ثم يستمر مرير ذلك الاستعمال حتى يلتصق ذلك الاسم السافل بذلك المقام العالي ويحسب مَن بَعدهم من القرون انها من الشريعة وما هي منها في شيء ونعمتِ النظريّةُ الملحوظة هذه ويرشد الى ذلك مارواه في الكافي في باب النهي عن الصفة بغير ما وصف به نفسه تعالى من حديث مكاتبة عن الصادق (ع) فيها اعلم رحمك الله انّ المذهب الصحيح في التوحيد ما نزل به القرآن من صفات الله عزّ وجلّ فانف عن الله تعالى البطلان والتشبيه فلا نفي ولاتشبيه هو الله الثابت الموجود تعالى الله عمّا يصفه الواصفون ولا تعدُوا القرآن فتضلُّو بعد البيان ه ونظراً لتلك الحكمة الجديرة بالاتباع يكون الاولى عدم استعمال بعض ما لم يرد استعماله في الشريعة الاسلاميه من الالفاظ التي يكون جوهر معناها المجرَّد ثابتاً له جل شانه ولكنَّه محفوف وضعا او اطلاقا بجهة نقصٍ جلّ شانه عنها وذلك كلفظ العاقل والفاهم مثلا فانَّ جواهر معانيها الكماليه المجرَّده عن اللصيق حقيقٌ به تعالى بالاولية والأولويه فانها لا تعدو حينئذ ان ترجع الى العلم او هي نفسه ولكن الذي يستبق الى الذهن منها ان العقل قوَّة للنفس تعقلها عن اتباع مايضرُّ بها من شهواتها وتقودها الى صالح خيراتها وما قارب ذلك من القول والمعاني التي يجلّ حضرة الحق عنها ويبعد منها بعد الواجب من الممكن وكذلك الفاهم والعارف والصحيح والسليم

وكلّما انعطف عليها والتحق بها ولم يرد في شيء من ابواب الشريعة لا في الدعاء والثناء ولا في غيرهما اذاً فالحريُّ عدم التجاوز عمّا في الكتاب الكريم من ذلك الاّ الى المتيقن الضروري صدقه وعدم شايبة نقصٍ فيه كالموجود والثابت والمتحقق ونظايرها فانّها وان لم ترد في الكتاب فقد وردت في ضروب ابواب السنة صريحا او فحوى(١) امّا العدل خصوصيًّا فكانّ الراسخين من العلماء ايضا انّما عدّوه اصلا من اصول الشريعه وافردوه بالعنوان من بين ساير الصفات والاسماء ماهو الاّ لانّه وقع محلا للخلاف في اوايل الاسلام بين اكبر طايفتين منه وكان القول بما يؤدي الى انكار العدل من منع الحسن والقبح العقليين ودعوى انه لا يدرك شيئا منهما قمينا بالبطلان حريًّا بالخذلان لما يترتب عليه من المفاسد التي يرفضها العقل والاسلام براءةً منها — تلك المفاسد التي من اشدّها سدُّ الباب على العقول والالباب ومنعها عن الحكم والحكومة التي اوجدها الله في الانسان لهذه الغايه والاّ فاشرف المخلوقات لا ميزة بينه وبين البهايم والحيوانات ويتفرع على عدم تحسينه وتقبيحه عدم وجوب العدل منه تعالى وصحة وصفه بالظلم تعالى الله عما يقول الظالمون علوا كبيرا ومن اعظم تبعات الحجر على العقل ومنعه عن الحكومه سقوط قاعدة اللطف ووجوبهِ منه تعالى وهي قاعدة اساسية شريفة يبتني عليها جملة من امهات اصول الدين كوجوب اتمام الحجة والتبليغ ووجوب بعثة الانبياء ونصب الاوصياء ووجوب النظر في المعجزه ووجوب دفع الضرر ووجوب المعرفة عقلا ومن جرّاء اخفات صوت العدل واخفاء نوره حكموا بانّ وجوب المعرفه من باب السمع ودليل النقل لا العقل وذهلوا عن استلزامه الدور الواضح وما يفضي الى الفواضح واعطف على ما سبق كثيرا من هذا النسق كالجبر في افعال العباد المستلزم لعبثية ارسال الرسل وانزال الكتب وبطلان ثمرات الوعد والوعيد الى غير ذلك من التوالي الفاسده عصمنا الله وساير المسلمين من كل ما يشين في الدنيا والدين انه هو الراحم والعاصم — نعم وما انفكّ لطوايف المسلمين وزعماء

(١) لم نذكر هنا ولا فيما سبق مبحث الرؤية التي هي احدى الخلافيات بين الطايفتين المتناظرتين في القرون الأولى — لم نتعرض لها لانا نرى البحث فيها عبثا ونحسب ان النزاع بين الفريقين لا يبعد ان يكون لفظيا ولا سيما مع النظر الى (البلكفه) التي تستتر بها احد الفريقين وجعلها جنة له عن اسنة الطعن والشناعة عليه كالكسب الذي تستتر به في مسألة الجبر والاختيار وكلاهما لا يتضح له معنى محصل حتى يرجع الى الصحيح من مقالة غيره فتدبر

اُممهم صرخة مُنكرٍ وضجة نكير على تلك المزاعم من يوم نجوم اوهامها وانتشار قتامها الى هذه الآونه فقد شدَّد في نكيرها وردّها اكثر علماء السنة النبوية واشياخ الطريقة السلفيه وسادات سلاسل الصوفيه وقاطبة متكلمي المعتزله وعامة الاماميه فضلا عن فلاسفتهم ومتكلميهم وحكمائهم امّا الفيلسوف ابن رُشد الاندلسي فقد اصاب المحزّ وطبّق المفصَل وهو على توغُّله في الابحاث الفلسفيه لم يضع الطريقة السلفيه وقد ضلَّل تلك الطايفه في اكثر اصولها وخطَّأها في معقولها ومنقولها وعدَّد كثيرا من منكر آرائها وشدَّد في نكيرها وتطرَّف وافرط حتى صرَّح بتكفيرها راجع من مناهجه صحيفة ٩٠ طبعة القاهره ١٣١٩ وسيِّر نظرك في باب العدل منها فانّه بعد ان اطنب بالتشنيع على من انكره وصرَّح بانها ضالة كافره واورد جملة كافيه من الآيات ودليل العقل على وجوب العدل فيه تعالى قال (وما تقوله الأ ٠٠٠ من انه يجوز على الله ان يفعل ما لا يرضاه او يامر بما لا يريده فنعوذ بالله من هذا الاعتقاد في الله سبحانه وهو كفر وقال في صدر البحث انّهم قد التزموا انّه ليس هنا شيء في نفسه عدل ولا شيء هو في نفسه جور وهذا في غاية الشناعه بانّه ليس ها هنا شيء في نفسه خير ولا شيء هو في نفسه شرّ فيكون الشرك بالله ليس في نفسه جورا ولا ظلما الاّ من جهة الشرع وانه لو ورد الشرع بوجوب اعتقاد الشريك له لكان عدلا وكذا لو ورد بالمعصيه وهذا خلاف المسموع والمعقول الى آخر كلامه واراد بهذه الجمله ما قدمنا نقله من انكار الحسن والقبح وانه ليس الحسن الاّ ما حسَّنه الشارع ولا القبيح الاَّ ما قبَّحه وقد احسن البحث ايضاً في مسألة الجبر والاختيار وقد ابان الاختلاف تفصيلا وجمع الاشارة الى الادلة معقولا ومنقولا وذكر الصحيح من معنى الكسب وزيّف ما ذكروه وابطله وذكر انه بما يقولون لفظ لا محصَّل له وقد اصاب محزّ الصواب في اكثر آرائه ونظرياته ولكن على الجملة لا التفصيل وقد وافق ايمة اهل البيت (ع) في جملة من اصوله ونظرياته وفلسفته ومعتقداته كما شذّ عن ملحوب الحجة في كثير منها ولكن ما العصمة الاَّ لله ولمن عصمه الله والقصارى انَّ الاساطين حذرا من وقوع السواد في حمأة هذه المزاعم واوحال هذه الاضاليل جعلوا العدل اصلا من اصول الدين حتى انهم من مزيد الاعتناء به والاهميَّة سمَّوا انفسهم ومَن وافقهم عليه بالعدليَّة

وليس الغاية والغرض من كلّ ما ذكرناه من النقد والردّ سوى بيان قداسة شريعة الاسلام عن تلك الاوهام وتمحيصها عن كلّ ما يعوقها من موافقة العقل ومساوقته فانّ بين الدين والعلم والعقل اخوة واشجة ورحم ماسّه واسباب نسب وثيقه ولكن بعض من لا دُربةَ ولا درّية له اراد من حيث يدري ولا يدري ان يقطع بين هذه الرحم المتواصله والقرابة الوشيجه وهيهات فانّ تلك المبادي المقدّسه قد اشرقت من مشرقٍ فذّ ونبعت من ينبوع واحد مترابطةً متكانفه كارتباط البسيط في نفسه والشيء الواحد بذاته وحيث انهم الصقوا بالاسلام بعض منافراته عن اخويه — العلم والعقل — وما هي منه في شيء كان كل ما تقدَّم من عنائنا خدمةً نعتدُّها للاسلام وفريضة على كلّ مَن في وسعه شيء من ذلك ازاحةً لِما أُلصق بهذا الدين الكريم من الدخايل وما أُلحق به من الاباطيل والله حسبنا ونعم الوكيل — ثم من العدل ان نكتفي من مبحث العدل بهذا القدر ونجعله خاتمة هذا الجزء ، فانّنا لو ملأنا الصحف والدفاتر ، وافنينا الاقلام والمحابر ، لما احصينا تمام خيراته ، ولا استوعبنا عظيم بركاته ، ولكن هذا ما انهزته الفرصه ، وامهلنا له ما يجرّعنا الزمان من الغصّه ، ولذا كان كله كما يشهد الله على جري القلم وترسّل الطبع وبما يستحضره الخاطر على تشوّشه واخطاره المانعة من الفراغ لهُ اشدّ المنع ، وختامُ العدل انّا نرغب اليه جلّت الطافه ان يعاملنا بلطفه وفضله ويتفضّل علينا بان لا يعاملنا بما نستحق فيهلكنا بعدله

﴿ فانّا نبرء اليه من حسناتنا واليه نلجأ من سيئاتنا ﴾

﴿ والحمد له اوّلا وآخرا وباطنا وظاهرا ﴾

﴿فهرست الكتاب وبيان ما تنطوي عليه صفحات هذه الدعوه﴾

﴿السانحة الاولى﴾

﴿السانحة الثانيه﴾

﴿السانحة الثالثه﴾

﴿السانحة الرابعه﴾

﴿السانحة الخامسه﴾

﴿مقدمة قبل الشروع في المقاصد ، في وجوب النظر ولزوم المعرفه ص ٢٨﴾

﴿ الفصل الاول في اثبات الصانع جلّ صنعه ص ٣٩ الى ٧٦ ﴾

﴿الفصل الثاني في توحيد الصانع ونفي الشريك عنه ص ٧٣﴾

﴿الفصل الثالث في العدل ص ١٠٢﴾

العدل فيها وايراد خطبة جليله من نهج البلاغه على ذكر خطيبها السلام · ذكر فيها حقوق الولاة على الرعيه · وحقوق الرعية على الولاة · وهي انفع واجمع · واحصف واشرف كلام في هذا الباب · ويتلوها الكلام على بعض فقراتها · شبه الشرح والبيان ودفع بعض الاوهام · فيما يتعلق بالعصمه وحسن المشاوره · وفضل الاجتماع والاتفاق وتسويغ ان تكون حجية الاجماع من ذلك الملاك · وغير ذلك من الامور المهمه من ص١١٢ الى ١١٩ — في ان الاتصاف بالعدل يتوقف على معرفة الحقوق وهي على كثرتها تنحصر في ثلاثة اصول · وبيان كلّ واحدة منها · وذكر ضابطتها وكلية العدل فيها من كلمات نهج البلاغه · وهنا مطالب جليله · ومقالات مهمه · من ١١٩ الى ١٢٨

﴿العدل الاعتقادي ص ١٢٩﴾

بيان اتصافه تعالى بالعدل عند جميع المسلمين — ثم الشروع في مباحث الحسن والقبح العقليين — وبيان اتفاق فرق الاسلام على ثبوتهما عدى الاشاعره · ثم تحرير محل النزاع وتصوير معناهما · والحجه على تحققهما · وبيان حقيقة الادراك وفلسفة معناه · وذكر مركز العقل من الانسان وفائدته ووظيفته وتعيين وظايف ساير الحواس · ونسبتها الى العقل · وما هو المايز بين الانسان والحيوان · وما به الاشتراك بينهما · والفرق بين النفس والعقل ومقالة ضافيه في حرية العقل لدى الشريعة الاسلاميه دون غيرها من الشرايع · ونسبة الافعال الى العقل · واختلاف احكامها لديه · وملاك حكمه بالحسن والقبح · كل هذه المباحث الفلسفية تنتشر على عدة صفحات من ١٢٩ الى ١٤٣ — الاصلان الدافعان الاشعريّ على انكار الحسن والقبح احدهما في الخالق وانّ الاشياء كلها ملكه يفعل بها ما يشاء وكيف شاء · وثانيهما في المخلوق وانهم مجبورون في افعالهم فلا يتعلق بها حسن ولا قبح — وبيان هدم هذين الاصلين ومايبتني عليهما ء وتشريح مباحث الجبر والاختيار ومباديهما والدخول منها الى مباحث اخلاقيه وحكم ذوقيه · والبخت والاتفاق · والعيش الاتكالي والحثّ على الجد والعمل · وتفنيد البطالة والكسل من ١٤٣ الى ١٥٧

﴿مباحث القضاء والقدر والعنايه﴾

ضرب مثل للتقريب · الفرق بينها · محل العنايه · محل القضاء والقدر · العلم لايوءثر في المعلوم · مفاتح الغيب · البداء · اللوح المحفوظ · لوح المحو والاثبات

لوح القدر · الكتب الآلهيه · الكلمات الآلهيه · المدبرات امراً · الافعال الاختياريه مبادي الاختيار · الجبر والتفويض · الآيات والاخبار وتاويلها ودلالتها على الاختيار فكّ اغلال القضاء والقدر عن اعناق البشر · لاجبر ولا تفويض بل امرٌ بين الامرين· التكاليف · فايدتها · تربيتها للنفوس البشريه السعي والطلب اسباب النجاح · الجمعُ بين ما دلّ على الزهد وبين ما دلّ على السعي · فلسفة الزهد · اعتماد الانسان على سعيه اوعلى القضاء والقدر · الزهد في الدنيا لا ينافي السعي فيها · اختلاف الاستعدادات البشريه · اختلاف الاميال والحكمة في ذلك · ليس في الامكان ابدع مما كان كل هذه النظريات الغامضه تنحل من ص ١٥٨ الى ٢٠٤ — السعادة والشقاء · ما هي السعاده · مراتب السعاده واصول انواعها · تقابل السعادة والشقاوه — نسبتهما من العلم والجهل · تلازم السعادتين الدنيويه والاخرويه من ٢٠٤ الى ٢١٣ — عود الى تتمة مباحث الحسن والقبح — ما يبتنى عليهما من قاعدة اللطف وغيرها · تقسيم الافعال واثبات العدل واستحالة الظلم عليه تعالى من ٢١٣ الى ٢١٧ — العدل اصلٌ من اصول الدين · الموجودات كلها كلمات الله واسمائه وصفاته · هل أسماء الله توقيفيه كما يقال · الاشارة الى ما يدل على عدم التوقيف · فلسفة القول بالتوقيف وجه عدّ العدل اصلا من الاصول دون ساير اسمائه تعالى · نقل كلام لفيلسوف الاسلام ابن رُشد في انكاره على الاشعريه · الختام — كل هذه من صفحة ٢١٧ الى ٢٢٤

ولا يخفى ان هذا كبرنامج اجماليّ لمندرجات هذا الجزء وعناوين مباحثه · وعسى اذا ساعدت العنايه لانجاز طبع بقية الاجزاء ان نتوفق لوضع فهرست وافي لتمامها على اتم الضبط بالمعجم كالطرز الحديث لفهارس الكتب المعنيّ بها اليوم ان شاء الله ·

وقد وقعت في هذا الجزء اغلاط مطبعيه نستميح العفو عنها من القراء كما نستميحهم العفو عن غيرها من الاغلاط الماديه والادبيه والانسانُ عريقٌ بالخطأ والنسيان وما العصمة الا لله وحده ونحن نُنبّه على ما تيسّر الالتفات اليه من اغلاط الطبع في هذا الجدول وما ذهب علينا فهو موكول الى فطانة اللبيب فانّها لا تخفى عليه ان شاء الله

خطأ	صواب	صفحه	سطر
الانشآءت	الانشاآت	١٧	١٥
ومذ وُجدتني	وَجدتُني	١٨	٩
البذاءت	البذاآت	٢٣	٢

من اَنكاءَما	من انكاءِما	٣٩	٢٣
على كرًّ الجديدين	على كرِّ	٤٠	٢٠
لا ترضي	لاترضى	٥٠	١
اعني الخضوعُ	اعني الخضوعَ	٥١	١٢
والي غاية	والى ايّ غاية	٥٢	٢١
المحدوق به	المحدودق به	٥٣	٤
الأَ وهي	اَلا وهي	٥٦	٢٤
مِن تناهي	مَن تناهى	(ج)	٢٢
ومعها رفعه	ومعها رقعه	١٠٤	١٢
بهذه الرقعه	بهذه الرفعه	١٠٤	١٣
اخفُ	اخفّ	١٨١	٩

وحيث ان الخلل المحتمل سوى هذا ان كان فهو طفيف من هذا القبيل اعني من قبيل وضع حركة موضع اخرى او زيادة نقطة او نقصها فلذلك لم نمعن النظر في تمامه ولم نعمل الدقة في احصائه نظراً الى انه ليس هو مما يخفى على عامة القراء فضلا عن الفضلاء كما ان تلك الاغلاط التي احصيناها ليست كلها بواقعة في جميع النسخ لحصول الالتفات الى بعضها في اثناء العمل فاصلحناها تحت الطبع

﴿ ذكرى وبيان ﴾

استلفت بها نظر القراء الكرام الى امور · «الاول» اننا وسمناهذه الدعوه (بالدين والاسلام) نظراً لبحثنا في اوايل هذا الجزء بل في تمامه عن صحة الدين وتوطيد دعايمه · ونالخنا عنه منالخة الكميّ عن مقاتله · والغيور عن حلايله · وكان النظر فيه على كليته وعمومه من غير وجهة اختصاصيه · ولا قصداً الى نحلة معينه · الأ كونه دينا · وانّ للانسان صانعا حكيما · وقد بحثنا في ما يلي من الاجزاء عن خصوص شريعة الاسلام المقدّسه · وانها هي الدين الحقُّ وحقُّ الدين · وجعلنا العناية في سردوجوه اعجاز القرآن الكريم · وتسجيل انه ما هو وساير الكتب المنزلة من السماء بسواء · ونظرنا نظرات فلسفيه في عامة النبوات · ونسبة النبوة المحمدية منها · ونهضنا للمحامات والذب عنها · ودفع كل شبهة تقال عليها · اووصمة سوء يصمها الجاهلون بها ·

او المناوون لها · وسوف تبرز لك تلك الاجزاء بعونه تعالى حافلة بالمباحث الشريفه حاشدة بالمقاصد المهمه على طرز لم يُعهد وطورٍ لم يُسبق — وما سبق برهان ماسيجيء ان شاء الله · وعلى هذا فأحِر بهذا المشروع ان يتسمى (بالدين والاسلام) او (الدعوة الاسلاميه) — «الثاني» ان هذه الدعوه الساميه الاسـلاميه حلقات متصله · وعرى مرتبطه · يستدعي بعضها بعضا · ويتوقف بعضها على بعض · اواخرُها منوطة باوايلها واوايلها مرتبطة باواخرها · ارتباط النتيجة بالمقدمات · والمبادي بالغايات · ابتناء على اصول محكمه · وقوانين متقنه · تحكم بها الاحساسات الحيَّه · والوجدانات السليمه · والأسس العقليه · فنحن نستميح من عواطف الناظرين فيها والواقفين عليها ان لا ينظروا فيها نظرا سطحيا · ولايستطرفوا طرفا منها ثم ينبذوها ظهريًّا ء نظرةَ مستعجل · واخذةَ مسترسل · ومراجعة مستوفز · بل الرجاء (ولهم الفضل) ان يغرقوا نزعاً في مضامينها ويستوفوا النظر في فصولها ويأتوا بالسبر على كل واحد من اجزائها ولو في طيّ ساعات وغضون ايام · من اويقات الفراغ · وآونات الراحـة والمهله · فانيّ على امل وثيق ان يجد مطالع هذا الكتاب مايرتاح الفكر الى النظر فيهِ · وتنبسط النفس الى مطالعة مطاويه · لسهولة عباراته وسلاسة مجاريه ثمَّ هم بعدُ وما تقترح قرايحهم · ويحكم به انصافهم · من رد اوقبول · او استحسان · او استهجـان لا ابتغي من الكتاب والافاضل الثناء عليه · والاطراء فيه · وتصفيف الأقوال الضخيمه والمقالات الضافية الفخيمه · في تقريضه وتوصيفه · بل بغيتي منهم ورغبتي اليهم · ان ينظروا اليه نظرا مجرَّدا · ويضعوه في محكمة التمحيص والتدقيق عاريا · فيذكرون (فضلا منهم) ماله وما عليه · وما يستحقه على الواقع والحقيقة بنفسه من مدح او ذم · ويعرّفوني محاسنه ومساويه · فالانسان مهما كان اعمى عن عيوبـه · واصمَّ بنفسه عن سيئاته · واني لا محالة اعتدُّ ذلك منهم عليَّ فضلا · وشهامة ونُبلا · كما اني على يقين انهم اذا تربّعوا على منصَّة الحكم سوف لا يحكمون الاّ عدلا · ولا يقولون الاَّ قسطا · من غير ماتعصبٍ ديني · وسوء ادبٍ اخلاقي · ولامداخلةٍ للاغراض والاهواء والله سبحانه هو الرقيب على ذلك والحسيب ء فهو جل شانه الذي لاتخفى عليه خافيه وهو على كل شيء شهيد ء كما ان اشدَّ رجائي وبغيتي ء ممن يقع في يده كتـابي هذا ان لاينبذه في زاوية الاهمال ء ولا يضعه في روزنة الاغفال ء ولا يأخذه ليملاءَ به فراغا من قماطير كتبه · اويسدَّ به فوهةً من غرفة بيته ء فمن لايجد في نفسه نشاطاً لمطالعته

وسبره الى غايته ، فالله والذمّة والضمير رقباء عليه . خصماء له . ان يرجعه من حيث استلمه ، ويردّه من حيث اخذه ، ويسترجع ما دفع بازائه ، من ثمنه الزهيد فضلا عما لو وصل اليه بغير ذلك ، ويكون قد صنع جميلا ، واسدى معروفا ،

﴿الثالث﴾ انه قد مضت سنّة القديم ، وجرت عادة الحديث ، عند اكثر ارباب التاليف ان يقدّموا مؤلّفهم هدية لملك من ملوك زمانهم ، او لوزير من الوزرآء ، او رئيس من الاعيان والوجهاء ، او لاستاذ معلّم ، او لربٍّ مقوّم ، او لصديق عريق ، او لأخ في الفضل شقيق ، او لغير ذلك من ذوي الميزة والاختصاصيات ، وذوي الحقوق على صاحب ذلك التأليف او الشهرة الكافيه ، امّا هذا الضعيف فلا اجد احقّ واليق من ان اجعل دعوتي هذه هديةً باسم روحانية صاحب هذا الدين المقدس واوصيائه وخلفائه الكرام فاننا ان علمنا شيئا فمن رشحات علومهم او اصبنا حسنا فمن نفحات حسناتهم وان تقدمنا فمن يمن بركاتهم والسير على سننهم ومنهاجهم . وان تأخرنا فمن قصورنا او تقصيرنا عن صحة اتباعهم والاقتداء بهم وتدبر معارفهم وحِكَمهم ، والقصارى ان الاوّل والاولى بالحمد والمنه والفضل والاحسان هو الله الواحد الاحد ثم سفراءه ووسائط فيضه ، وسدنة وحيه ، وخزنة هدايته وارشاده ، ثم انني غبّ ذلك أُسدي بكل عاطفة مني جميلَ الثناء . وصالح الدعاء . ووثيق الود . وصحيح الاخاء والحب . شاكراً كلّ من اعانني على نشر دعوتي هذه ونشّطني لها وحثّني عليها ومدّ اليّ يد المساعده ، واتحفني بعاطفة المساعفه ، اخصّ من بينهم خاصة اخواني الذين وازروني ونصروني على طبعها ونشرها ، ونفثوا فيّ روح الهمّة والنشاط للقيام بهذا العناء الباهض والعِباء الثقيل ومانسيتُ من شي ، فما انا بناسٍ اياديهم الجميله ، وعواطفهم الشريفه وما جُبلوا عليه من الصدق والحميّه . والغيرة الدينيّه . وصحيح الوفاء . وصادق الاخاء . والى الله سبحانه ارغب مبتهلا في حسن جزائهم وعظيم حبائهم فانه وليّ المثوبة والاحسان . والله لا يضيعُ اجر من احسن عملا

﴿مجموع صفحات الكتاب مع ماغرّته الحروف ٢٤٠ وملازمه ثلاثون﴾

